سلامه موسى

تربية سلامة موسى

العالم طيب . . . إني أباركك على الحياة .
رامبو



القاهرة
دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية
١٩٤٨

سلامه موسى

Salāmah Mūsa

تربية سلامة موسى

العالم طيب . . . إنى اباركك على الحياة .

رامبو

Tarbiyat Salāmah Mūsa



دار الكاتب المصرى

الطبعة الأولى . . . ديسمبر ١٩٤٧

فهـــــرس

صفحة

المقـــدمة

ميلاد كل منا هو مغامرة مع القدر . نخرج إلى العالم بكفاءات وراثية لا تتغير من أبوين لم نخترهما . ونعيش فى وسط ، تتكون فيه نفوسنا وتملى علينا فيه العقائد وطرز السلوك ، قبل أن تستطيع أن نغيره . ثم تتوالى علينا الحوادث التى تقرر اتجاهاتنا فى الحياة وتقع بنا الكوارث التى نتكيف بها وننزل على مقتضياتها . وعلى الرغم من أننا جميعاً نصاغ فى قالب البشرية ، فان كلا منا فذ فى هذه الدنيا قد كتبت حظوظه ، أو أكثرها ، قبل أن يولد ، إن خيراً وإن شراً . ولذلك فان قصة كل منا هى قصة فذة مفردة تستحق أن تروى وتقرأ .

وكلنا يحب أن يتحدث عن نفسه ، وأحياناً يسرف ويدمن فى هذا الحديث حتى يثقل على إخوانه . ولكن ، مع ذلك ، لا تكاد تخلو حياة إنسان مما يجدر ذكره للمغزى أو العبرة إلا إذا كانت حياة أبله قد مرت به الاختبارات دون أن ينفعل بها . وواضح أن مثل هذه الحياة لا تزيد كثيراً ، من حيث المغزى أو العبرة ، على حياة البقول .

وأحياناً تضطرب العصور التى يعيش فيها المجتمع . فيبعث هذا الاضطراب وجداناً بالأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع ، فيذكو ، حتى العقل الخامد . ويتنبه ، حتى القلب الغافل . ونأخذ جميعاً

فى التساؤل والاستطلاع . ونرفض التسليم بالقيم السابقة أو الطاعة للتقاليد الموروثة . ثم نتطلع إلى المستقبل ونحاول أن نخترع الأساليب الجديدة للعيش .

وقد قضيت عمرى إلى الآن ، وهو يقارب الستين ، فى بقعة مضطربة من هذا الكوكب ، هى مصر . وعشت هذا العمر وأنا أرى انتقالها المتعثر من الشرق إلى الغرب أى من آسيا إلى أوربا . وعاينت مخاضها وهى تلد هذا المجتمع الجديد الذى لا يزال طفلا يحبو كما عاينت كفاحها للانجليز المستعمرين وللرجعيين المصريين . وكل هذا يستحق أن يروى وأن يقف عليه الجيل الجديد .

وأنا إذن فى هذه السيرة لست مؤرخاً لنفسى فقط . إذ أنى حين أترجم بحياتى وأصف للقارئ كيف تكونت شخصيتى وكيف ربيت نفسى ، بل حين أعزو إلى نفسى بعض الفضل فى تحطيم المعابر التى كانت تصل يومنا بأمسنا ، أى بالقرون المظلمة ، وتحاول ربط تاريخ الغد الحافل بالاقتحام والشجاعة والرؤيا بتاريخ الأمس وهو مأساة حالكة بالظلم والفاقة والجهل والجبن ، فى كل ذلك إنما أروى تاريخ العصر الذى عشت فيه وتاريخ الجيل الذى كنت أحد أفراده .

ولكنى ، مع إنى سأروى تاريخ مصر أو أشير إلى الأعلام البارزة فيه مدة حياتى ، فانى مع ذلك لن أكون الراوى الموضوعى . لأنى فى هذه السيرة ، سوف أنظر بعدستى الذهنية وأوثر الانفعال الذاتى على الحقيقة الموضوعية ، لأنى أترجم بالسيرة قصداً أولا ، وأدون التاريخ عرضاً ثانياً .

وواضح أن كل سيرة يرويها صاحبها يعيبها نقص هو الذاتية ، إذ يشق على أذكى الناس أن يحلل نفسه ويعرض لتاريخه ، التحليل والعرض ، الموضوعيين . ولكن هذا العيب هو أيضاً ميزة لأن القارئ ينتفع بشئ آخر لا يجده فى الرواية الموضوعية ، يكتبها غيرنا عنا ، وهو أنه سيقف على وقع الحوادث فى الكاتب .

وقد يعيب السيرة الذاتية أيضاً أن مؤلفها لن يبوح بكل ما يعرف ، وخاصة إذا كان ما يجب أن يبوح به يتصل بأشخاص لا يزالون أحياء يكره أن يؤلمهم . وهناك أشخاص هم فى وجدانى الآن حين أذكرهم أحس أن أنفاسى تنهدات لفرط ما أساءوا إلىّ ولكنى لن أكتب شيئاً عنهم لأنهم لا يزالون أحياء . ويعيب السيرة الذاتية أيضاً أن كاتبها لا يحسن التحليل لنفسه لأن كثيراً مما يراه غيره فيه يعمى هو ، لذاتيته ، عنه . وأخيراً يعيب السيرة الذاتية أن مؤلفها سيثرثر كثيراً وقد يلغو عن صناعته كأنها كل شئ فى حياته . فالأديب يتحدث عن الأدب والطبيب عن الطب . ولكن قليلا من العناية بالتنبه الوجدانى عند الكاتب يؤدى إلى إصلاح هذا النقص .

ونحن ، حين نكتب تاريخنا بيدنا ، نمتاز من حيث أننا نكتب عن موضوع لا يعرف تفاصيله أحد مثلنا . وهذه ميزة كبرى وخاصة إذا حرصنا على ألا تغمرنا التفاصيل فنخطئ الأبعاد ولا نرى الغابة ، فى نظرة شاملة مترامية ، لأننا نشتغل برؤية الشجرة القريبة منا .

وقد يكون الدافع الأول لكتابة هذه السيرة أنى أحس ، إلى حد كبير ، أنى منعزل عن المجتمع الذى أعيش فيه لا أتساق معه

فى عقائده وعواطفه ورؤياه . وعندئذ تكون هذه الترجمة التبرير لموقفى مع هذا المجتمع وهو موقف الاحتجاج والمعارضة . فأنا أكتب كى أسوى حسابى مع التاريخ .

وكل حياة بصرف النظر عن الحياة البقلية البلهاء التى أشرت إليها ، تستحق أن تعرف وتروى أخبارها واختباراتها ، لأننا ، كما يجب أن نقرأ عن القمم التى وصل إليها العبقرى أو القديس ، كذلك ، يجب أن نعرف الأعماق التى هبط إليها المجرم ؛ لأن كليهما إنسان ومن حقنا أن نقف على مقدار العمق الذى تهوى إليه الطبيعة البشرية كما نقف على الارتفاع الذى تسمو إليه . ولذلك أيضاً يجب ألا نستصغر قيمة السيرة ، يكتبها المتوسط العادى وحتى المنحط الشاذ . لأن فى تخلفه عن اللحاق ، أو فى عجزه عن السبق عبرة قد يرجع مغزاها إلى المجتمع الذى عاش فيه فتقع تبعته على بيئته وليس عليه . وعندئذ تكون سيرته دعوة إلى هذا المجتمع كى يتغير ويتطور .

وحين يكتب أحدنا سيرته ، ويخلص بقدر ما تتيح له ظروفه ، يعرض ، من حيث لا يقصد ، للعوامل التى كونت شخصيته وربته . لأننا لا نتربى فى المدارس فقط . إذ تربينا أيضاً العائلة التى نشأنا فى أحضانها الناعمة أو بين أشواكها الخشنة . كما يربينا الشارع الذى اختلطنا بأبنائه ، ثم بعد ذلك ، أى بعد العائلة والمدارس ، نعيش نحو خمسين أو ستين سنة ونحن نتربى بالصحف التى نقرأ كل صباح وبالكتب التى نستنير بها . ثم بالعمل الذى نرتزق به . لأن هذا العمل ، بما فيه من حقوق وواجبات ، يكلفنا تكاليف مختلفة ، ويحملنا على الاختلاط

والتعرف إلى الشخصيات البارزة ، التى كان لها أثر التوجيه الحسن أو السئ فى المجتمع . كما أن تتابع الحوادث وتغير الدنيا بالمخترعات الآلية أو الكيماوية ، ثم اختباراتنا ومحننا ، كل هذا له أثر التكوين والتربية . وكل من يكتب سيرته إنما هو فى الواقع يشرح للقارئ كيف ربى نفسه أو كيف ربته الحوادث . وليس معنى هذا أن التربية كانت حسنة . إذ ربما كانت سيئة ، فان المجرم قد انتهى إلى مأساته باستجابات ورجوع بينه وبين الوسط المادى والاجتماعى ولو أنه استطاع أن يشرح لنا الحوادث التى انتهت به إلى الجريمة ويحلل مواقفه المختلفة من المجتمع ، لأخرج لنا كتاباً منيراً . ولذلك كل سيرة ، مهما يكن « سائرها » تنفع وتنير ما دام كاتبها يكتب فى إخلاص وما دام على شئ متوسط من الذكاء يحمله على أن يبصر بالعوامل المختلفة .

و « تربية سلامه موسى » هى سيرتى أبسطها لقراء الجيل الجديد حتى يعرفوا ما لم يروه أو يختبروه من الحوادث التى مرت بنا فيما بين ١٨٩٥ ، ١٩٤٧ . وأعود فأكرر أنها ليست تاريخاً وإنما هى وقع التاريخ فى نفسى . وسيرتى هى أولا وآخراً تربيتى . وقد اقتبست العنوان من هنرى آدمز ووجدت فى مبناه مغزى قد ينتفع به القارئ .

وقد كتبت فصول هذه السيرة فى سنتين ونشرت بعضها فى المجلات ، ولذلك قد يجد القارئ تكراراً ؛ لأن النية لم تكن فى الأصل تهيئة كتاب بل كانت مقصورة على اختيار بعض الحوادث التى مرت بحياتى مما يصح أن يكون له مغزى للقارئ أو يجد عنده اهتماماً .

الطفولة والصبا

رأيت القرن التاسع عشر بعين الطفولة . ورأيته وهو خلو من الغش لم يلابسه شئ من مخترعات القرن العشرين . وهذا مالا يستطيع أن يقوله أوربى لأن إيماءات القرن العشرين كانت تبدو واضحة فى أواخر القرن التاسع عشر فى أوربا . أما فى مصرفقد حدث العكس ، وهو أن تراث القرن التاسع عشر بل بعض القرون التى سبقته بقيت عالقة ببداية قرننا هذا . ومازلنا فى ١٩٤٧ نرى هذا التراث على أثقله فى طبقاتنا الفقيرة . وليس هذا من ناحية الوسط فقط حيث الفقر المذل ، بل من ناحية النفس أيضاً ، حيث الرضا بالحظ المقسوم والايمان بالخرافات والتسليم بالنظم الاقطاعية كأنها الشئ الطبيعى لمجتمعنا .

أجل ! لقد ركبت الحمار من محطة القاهرة إلى عابدين ، ورأيت الجاموسة تحضر كل يوم من العزبة إلى منزلنا بالزقازيق كى تحلب ثم تعود . وضربت من أختى لأنى ناديتها باسمها من الشارع ؛ إذ كان يعد من الشعائر الاجتماعية العامة ألا تعرف أسماء الفتيات . وعشت فى الزقازيق حين لم تكن تعرف المصابيح ، حتى إننا كنا ، حين نزور بعض أقاربنا ، نحمل معنا « فانوساً » نسترشد به فى ظلام الشوارع .

ورأيت أحد المجرمين يشنق فى ميدان الزقازيق ، وبقيت نحو عام وأنا أفزع من اسمه ، وكان يدعى « سيد أهله » . ولم أكن أستطيع النوم إلا وأنا متعلق بعنق أمى ، ولم أكن أستطيع الدخول فى المرحاض إلا بمرافقة الخادم لأن رسم المشنقة بقى حياً فى مخيلتى الصغيرة . وكان من المألوف الذى كنا لا نحس فيه وخزاً أو عيباً أن يجرى خلفنا الفلاح نحو ساعة ونحن على الحمير وهو يلهث كأنه والحمار سواء .

وكانت لنا دار « قوراء » فى الزقازيق تتسع لحمار أو بغل فى فنائها الذى يستقبل السماء وتفرش أرضه أشعة الشمس . وكانت هذه المطايا أتومبيلات العائلة وفقاً لشعائر القرن التاسع عشر . ولعل إرماد عينى فى صباى كان يعود إلى روث هذه البهائم .

والزقازيق بلدة جديدة لا يرجع تاريخها إلى أكثر من ثمانين عاماً وجميع عائلاتها لهذا السبب ينتمون إلى بلدان أخرى . وكذلك كانت أسرتى فانها ترجع إلى البياضية فى مديرية أسيوط ، وقد تركنا البياضية منذ نحو ١٤٠ سنة أى فى نهاية الحكم الفرنسى وبداية حكم محمد على . وأسرتنا فى مديرية الشرقية تعرف بلقب « العفى » ولا يزال هذا اللقب فى البياضية على الرغم من فرقة تقارب قرناً ونصف قرن . والأصل والفرع يعيشان فى يسر . ولكن ليس هنالك أى تعارف بين أعفياء البياضية وأعفياء الشرقية . ولم نزر هذه القرية منذ ١٤٠ سنة .

أما لماذا هجر فرعنا الحاضر فى مديرية الشرقية هذه القرية الصعيدية ، فاننا نجهل تفاصيله ، ولكنى أرجح هذا التفسير التالى :

لما غزا نابليون مصر فى أواخر القرن الثامن عشر انتعش الأقباط .

ولم يكن الشعب المصرى ، مسلمين ومسيحيين ، يحس الوجدان الوطنى الذى نحسه فى عصرنا . وذلك لأن الوجدان الدينى كان يقوم مقامه . وفرح الأقباط بدخول نابليون واستطاعوا أن يجرءوا على تغيير ملابسهم وأن يرحلوا عن قراهم فى الصعيد إلى القاهرة وبلدان الوجه البحرى . وكانوا إلى ذلك الوقت يتعممون بالعمائم السود مع أزياء أخرى يختصون بها ويتخذونها مضطرين منذ القرون المظلمة . وكانت هذه الأزياء الخاصة تمنع تنقلهم وارتيادهم مدن القطر . فلما جاء نابليون نزعوا هذا الزى واتخذوا الزى المصرى العام الذى كان ينفرد به إخوانهم المسلمون . وبذلك أتيح لهم التنقل . وأنا أعد هذا السبب الأصل لنزوح أبى جدى من البياضية إلى القاهرة ، ثم إلى القراقرة فى مركز منيا القمح ثم إلى الزقازيق .

ومما يؤيد هذا التفسير قول الجبرتى فى حوادث ١٢٣٣ هجرية :

« فيه نودى على طائفة المخالفين للملة من الأقباط والأروام بأن يلزموا زيهم من الأزرق والأسود ولا يلبسون العمائم البيض ؛ لأنهم خرجوا عن الحد فى كل شئ . ويتعممون بالشيلان الكشميرى الملونة والغالية فى الثمن ، ويركبون الرهوانات والبغال والخيول ، وأمامهم وخلفهم الخدم يطردون الناس عن طريقهم . ولا يظن الرائى لهم إلا أنهم من أعيان الدولة . ويلبسون الأسلحة وتخرج الطائفة منهم إلى الخلاء ويعملون لهم نشاناً يضربون عليه بالبنادق الرصاص وغير ذلك . فما أحسن هذا النهى لو دام . »

ولكنه لم يدم كما اشتهى هذا العالم الأزهرى الجبرتى . ويبدو أن الأقباط والأروام عادوا فتوسلوا بالقناصل الفرنسيين والايطاليين إلى محمد على فألغى هذا التميز ، فاستطاع الأقباط أن يختلطوا بسائر الشعب وأن يرتحلوا ويتنقلوا كما شاءوا . وواضح أن الأزياء السابقة التى كانوا يتخذونها منذ الحاكم بأمر الله كانت تجمدهم فى قراهم لأنهم كانوا إذا انتقلوا إلى مدينة غريبة صاروا عرضة ، على الأقل ، للتهزئة والتعيير ، إن لم يكن لأكثر من هذا .

وهجر أبو جدى قرية البياضية حوالى ١٨٠٠ أو ١٨١٠ فى عمامة بيضاء . وكان هذا من الانتصارات الخطيرة للقرن التاسع عشر على القرون السابقة .

وجميع أفراد عائلتنا يعدون ، بحسب الترتيب المزاجى لكرتشمر ، انطوائيين ، يتسمون بالوجه الطويل والقامة النحيفة والاعتكاف أو كراهة الاختلاط . وأحياناً يبدو هذا المزاج فى مبالغة شاذة حتى أنى أعرف أشخاصاً فى أسرة العفى عاشوا كأنهم كانوا رهباناً يتوقون المجتمع ولا يحضر أحدهم عرساً أو جنازة إلا بضغط . وقد لا يجدى الضغط . ولكن هذا الشذوذ كان بالطبع نادراً .

ومات أبى ولما يبلغ عمرى السنتين . ونشأت لذلك فى بيت لا يزوره ضيف ، إلا إذا كان من الأعمام أو الأخوال ، فزادنى هذا الظرف انزواء على ما ورثت من المزاج الانطوائى . وقد صار هذا الانزواء بعد ذلك فضيلتى ورذيلتى معاً . فقد كانت تمضى علىّ السنة والسنتان لا أعرف فيها القعود على القهوة ، كما أنى إلى الآن أجهل ألعاب الحظ الاجتماعية

البسيطة بالورق أو غيره مما يتسلى به غيرى كما أجهل التدخين . وما زلت أفر من المجتمعات فى استحياء أو كراهة . ومع أنى أحسن الكتابة فانى أسئ الخطابة ؛ لأن الأولى تؤدى فى انفراد ، والثانية تحتاج إلى مجتمع . وقد عانيت كثيراً من هذا النقص الاجتماعى فى حياتى بعد ذلك . ولكنى أعزو إلى انطوائيتى هذا الاعتكاف فى مكتبتى ، وهو الذى بسط لى آفاقاً واسعة من الحكمة وأمتعنى بجنات نضرة وغرس فى نفسى ديانة بشرية سامية .

وأولى الذكريات التى تمثل فى ذهنى من أيام الطفولة ، صورة أمى وهى قاعدة إلى فراشى تصلى من أجلى وأنا مريض . ولا أعرف كنه هذا المرض الذى ألزمنى الفراش نحو عام أو عامين . والأغلب أنى مرضت به وأنا فى الخامسة أو السادسة ، ولعله كان حمى الملاريا . لأن الزقازيق كانت فى ذلك الوقت حافلة بالبرك الآسنة . ولما قاربت الشفاء كان خادمنا عطية يحملنى إلى ضريح ولى مسلم يدعى أبا عامر . ولا يزال ضريحه قائماً بقرب الزقازيق . وكان يشترى الشمع ويتصدق بقروش ، ويدور بى حول الضريح ويتمسح به ويقرأ الفاتحة جملة مرات وأنا على عاتقه . وكان عطية متعلقاً بى يهمل شئون البيت كى يقعد بجوارى ويلاعبنى وأنا مريض . وبقى أكثر من عشر سنوات بعد ذلك بمنزلنا . وكان حبه لى ساذجاً يطغى ، فكان يلقمنى الطعام حتى أعجز عن البلع . وكان هذا العجز علامة الشبع عنده ، ولم يتركنا إلا بعد أن اشترى فداناً وآثر الفلاحة على الخدمة المنزلية .

ومما أذكره من تلك السنوات أى بين ١٨٩٥ و ١٨٩٨ أن وباء

الكوليرا فشا فى الزقازيق . فكانت النعوش تخرج متوالية وليس وراءها سوى شخصين أو ثلاثة . وعم الذعر بين السكان ولكن توالى الموت كان أيضاً مجالا للفكاهات . وكنا نحن الصبيان أكثر السكان فكاهات ، فكنا نسير جماعات صغيرة فاذا سمعنا فزعة الموت بصراخ النسوة قابلناها بهيه . . . ثم نجتمع أمام البيت كى نرى الشعائر الأخيرة . وكانت هذه الشعائر تجرى فى سرعة واقتضاب .

وكان مما يحدث أن بعض الصبيان الذين كانوا فى جماعتنا يقع هذا الوباء فى بيوتهم ، فيتركوننا . ولكنا لم نكن نضن عليهم بهذه المظاهرات . ولم يكونوا هم على وجدان بالمأساة إذ سرعان ما كانوا يعودون إلينا قبل أن ينفض المأتم ، وأعنى بالمأتم صراخ النسوة يجتمعن فى البيت . أما إقامة السرادقات للعزاء فلم يكن الوقت يتسع له لوفرة الوفيات .

وأدخلت الكتاب ، ولم تكن بدعة المدارس قد ظهرت فى الزقازيق . وقضيت من السنين مالا أذكره وأنا أجهل القراءة . وكانت غاية العريف أن يعلمنى عن ظهر قلب بعض الصلوات ، فلما حفظت « نعظمك يا أم النور » وهو دعاء إلى العذراء ، رافقنى إلى البيت وقعد هو أمام أمى وانطلقت أنا أسرد الدعاء. وناولته أمى على أثر ذلك جنيهاً .

وتألفت فى الزقازيق جمعية خيرية من الأقباط ، وكان أول نشاطها أن أنشأت مدرسة « عصرية » أى إنه كان بها مقاعد من الخشب ومعلمون فى زى أوربى . وانتقلنا من الكتاب إليها . وشرعنا نتعلم وندرس فى جد . ثم ظهرت المدرسة « الأميرية » فدخلناها . وكان

التلاميذ يلبسون الجلابيب إلى أن زار الخديوى عباس هذه المدرسة حوالى ١٨٩٩ فطالبونا باتخاذ الزى الأوربى . وحصلت المدرسة من كل تلميذ على ٢٥ أو ٣٠ قرشاً ثمن بذلة بيضاء لكل منا . وزارنا الخديوى ونحن فى هذا الزى الأبيض الناصع . ولم نعد بعد ذلك إلى الجلابيب .

ولا يستطيع مصرى التحق بالمدارس المصرية الابتدائية والثانوية الأميرية فيما بين ١٩٠٠ و ١٩٢٠ أن يقول إنه كان هنيئاً بالحياة المدرسية . فقد كانت هذه المدارس ثكنات . وكان كل ما يستحق الاهتمام فيها هو النظام أى الطاعة . ولم نكن نعرف ذلك الروح الديمقراطى الذى يعم المعاهد التعليمية فى هذه السنين . وكذلك لم تكن هناك أية ألفة بين المدرس والتلميذ . وكانت هذه الصفات أبرز فى المدارس الثانوية منها فى المدارس الابتدائية ، حتى كان العام يمر والتلاميذ لا يعرفون اسم المعلم الانجليزى الذى كان ينطق صمته قبل حديثه بالغطرسة ، وكان المعلم يسرع إلى العقوبة لأقل إساءة مخالفة من التلميذ وكانت العقوبة المألوفة أن يحرم التلميذ من الغداء ويعطى رغيفاً يأكله وهو واقف إلى جنب زملائه القاعدين إلى المائدة . ولست أظن أنه كان يقصد بهذه العقوبة سوى تعميم الذلة والهوان بيننا .

وكان التعليم فى المدارس الابتدائية أقل ذلة ، لأن المعلمين كانوا مصريين ، ولكن حتى هنا كان القرن التاسع عشر يشب علينا بأساليب فى الضغط والعربدة . فكان المعلم أحياناً يعمد إلى أسلوب فى العقاب يفشى بيننا الكراهة والوقيعة . ذلك أنه إذا أخطأ أحدنا ورده تلميذ

آخر إلى الصواب عمد هذا الثانى إلى لطم الأول على خده . فاذا تعطف هذا الضارب وأدى العقوبة تأدية شكلية استعاده المعلم وطالبه بالضرب الجدى . فاذا انطلقنا بعد ذلك من الفصل إلى الفسحة أمسك المضروب بخناق الضارب وانتقم منه .

ولكنا كنا نهنأ بالاجازات المدرسية التى كنا نقضيها فى الريف . وهى لا تزال تبرز فى ذهنى كأجمل وأنصع ذكرياتى . وفى هذا الريف اكتسبت كثيراً من الاختبارات التى لا تتحقق لأطفال المدن . وكانت قريتنا تبعد عن الزقازيق نحو ساعة على الحمار . وكنا نلعب مع صبيان المزارعين إلى الساعات الأولى من الصباح . وأحياناً كنا ندبر السرقات فى الحقول للخيار أو البطيخ . ولا يزال عالقاً بذاكرتى بعض الاقتحامات والصبوات . فقد تسلقت ذات مرة شجرة كان فى أطرافها العليا عش . فلما بلغته وجدت فيه فرخى غراب . فأمسكتهما بيدى وشرعت أهبط . ولكنى ما كدت أترك العش حتى وجدت ثورة من اللطم المؤلم والعض الشنيع تغمر رأسى ووجهى . وطار عقلى وأنا فى هذا الاضطراب ، فلم أتنبه إلى أن هذه الثورة هى أم الفرخين يساعدها أب أو عم . ولو كنت أدركت لخليت عن الفرخين ونزلت فى سلام . ولكنى لفرط الألم والرعب بقيت فى غشية مغمض العينين وأنا ممسك بالفرخين أتحسس طريقى الخطرة على فروع الشجرة إلى أن مسست الأرض . وهنا أفقت وفتحت عينى فوجدت ثلاثة أو أربعة من الغربان تصرخ بى وتسب وتهاتر بعد أن أثخنتنى وضرجت رأسى ووجهى بالدماء .

ومرة أخرى فى إحدى جولاتى سمعت خشخشة فى ديس عند حرف

القناة ، فلما اقتربت وجدت جحراً وظننت أنى قد هبطت على عش سأخرج منه بغنيمة . فلما أدخلت يدى قبضت على جسم طرى ، فجررته فاذا به ثعبان .

ولكن الريف لم يكن كله على غرار هذه المفازع . فان مباهجه ، والأنسة الديمقراطية التى كانت تنعقد بينى وبين الصبيان الذين كانوا فى سنى ، والليالى التى كنا نحييها فى السمر أو اللعب ، والاستحمام فى النهر ، وركوب الفرس ، والجولة إلى السوق الأسبوعية ، ثم إلى ذلك معيشة الريف الساذجة ، كل هذا كانت تحفل به حياتنا فى الصبا . وكنا نجد اهتمامات تشغلنا . ولم تكن كلها صبيانية ؛ فانى أذكر أن ولادة الجاموسة حركت عقلى وقلبى جملة أيام ، وما زالت صورتها إلى الآن ترتسم فى مخيلتى وهى فى حرج الولادة تئن وتلهث وتتلفت ، وجميعنا حولها فى عطف نتألم لها ، وكان بعضنا يدعو لها بالسلامة كأنها صديق من البشر ، حتى خرج المولود بعينيه الواسعتين وهو يترنح ونحن نسنده وأمه تحنو عليه وتلحسه .

وحصلت على الشهادة الابتدائية فى سنة ١٩٠٣ ، ولا أعرف بالضبط كم كان عمرى . لأن إثبات الميلاد لم يكن فى أيامنا من القواعد الصارمة . ولكن أغلب الظن أنى ولدت حوالى ١٨٨٧ ، ودخلت السنة الأولى فى المدرسة الأميرية وأنا فى الحادية عشرة وهى السن التى نال فيها ابنى بعد ذلك هذه الشهادة . . . ومع ذلك كنت أعد من صغار السن فى الفصول ؛ إذ كان بيننا من بلغوا العشرين .

وعند ما أقارن بين ما تعلمته بالمدرسة الابتدائية بالضرب وسائر

العقوبات بما تعلمته عفواً فى الريف من اختبارات فى الحياة ، أجد أن الريف قد علمنى أكثر وأكسبنى من المعارف الذهنية والروحية ما يعد تربية حقة ما زلت أنتفع بها إلى الآن . فقد اكتسبت من الريف هذا الحب للطبيعة الذى جعلنى أحس سائر حياتى أن الأرض هى الأم . وأكاد وأنا فى الريف أحس ، مثلما أحس ذلك الراهب فى قصة « الاخوة كرامازوف » لدستوئفسكى ، حين انبطح على الأرض يقبلها ، مثل هذه العاطفة المقدسة . وظنى أن هذه العاطفة هى المبعث الذى انبعث منه بعد ذلك وجدانى الدينى البشرى واستطلاعى الدائم لعالمى النبات والحيوان واهتمامى بشئون العمال .

وكانت حياتنا بالريف سليمة من الناحية الصحية . فانه على الرغم من أننا كنا ندوس الحقول ونخوض القنوات بلا حذاء ونستحم فى النهر ، فاننا لم نعرف البلهارسيا أو الانكلستوما . وذلك لأن التربة لم تكن قد استشبعت بالماء كما هى الحال الآن ، بعد أن عمت مشروعات الرى التى أحالت أرض القطر المصرى كلها تقريباً إلى عزبة لانتاج القطن دون أى اعتبار لصحة الفلاحين . وأذكر أن التربة كانت أيام الجفاف تتشقق ، وكان عرض الشق يزيد على عشرة سنتمترات ويغور نحو نصف متر . وفى مثل هذا الوسط لم تكن الديدان تستطيع الحياة . وكانت صحة الفلاحين سليمة وأجسامهم قوية . ولكن الانجليز المتسلطين على بلادنا وقتئذ رأوا أن إنتاج القطن خير لهم من صحة الفلاحين .

وكانت الحياة الدينية أبرز من الحياة الاجتماعية أو المدنية فى

العائلات القبطية . وهذا على عكس ما نرى الآن . فانى أذكر أنه كان لعيد الميلاد فخجة عظيمة تمتاز بمقدمات ولواحق . وكنا نعد له الأيام ونتهيأ بالملابس والنقل والذبائح . وكانت تفد إلى بيتنا عجوز تقضى فى كل عيد نحو شهر لا أعرف أصلها ولكنى أذكر اسمها خريستا وكانت تقص علينا الأساطير البديعة كما تصنع لنا أنواعاً من الكعك المزخرف .

وقد ورث الأقباط التعاليم الكنسية كما كانت حين تجمدت فى الدولة البيزنطية فيما بين القرن الرابع والقرن السادس . ولذلك كانت « العذراء » بارزة بروزاً يبرر وصف الأوربيين للعقيدة المسيحية فى مصر فى نهاية القرن الماضى وأوائل الحاضر بأنها « ماريلوجية » . ولكن انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر استفز الكنيسة القبطية وأثارها إلى الوجدان المسيحى . وكثير من الأقباط يأسفون على انتشار المذهب البروتستنتى فى مصر ويجدون فيه شقاقاً لم يكن ضرورياً . ولكنى أظن أنه لولا هذا المذهب لما تنبهت كنيستنا الأورثوذكسية ولما استيقظت من نعاس القرون الماضية .

وكانت المرأة ، مسلمة أو قبطية ، تعيش فى ظلام الحجاب لاتجالس الضيوف من الرجال . وكان هؤلاء يزورون أو يزارون فى « منظرة » لا تشترك فى لقائهم المرأة . وكان البرقع عاماً لا تخرج امرأة إلا ووجهها مقنع . وأذكر أن أمى وأختى المتزوجات التزمن البرقع إلى حوالى سنة ١٩٠٧ أو ١٩٠٨ حين تركنه . وظنى أن هذا الترك كان من أثر البروتستنت أيضاً لأنهم كانوا ألصق بالغربيين وأكثر أخذاً بطرقهم منا نحن الأقباط الأرثوذكس .

أمى وأخوتى

لا أذكر أبى لأنه مات وأنا دون السنتين فى ١٨٨٩ ، ولكن جو البيت فى طفولتى كان حافلا بذكراه . فقد كانت أمى تصف سنة وفاته بـ « السنة السوداء » . وبقيت بذلته معلقة إلى الحائط جملة سنوات كما كانت يوم وفاته حتى القميص المنشى بياقته المتصلة لم يكن يبرح مكانه . وكنت أسمع القصص عنه . وقد بقينا عقب وفاته نتناول مؤخر مرتبه عشرين شهراً تقريباً . وهذا بالطبع غير المعاش . ومن هنا يعرف القارئ مقدار الافلاس الذى كانت قد هوت إليه الحكومة . فقد كان الموظفون تتأخر مرتباتهم سنة أو سنتين . وكانت الرشوة تتفشى لهذا السبب . وكانت وظيفة أبى « رئيس تحريرات مديرية الشرقية » ولم يزد مرتبه على سبعة جنيهات ونصف جنيه ومع ذلك ترك لنا وقت وفاته أكثر من مئة فدان . وكان الثمن المعتاد فى تلك السنين عشرة جنيهات أو عشرين جنيهاً للفدان . وقد اطلعت على عقد بيع لجدى فى نحو سبعين فداناً (حوالى ١٨٤٠) وكان اهتمام الكاتب للعقد بشأن أدوات الزراعة ، كالمحراث والنورج ، وأوصاف الماشية ، من بقرة إلى جاموسة إلى حمار ، أكبر جداً من اهتمامه بالأرض التى لم تستغرق سوى ثلاثة سطور بينما استغرقت الأشياء الأولى أكثر من أربعين أو

خمسين سطراً . وكان اتخاذ البذلة الأوربية جديداً فى تلك السنين أى قبيل وفاة أبى بين الموظفين . وكانت البذلة المألوفة شيئاً يسمى « السترة الاستامبولية » وكانت سوداء بين الردنجوت والبونجور . وكنا نسمع القصص التى تروى عن التجارب الأولى فى خلع الملابس القديمة واتخاذ البذلة الأوربية . وكانت هذه القصص مجالا للتنادر والضحك .

والطفولة فى أيامنا كانت أكثر امتاعاً ، ولكن أقل تنبهاً ، مما هى الآن . لأننا قضيناها فى الزقازيق والريف . وكانت الزقازيق تخلو من تلك الحركة الصاخبة الخطرة التى ترى الآن فى القاهرة ، فكنا نجول فيها مطمئنين أو نخرج منها إلى الحقول المجاورة ، ولكن لم يكن هناك ما ينبه الذهن ويبعث الاستطلاع .

ومما أذكره وأنا فى الرابعة أو الخامسة أن شاباً يدعى زغبان غرق فى القناة التى أمام بيتنا . وأخرجت جثته ورأيتها محمولة على عاتقى أحد الشبان وخلفه عدد كبير من الرجال والنساء فى لغط وصراخ . ثم صار لزغبان هذا روح أو عفريت يتردد فى الظلام فنخوف به ، وتذكره الأم لطفلها المشاغب فيسكت ويخنس .

حدث هذا حوالى ١٨٩٢ ، وفى ١٩٤٥ أى بعد ٥٣ سنة كنت أسير إلى هذه القناة . فسمعت من إحدى الأمهات اسم زغبان تخوف به هذه الأم طفلها ، وهنا عبرة تفسر لنا نشأة الخرافات .

وعاشت أمى معى إلى ١٩١٦ حين ماتت فى الثالثة والسبعين . وكانت امرأة متدينة تعنى بالصلاة والدعاء وقت مرضى أيام الطفولة أكثر مما تعنى باستشارة الطبيب . وقد قضيت طفولتى وأنا فى ملابس

سوداء أحمل عبئاً من التعـاويذ يعوق الحركة الحرة ، بل لا تزال فى أذنى علامة الخرم الذى علق به قرط إيهاماً بأنى لست غلاماً بل بنتاً حتى تتقى بذلك العين . وقد رأيت وأنا أقرأ « الأرض الطيبة » لبيرل بك أن هذه العقلية تسود الصينيين أيضاً . فان الأم فى هذه القصة تتحدث عن ابنها كأنه بنت حتى لا تصيبه الآلهة بالعين . وقيمة الذكر تزيد على قيمة الأنثى كلما انحط شأن المرأة . ولذلك كان للغلام ، ولا يزال إلى حد كبير ، مكانة كبيرة فى مثل الصين أو الهند أو مصر يمتاز بها على أخواته البنات .

وجميع الأمهات المصريات اللاتى ولدن قبل مئة سنة لا يختلفن . فهن طراز واحد من حيث الأمية والايمان بالخرافات واحترام التقاليد والتزام الحجاب . ولكن إذا كان النور قد نقصهن فان الطيبة لم تكن تنقصهن . لأن المطامع المالية الحاضرة لم تكن معروفة والتفاخر بالأثاث والأزياء والمقتنيات لم يكن أيضاً معروفاً إلى الحد الذى بلغه اليوم . ولا أذكر يوماً رأيت أمى تأكل وحدها إذ كان على الدوام هناك امرأة أخرى فقيرة تتغدى معها .

وقد تركت أمى فى نفسى ذكريات من الحنان لا تزال تعود إلى ذهنى فتغمرنى بلذة أليمة . فما زلت أذكرها وأنا فى طفولتى ، وأنا فى الحمى أتقلب وأستيقظ فى فترات فأراها قاعدة إلى جنبى تدعو وتصلى كأنها قد نسيت النوم . وكانت فى سذاجة عقائدها ، حين كنت أودعها للسفر إلى القاهرة وأنا بالمدرسة الثانوية ، تنادينى عقب خروجى من الباب وتصر على أن أدخل البيت ثانية ، كأن فى هذا رمزاً إلى عودتى

سالماً بعد السفر . وكان أكثر إلحاحها علىّ قبيل موتها أن أتزوج . ولذلك فى ليلة العرس ، وأنا قاعد إلى جنب عروسى فى الزفاف ، فى ١٩٢٣ ، بعد موتها بسبع سنوات ، تذكرت إلحاحها وغيابها فارتعشت وانتفض جسمى وطفر الدمع الذى لم أجرؤ على مسحه . ولكن عروسى أخبرتنى بعد أيام أن بعض الحاضرين للزفاف يقولون إنى كنت أبكى . . .

وأنا أصغر اخوتى . ولذلك لا أذكر اثنتين من أخواتى بالبيت لأنهما تزوجتا قبل أن أبلغ وجدانى . وكل ما أذكره عنهما أننا كنا نرحل مع والدتى إلى مقرهما فى ميت غمر بالهدايا من الخراف والدنادى والفواكه والنقل . ونحمل كل هذا معنا على العربات إذ لم يكن بين الزقازيق وميت غمر خط حديدى . وظنى أن هذا كان يقع فيما بين ١٨٩١ و ١٨٩٥ . ولا يزال لميت غمر أثر نضر فى ذاكرتى . ذلك أنه كان يقصد إليها الغليون من أثينا أو أزمير أو بيروت . والغليون هو سفينة شراعية تحمل نحو عشرة أو أكثر من الأشرعة وكانت تجتاز البحر المتوسط ثم النيل إلى أن تصل إلى دمياط فالمنصورة فميت غمر فبنها فالقاهرة وتحمل معها جميع المتاجر من تركيا ويونان ولبنان . وكانت ترسو إلى الشاطئ فكنا نقصد إليها نحن الأطفال ، مع مئات من الكبار ، ونشترى النقل والفواكه المجففة والحلوى الطحينية . وكانت تبيع كل شئ تقريباً حتى ملابس الأطفال اليونانية اللونية فى أحمرها وأصفرها وأخضرها . وكان رسو أحد هذه الغلايين أشبه بالأعياد لأن المدينة كانت تهرع إليه وتشترى حاجاتها ، فتطن الشوارع بالحركة .

أما أختى الثالثة فلا أذكرها بالبيت ، ولكنى أذكر ضجة العرس التى علقت بذاكرتى لما كان فيها من موسيقا وثريات وسرادق يملأ الشارع أمام البيت ، وبقى هذا السرادق نحو سبعة أيام أو أكثر. وانتعشنا فيه باللعب والسهر.

أما أختى الصغرى فهى الرابعة وأذكرها بنتاً بالبيت قبل زواجها وكانت تقودنى إلى الكتاب ثم تأتى إلىّ وقت الانصراف وتعود بى إلى البيت . وكانت بيننا ألفة دامت سنوات إلى أن تزوجت وتركتنا . ويبدو أنى أسأت الاستعمال لهذه الألفة . ففى ذات يوم وقفت فى الشارع أمام البيت وناديتها باسمها كى تفتح لى . فما أدرى إلا وقد انفتح الباب وانهالت هى علىّ ضرباً . لأنى ناديتها باسمها . لأن الحجاب كان لا يزال يغشى بيوتنا . وكان يقضى بألا تذكر أسماء البنات كما يجب ألا ترى وجوههن ، وظنى أنها حجزت بالبيت منذ العاشرة وأفسد هذا الحجاب برنامج تعليمها . فقد كانت بالزقازيق مدرسة قبطية للبنات ولكن الرجعية الاجتماعية حالت دون الانتفاع بها . ولذلك لم تتعلم واحدة من أخواتى إذ كن يحجزن بالبيت وهن حول العاشرة .

وهذه الألفة التى دامت سنوات الصبا بينى وبين أختى الصغرى بالبيت بقيت حباً وصداقة إلى يوم وفاتها فى ١٩٤٤ ، حين قعدت أمامها وهى فى عذاب الذبحة الصدرية تكافح الموت إلى أن غشيتها غيبوبة الليل الطويل . وما زلت أذكر تلك الساعات المؤلمة التى كانت تهيأ فيها للاحتفال بالزواج . فانى لم أكن على وجدان بأنها ستفارقنى وكنت مغتبطاً بضجة العرس زائطاً . أما هى فكانت تخطفنى وأنا أسر عليها

أعدو وأزأط فتعانقنى وتلهث وتنشهق بالبكاء . وبقينا إلى يوم وفاتها ونحن نتزاور مرة على الأقل كل أسبوع .

وفى الوسط العائلى المصرى يسود الوئام والحب اللذان لا يفسدهما سوى المطامع المالية من أحد الأعضاء . ولكن أحياناً تسود الشهامة . فقد كان أبى موظفاً فى مديرية الشرقية . وكان هناك قانون يحرم على الموظف أن يشترى أرضاً فى المديرية التى يعمل فيها وذلك تلافياً لاستعماله وظيفته وسلطته لمصلحته الخاصة . فكان أبى يشترى الأرض ثم يسجلها باسم أحد أولاده . فلما مات كان معظم أرضنا مسجلا باسم البنتين الكبريين ، اللتين تزوجتا فى ميت غمر . وكان الزوجان شقيقين وكان أبوهما غبريال سعد بك رجلا شهماً . فلما رأى أن ثروة أبينا توشك أن ينتقل كثير منها إلى زوجتى ابنيه أى أكثر مما تستحقان انتظر حتى بلغت أختاى سن الرشد ثم جمعهما مع زوجيهما وحملهم جميعاً على التنازل لى أنا وشقيقى . وكنت أنا فى الثالثة أو الرابعة وشقيقى فى السابعة أو الثامنة . وقد سمعت من أمى بعد ذلك بسنين أن هذا الرجل الشهم لم يبال أن ينتهر ابنيه حتى يجبرهما على الموافقة على التنازل . وبدهى أن مثل هذه الشهامة نادرة فى أيامنا . ولا بد أيضاً أنها كانت نادرة وقتئذ . ولذلك فان فضل هذا الرجل عظيم ، وقد بورك له فى عائلته حتى أصبح نسله يعقوبياً يتجاوز المئات عداً ، وكلهم تقريباً ناجح موفر المال والعمل الكسب .

والراضون عن النظام الاقتصادى الحاضر فى مجتمعنا الاقتنائى كثيراً ما يذكرون العائلة وأن نظامنا يؤيدها . مع أنه لا يفكك العائلات

ويضع البغض مكان الحب بين أعضائها سوى الخلافات المالية التى تلابس هذا النظام . وقل أن تجد عائلة متوسطة أو ثرية بلا خلاف مالى بين أعضائها مرجعه طمع أحد أعضائها ورغبته فى الاستئثار دون الآخرين . ولم تنج عائلتنا من هذه الخلافات التى سودت العلاقات . ولو أننا كنا نعيش فى نظام اشتراكى ومجتمع تعاونى غير اقتنائى لما كان هناك مجال لهذه الخلافات التى تكاد تعم العائلات فى أيامنا . وإنى أذكر السنوات الطويلة والعناء العظيم الذى انفقناه فى خلافات كان منشأها امتياز واحد على آخر أو طمع واحد فى آخر . وكلها مطامع مالية ما كانت لتكون لولا أننا نتعلم منذ الطفولة بأن هذا لى وهذا لك . وإننى يجب أن أتفوق عليك فى اللعب والعمل وفى المدرسة والمجتمع : روح خبيث يقال لنا إنه يعمل للرجولة مع أنه يعمل للعداوة والبغض والحقد . وقد لقيت أختى الصغرى عناء بل سرقة صريحة من بعض أعضاء عائلتنا . ولم يكن المرتكب لهذه السرقة يحس أنه مجرم بل كان يتباهى لأن روح المباراة ، هذا الروح الاقتنائى الذى ننشأ عليه ، قد أكسبه هذه العقلية . وكلنا مغموسون فى هذا الفساد بدرجات متفاوتة . ولذلك قل أن نجد مثل ذلك الرجل الشهم الذى أشرت إليه غبريال سعد بك يعارض هذا الروح الاقتنائى ويطلب الخير لغير أبنائه .

وجميع العائلات المصرية موبوءة بالشقاق الذى يرجع إلى مطامع ثم خلافات مالية بشأن الميراث أو الوصية أو الوقف . وقد عرفت عائلات بقى الخلاف فيها بين الأخوة نحو عشر سنوات وهم مشتتون فى المحاكم الأهلية ، ثم المحاكم المختلطة . إذ كان أحد الأخوة يعمد

إلى أجنبي مشاكس فيأجره على المعاكسات التى تنقل القضايا من المحاكم الأهلية إلى المحاكم المختلطة وتصل إلى الاسكندرية . يفعلون هذا وينقطع كل منهم عن زيارة الآخر وتنمحى عاطفة الأخوة بينهم فيعودون أعداء يبحث كل منهم عن دماء الآخر . ولا أكاد أجد عائلة تخلو من هذه الخلافات إلا إذا كانت تخلو من العقارات الموروثة . فقد عرفت عائلة مسلمة قريبة من عزبتنا ترك الأب فيها للورثة أكثر من ١٥٠ فداناً ، ثم جعلها وقفاً وعين ناظراً للوقف أكبر أبنائه . ثم فشا الخلاف بين الورثة وكانوا يزيدون على عشرة . فلم يكن من هذا الناظر إلا أن أجر الأرض الموقوفة إلى رجل يونانى أو إيطالى . وجاء هذا الرجل إلى الأرض يزرعها بنفسه ، وأصبح الورثة يتضرعون إليه كى يعطيهم نصف أردب من الذرة أو القمح أو جنيهاً أو جنيهين . . . وأعرف رجلا آخر كان ثرياً « باع » أرضه لورثته . ولم يكن الغرض من هذا البيع سوى التمييز لبعض دون بعض . وكان هذا البيع بالطبع صورياً . وكان يعتقد أنه سيبقى متصرفاً إلى يوم وفاته . ولكنه عندما قصد إلى عزبته ، عقب البيع ، كى يبيع القطن ، قابله الخولى وأخبره بأنه لا يملك شيئاً لأن ابنه الذى « اشترى » منه يمنعه من التدخل فى أرضه ، وحزن الرجل واحتقن الحزن فى قلبه فأصابه فالج مات به بعد أقل من شهرين .

وأيام صباى يملأها شقيقى الذى يكبرنى بأربع سنوات . وكنت أعده بطلا لجراءاته واقتحاماته . وقد ذهبنا معاً إلى كتاب مسيحى ثم إلى كتاب إسلامى . ثم عدت إلى كتاب مسيحى . وخرجت من

هذه الكتاتيب الثلاثة بعد ثلاث أو أربع سنوات وأنا لا أحسن قراءة سطر . وإنما أحفظ عن ظهر قلب بعض الصلوات المسيحية وبعض سور القرآن . ولم أشرع فى القراءة إلا بعد أن دخلت المدرسة الابتدائية التى أنشأتها الجمعية الخيرية القبطية فى الزقازيق .

وكان شقيقى طفلا ذكراً بعد بنات أربع . وأذكر من بعض اقتحاماته أنه ألف فى الزقازيق عصابة كنت أنا أحد أعضائها . وألف على الشمسى (باشا) عصابة أخرى . ففى ذات يوم انفردت بنا عصابة على الشمسى وأوسعتنا ضرباً وإيلاماً لخصومة كانت قائمة بينه وبين شقيقى . ولكننا بعد ذلك استدرجنا على الشمسى إلى طريق ناء شمال الزقازيق ثم أثخناه بالعصى والأحجار حتى عاد مريضاً . وكان والده أمين الشمسى باشا يعرف عائلتنا لصداقة قديمة بينه وبين أبى . ولم أكن أمر عليه وهو أمام منزله حتى أقبل يده فيسألنى عن أعضاء عائلتنا . وكان فيما بين ١٨٩٥ ، ١٩٠٠ مغضوباً عليه من رجال الحكم لأنه كان عرابياً فى ثورة ١٨٨٢ إذ انضم إلى الحركة الوطنية ضد الخديوى توفيق مع أنه كان تركى الأصل . وكان الصراع بين عرابى والخديوى صراعاً ، إلى حد بعيد ، بين الأتراك والشركس من جانب وبين المصريين من جانب آخر . ولكن أمين الشمسى باشا عرف عدالة المطالب المصرية وانضم إلى العرابيين .

ولما كنت فى انجلترا فى ١٩٠٨ أرسلت إليه خطاباً أقترح عليه فيه إنشاء مدرسة لتعليم أبناء الفلاحين الذين يعملون فى أرضه وأرضنا وكنا متجاورين . لأن عزبته كانت ملكا لجدى ولا يزال اسمها

« كفر سليمان » باسم جدى . وأرسلت مثل هذا الخطاب إلى كبراء المالكين من عائلتنا ، ولكن خطابى لم يجد سوى التسلية عندهم جميعاً لأن الوجدان التعليمى كان لا يزال فى مصر خامداً . ولم يكن خطابى سوى ثمرة الوسط المتمدن المتنبه لقيمة التعليم فى لندن .

وقد باع جدى « كفر سليمان » هذا إلى الشمسى باشا قبل أن أولد أنا بنحو ١٥ سنة (حوالى ١٨٧٢) . ولكنى نشأت على الاصطلاح أنه « الكفر القديم » وهو يبعد عن كفرنا الجديد بنحو كيلومتر . وقد زرته وأنا طفل مع بعض أقاربى فأرونى بيتاً أو زريبة كانت تسمى « بيت العبيد » أى المكان الذى كان يحجز فيه العبيد فى الليل ويقفل عليهم حتى لا يفروا . . .

وبالطبع لم تكن فى أيامى عبودية ولا عبيد . ولكن الذكرى كانت قريبة . فانى وأنا طفل كنت أخوّف بكلمة « فرج » وهى اسم عبد مات فى إحدى غرف المنزل وبقيت ذكراه تتسلسل للتخويف من إخوتى إلىّ . وكذلك رأيت امرأتين سوداوين إحداهما كعب الخير والأخرى زهراء . وكانتا جاريتين عندنا شملهما قانون تحرير العبيد ولم تنقطعا عن زيارتنا . بل كانت إحداهما تقضى الشهور ، عندما تترك زوجها ، فى بيتنا . وكانت تكل أبى فى مفاوضات الصلح مع زوجها حين كان يعود لطلبها .

وكانت بينى وبين شقيقتى نحو أربع سنوات . فلذلك لم تكن بيننا رفقة أو زمالة . وقد وجدت هذه الرفقة والزمالة فى ابن خالة لى يدعى ميخائيل . وكان من سنى . وقد ترافقنا طفلين ثم صبيين ثم شابين .

ومن الذكريات البارزة فى صباى مدينة بسطة الفرعونية . فقد كنت أزورها مع ابن خالتى هذا حين كانت لا تزال بيوتها قائمة والغرف فى بعض هذه البيوت لا تزال تحتفظ بجوها الحميم حتى مكان الشمعة فى الطاق كان واضحاً بسواد دخانها . وكانت الشوارع الضيقة سالكة بين البيوت . وهذا إلى عشرات من التماثيل الحجرية ، ولم يبال الانجليز أن تمحى هذه المدينة مع قيمتها التاريخية العظمى ، إذ جعلوا بيوتها وأنقاضها سماداً « كفرياً » ينقله الفلاحون إلى حقولهم . ولم يعد لها من أثر الآن .

وكان ميخائيل يسكن فى بيت يجاور منزلنا ، فلم نكن ننفصل طوال النهار ، وإليه أعزو نزعتى الثقافية ، فقد كان منذ صباه يحب الشعر ويتفصح وكنت أعجب بفصاحته . وكنا نشترى المؤيد ونقرأه معاً . بل تجرأنا ذات مرة على أن نؤلف درامة جعلنا فيها البطل ملكا يقص حلماً على المسرح ثم يتحقق هذا الحلم . ولكننا لم نثابر إلى النهاية فقطعناها فى منتصف الفصل الأول . وقد ثابرت أنا بعد ذلك على الدراسة وانقطع هو عنها . ولكنه لم يقاطعها . فانى ما زلت إلى الآن عندما ألتقى به أجد فيه الالتفات إلى الحركات الأدبية بل أجد النقد الذكى . ولكن من ينظر إليه هذه الأيام لا يعتقد أن سنه تزيد على الأربعين مع أنها لا تقل عن ٥٩ أو ٦٠ سنة . وقد يعزو بعضهم هذا الشباب إلى حياة السرور التى كان ولا يزال يؤثرها على أى اهتمام آخر . وبقينا مترافقين مدة التعليم الابتدائى ثم افترقنا حيث توظف هو والتحقت أنا بالمدارس الثانوية بالقاهرة . ولكنا كنا أيام الأجازات

لا نفترق . وقد اهتززت سروراً وتأملا قبل سنتين عندما زارنى بالقاهرة أحد الأقارب المزارعين ورأى حولى مئات الكتب . فتأملها ثم تنهد وقال : « لم يغرس فيك هذه العادة المرذولة سوى هذا الملعون ميخائيل ابن خالتك . » وقد قال هذه الكلمة الصادقة لأنه كان يرانا فيما بين ١٩٠١ ، ١٩٠٤ نقرأ معاً وندرس معاً فى هوس لم يكن يجد فيه هو سوى خسار المال والذهن والوقت .

ولا تزال ذكريات الصداقة والرفقة بينى وبين ميخائيل عذبة فى ذهنى . ولم أعرف صديقاً بعد ذلك لازمنى وتناسقت معه فى الصداقة المنيرة المربية سوى عزمى الدويرى الذى عرفته فى ١٩٣٠ وفقدته فى ١٩٤٤ . وكان فى بداية صداقتنا خاماً أخضر فى ثقافته يقرأ الكتب العربية ويستضئ بمصابيح خافتة . ولكنه بعد أن عرف المؤلفين الأوربيين انغمس فى المذاهب الأوربية والسياسية الجديدة واستضاء ذهنه بها وصار يمتاز بالعقلية العالمية . وجرّ عليه هذا النور الجديد عسفاً من البوليس السياسى لم يباله . وكنت كثيراً ما أذكره باعجابه القديم بأدباء البهرجة البلاغية ثم احتقاره لهم بعد ذلك فيضحك كثيراً . بل الحق أنه استحال بعدأن عرف الآداب الأوربية خصما لهم يعد وجودهم عائقاً لتطورنا الثقافى والسياسى . وظنى أن هذا هو اختبار جميع المنتقلين من الأدب العربى إلى الأدب الأوربى حين يقرأونه فى لغاته الأصلية غير مترجم . وقد ترك موت عزمى فى نفسى لوعة لما تنطفئ .

وقد رأيت أخواتى يمتن واحدة إثر الأخرى . والموت يفقد لذعته

عند ما تكون السن متقدمة لأن الرحلة الأخيرة إلى الليل الطويل تسير هوناً والموت يأتى على ترقب . ولكن عندما كان الموت يفجأ إحداهن وهن لا يزلن فى بداية العقد السادس أو السابع كان وقعه فى القلب ووطأته على العقل يحدثان جموداً كأنه كابوس اليقظة ، ولكن السنين تحيل بكيمياء الزمن هذه الكوارث حتى إنى عندما أذكرهن الآن أحس الحزن عليهن فى حنان ورقة وليس فى ألم وغضب .

وأستطيع الآن أن أعرض لجميع الشخصيات البارزة فى عائلتنا ، سواء أكان هذا البروز للفضيلة أم للرذيلة ، وهذه الشخصيات هى الآن فوق الخمسين أو الستين . وعند ما أرجع بذاكرتى إلى أيام طفولتهم وإلى الظروف البيئية الأولى التى سعدوا أو تعسوا بها أجد التعليل الكافى لسلوكهم الحاضر . وأستطيع أن أقول ، فى ضوء ما أعرف من سيرتهم ، بل أحياناً سيرتهم الحميمة ، إن التعاسة الأولى التى ينكب بها أى إنسان فى حياته إنما هى التدليل . وأن التعاسة الثانية هى الاضطهاد . فجميع أولئك الذين لقوا تدليلا أو اضطهاداً فى عائلتنا أيام طفولتهم فسدوا . ومعنى « الفساد » هنا ليس العجز عن الكسب أو حتى العجز عن الانتصار المألوف فى معركة الحياة . ولكنى أعنى ذلك الفساد الاجتماعى الذى يقارب الاجرام بل هو إجرام تخفيه رفاهية العيش . فان الشخصية السيكوباثية التى وصفها صديقى الدكتور صبرى جرجس فى كتابه واضحة فى عائلتنا فى جميع أولئك الذين لقوا تدليلا أو اضطهاداً أيام طفولتهم . وقد يقع الاضطهاد لأن

زوجة الأب أساءت إلى ابن زوجها فى المعاملة وميزت عليه أطفالها دونه فعلمته المكر والخبث والكذب والغش . فنشأ على هذه الأخلاق التى صار يعامل بها المجتمع . ولكن فى ذهنى زوجة أب أخرى عاملت ابن أختى الدكتور رزق الله موسى فى طلخا بالنزاهة والرفق والحب ، فنشأ قديساً . وفى ذهنى آخر فى الخامسة والستين من عمره دلله أبواه فنشأ وكل حياته جرائم . ولكن أولئك الذين وجدوا النزاهة والانصاف فى التربية أيام الطفولة هم إلى الآن فى شيخوختهم ، مثال الطيبة والاحساس الاجتماعى السامى .

القاهرة فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧

في عام ١٩٠٣ اجتزنا امتحان الشهادة الابتدائية ، وكنا في القطر كله لا نزيد على ثلاثمائة أو أربعمائة تلميذ . وعقد الامتحان في القاهرة . ولم يكن بالقطر كله سوى ثلاث مدارس ثانوية كانت في نظامها ثكنات يتسلط عليها الانجليز بالأوامر العسكرية والعقوبات العسكرية . والتحقت بالمدرسة التوفيقية ثم بالمدرسة الخديوية ، وكان شمال المدرسة التوفيقية وشرقها وغربها أرضاً زراعية لا يباع الفدان فيها بأكثر من مائتي جنيه وقد ارتفع سعر الفدان الآن (١٩٤٧) في هذه الأرض بالذات إلى نحو عشرين ألف جنيه . ولم يكن للمالكين أي فضل في هذا الثراء ولم يتعبوا لايجاده . إذ أن الفضل لسكان القاهرة وتقدم المدنية .

وكان الانجليز يحاربون شيئين في الأمة لا ثالث لهما . وكانوا يكفلون بقاءنا في ظلام الجهل وذلة الفقر بهذين الشيئين ، وهما التعليم والصناعة . ونجحوا في ذلك نجاحاً عظيما ؛ فلم يسمحوا طوال إشرافهم على وزارة المعارف بانشاء مدرسة ثانوية للبنات في أي مدينة من مدن القطر . وكانوا يعلموننا أن بلادنا زراعية لا تلائمها الصناعة ، كأن القدر قد قضى علينا بالفقر الأبدي . وكانوا يصرون على المحافظة على « تقاليدنا » . فكانت المدرسة السنية الابتدائية في القاهرة ، وكانت

ناظرتها إنجليزية ، تصر على البرقع للتلميذات وهن فى العاشرة أو الثانية عشرة من العمر . وكان معلم اللغة العربية يفصل من وزارة المعارف إذا نزع عمامته وقفطانه واتخذ البنطلون والجاكتة . وتقدمت الآنسة نبوية موسى لامتحان الشهادة الثانوية فى سنة ١٩٠٧ من بيتها ، فرفض دنلوب المستشار الانجليزى لوزارة المعارف قبولها فى الامتحان ولكنها استمرت على الكفاح وأحدثت ضجة فى الجرائد ، وتقدمت فى السنة التالية فقبلت ونجحت . ولكن الانجليز تنبهوا . فلم تفز فتاة مصرية بالشهادة الثانوية منذ ١٩٠٨ إلى ١٩٢٩ حين تقدمت الفتيات اللاتى أنشأت لهن وزارة المعارف مدرسة ثانوية فى ١٩٢٥ أى بعد إعلان الاستقلال بسنتين .

وكانت التلمذة فى المدرسة الخديوية فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٧ سلسلة من التعذيب . فكان أحدنا يعاقب طوال العام الدراسى بالحضور يوم الجمعة فى المدرسة حتى لا يهنأ بالاجازة الأسبوعية . وكان من العقوبات المألوفة أن يحضر أحدنا فى منتصف الساعة السابعة صباحاً أى فى الظلام مدة الشتاء ، ثم لا يترك المدرسة آخر النهار إلا بعد الحبس ساعة أو أكثر . وقد يكون السبب الوحيد لكل هذه العقوبات أن المعلم الانجليزى قد طلب من التلميذ أن يقعد فوقف ، أو يقف فقعد . وقد تكون هذه المخالفة محض التباس لا أكثر . ثم يتأخر المسكين فى الحضور فى الساعة السادسة والنصف صباحاً ، فيزاد عقوبة والزيادة تتراكم . وهذا إلى عقوبات أخرى سهينة مثل حرمانه من الغداء إلا برغيف يأكله وهو واقف أمام زملائه .

وكان ناظر المدرسة يدعى شارمان ، وكان يتأنق فى تعذيبنا . وحدث أن الجمعية الخيرية الاسلامية أرسلت على نفقتها بعض تلاميذها من مدارسها الابتدائية . وكانت تشترى لهم ملابسهم فى شكة صفراء واحدة . وكان هؤلاء المساكين يخجلون من هذه الملابس الرخيصة . واشتروا غيرها من الملابس المألوفة ، حتى لا يتميزوا بفقرهم أمام زملائهم . ولكن شارمان أصر على أن يلبسوا ملابسهم التى تصمهم بالفقر ، فلبسوها وكانوا ينزوون منا فى خجل .

ولست أشك أنه حين أعلنت الجرائد وفاة شارمان هذا ، غرقاً فى أواخر الحرب الكبرى الأولى ، عم الفرح جميع القارئين الذين كانوا تلاميذه . وقد يستنكر القارئ هذه العاطفة منا . ولكنى أؤكد أن التلمذة فى تلك السنين كانت عذاباً لا يطاق . وكان للمعلمين الانجليز لذة فى تعذيبنا . وكانت العلاقة بيننا وبين هؤلاء المعلمين خالية من الاحساس البشرى ، حتى لقد كنا أحياناً نجهل اسم أحد المدرسين طوال العام الدراسى .

وقضيت ثلاث سنوات بالمدرسة الخديوية لا أكاد أعد أسبوعاً واحداً فيها هنئت به . ولذلك تخلفت فى الدراسة . وكان من أسباب هذا التخلف أيضاً أنى مرضت بعينى واحتجت إلى إجراء عمليتين لا يزال أثرهما المشوه باقياً . كما أنى أعزو إلى عذاب المدرسة هذه العربدة الجنسية الذاتية التى انغمست فيها للترفيه عن نفسى ، وإزالة الكمد الذى كانت تحدثه هذه الحياة المدرسية المرهقة .

ولكن القاهرة فى تلك السنين (١٩٠٣ — ١٩٠٧) كانت حافلة

ببشائر العصر الجديد . فقد رأيت فيها الأتومبيل لأول مرة . ولكن الحياة القديمة كانت لا تزال راسخة . فكان السقاء يحضر الماء فى قربته لمنزلنا . وكنا أحياناً نركب الحمير من مكان إلى آخر لأن الترام كان فى شوارع قليلة . ولم يكن شئ من المنازل قد بنى على الضفة الغربية من النيل ، كما أن هليوبوليس كانت لا تزال صحراء ، بل إن شمال المدرسة التوفيقية فى ١٩٠٣ كان كما سبق أن ذكرت خالياً من المبانى إلا القليل المتفرق .

وكنا نتحدث فى تلك السنين عن شيئين يحركان المجتمع المصرى هما الاحتلال الانجليزى ، وحركة قاسم أمين لتحرير المرأة . ولم أكن اهتم بالحركة الثانية كثيراً . وكان الحزب الوطنى أعظم قوة تكافح الاحتلال فى ذلك الوقت . وكان قد ألفه فى ١٨٩٧ ستة من الشبان المتنبهين هم : أحمد لطفى السيد (باشا) ومصطفى كامل ومحمد فريد ومحمد عثمان (والد أمين عثمان باشا) ولبيب محرم (شقيق عثمان محرم باشا) وسعيد الشيمى . وكان « اللواء » جريدة الحزب الوطنى يستهوى النفوس ، وكنا نسارع إلى شرائه عقب الانصراف من المدرسة . ولكن الشبان الأقباط كانوا يجدون بعض الاستياء من الدعوة الدينية فى الحزب الوطنى وكذلك الدعوة العثمانية أى التركية . وكان منطقهم يقول : « إذا كنتم تدعون إلى جامعة إسلامية وإلى تأييد الحقوق العثمانية فى مصر ، مع أن الأتراك ليسوا فقط أجانب بل إن تاريخهم يحفل بالمظالم فى مصر ، فان لنا الحق فى الاتجاه نحو جامعة مسيحية والاعتماد على الاحتلال البريطانى . »

وقد انتهى موقفهم هذا إلى أن حمل مصطفى كامل عليهم وأثار تعصباً دينياً ساءت عواقبه واستغله الانجليز أيام كرومر وجورست . ولم يصلح هذا الفساد القومى غير أحمد لطفى السيد حين أسس « الجريدة » ودعا دعوة مصرية بحتة ليس فيها شئ من الدعاية للأتراك أو للعرب أو للاسلام . ولكن حتى مصطفى كامل قبيل وفاته بخمسة أشهر أو ستة أعلن فى مقالات أن مصر يجب أن تكون للمصريين فقط ، وصار لهذا يعارض الخديو عباس فى ممالأته للدولة العثمانية . وبلغ من معارضته له أن جريدة « المؤيد » وصفته بأنه قد أصبح يشبه عرابى .

والواقع أن المجتمع المصرى فى بداية هذا القرن كان مجتمعاً تركيا أو كالتركى ؛ فكان الاصطياف فى استنبول مألوفاً . وكانت الحكومة المصرية تؤدى « الجزية » السنوية لتركيا . وكانت العائلات الغنية عائلات تركية خالصة أو خلاسية . وقلما كنا نجد « مصرياً » ثرياً . ولذلك حين نتأمل العائلات المصرية الثرية فى ١٩٤٧ نجد أنها كلها حديثة العهد بالثراء . وهذه الحال تفسر لنا نفسية الحركة العرابية . فان عرابى كان يتأمل وطنه فى ١٨٨٠ فلا يجد فيه مصرياً صميما يملك شيئاً يؤبه له . وأن جميع الأثرياء من الأتراك أو الألبان الذين كان محمد على قد اختصهم بالامتيازات وأقطعهم أرض المالكين المصريين السابقين الذين استولى على عقود امتلاكهم وأحرقها . ولذلك كنا لا نعرف رئيساً للوزارة إلا وهو تركى الأصل . بل أحياناً كانت تؤلف الوزارة وليس بين أعضائها مصرى صميم واحد أيام اسماعيل وتوفيق .

وكنا نرى هؤلاء الأرستقراطيين على سخفهم ونذالتهم وهم فى عرباتهم يتنزهون على جسر قصر النيل . وكان يتقدمهم قواص أو قواصان وكل منهما فى سترة تهريجية يحمل عصا طويلة فى وضع عمودى ويعدو أمام العربة وهو يصيح بأعلى صوته : هيه، هيه .

وكانت الجرائد المقروءة فى تلك السنوات ثلاثاً : « اللواء » الذى كان يحرك الأمة إلى المطالبة بالجلاء ويقرؤه جميع الشبان . و « المؤيد » الذى كان يؤيد الخديوى ويقرأه أبناء البيوتات التركية والمحافظون من المصريين . و « المقطم » الذى كان يؤيد الانجليز ويقرؤه الموظفون . أما « الأهرام » فكانت فى ركود يشبه الموت لا يقرؤها غير عدد صغير من التجار .

وكان الخديوى عباس محور الحركة الوطنية فى أوائل حكمه . وهو الذى أوعز بايجاد الحزب الوطنى ، وكان يعاونه بالمال . ومما زاد الخديوى اتجاهاً نحو الحركة الوطنية تلك الاهانات الشخصية التى كان يجدها من كرومر . فقد حصل هذا الرجل على تربيته السياسية فى الهند ، وكان يعامل المصريين كما كان يعامل الانجليز الهنود قبل خمسين أو ستين سنة ، وكانت له فى ذلك أساليب طفلية . وقد رأيته ذات مرة وهو ينزل من عربته ، فلم ينزل مستوياً على قدميه كما يفعل البشر بل تقدم له خادم مصرى وحمله كأنه طفل من العربة فى عناية ورقة حتى حط جثته على الأرض . . . وقد فعل هذا فى ظنى كى يثبت أنه سيد مطاع أو ملك غير رسمى . وتشاجر مرة مع الخديوى لأن الحوذى الذى كان يسوق عربة الخديوى إنجليزى . وحاول مرة ، عقب انتقاد

الخديوى للجيش المصرى الذى كان كتشنر قائداً عاماً له ، أن يعين وزيراً إنجليزياً . وكان كرومر هذا من عتاة الاستعماريين ، وهو الذى أحال القطر المصرى كله إلى عزبة للقطن ، وقتل الصناعة المصرية قتلا تاماً ، حتى إننا حوالى ١٨٩٨ أنشأنا مصنعاً فى القاهرة لغزل القطن ونسجه ، وجئنا له بمدير إنجليزى ، فأصر كرومر على فرض الضرائب الباهظة عليه حتى أغلقه . ثم ، وهنا عبرة ، عين مديره الانجليزى فى الحكومة المصرية .

وبفضل الحزب الوطنى ، بل بفضل الشاب مصطفى كامل ، تزايدت الحركة الوطنية وأخذت موجاتها تعلو وتزيد . ورأى كرومر عجزه عن مكافحتها ، فحمله الغيظ على العنف الأحمق بل على التوحش الاجرامى . فانتهز حوالى سنة ١٩٠٧ فرصة التقاء الجنود ببعض الريفيين فى دنشواى إحدى القرى فى المنوفية ، وكانوا يصيدون الحمام الذى كان هؤلاء الفلاحون يربونه . فاشتبك الريفيون مع الانجليز فى مشاجرة انتهت بقتل بعض الانجليز أو بالأحرى بوفاته . وعندئذ عينّت محكمة « مخصوصة » وكان رئيسها المرحوم بطرس غالى باشا ، ومن أعضائها المرحوم فتحى زغلول باشا ، وكان المحامى عن الانجليز المرحوم الهلباوى الذى صار بعد ذلك عضواً فى حزب الأحرار الدستوريين . وشرع فى محاكمة الدنشوائيين وعم الأمة توتر نفسى وغلت العواطف . وكتب « المقطم » بأن المشنقة أرسلت إلى دنشواى قبل أن تنتهى المحاكمة ، فخجلت الحكومة وكذبت الخبر . ولكن المرجح أن المقطم كان صادقاً . لأنه كان يتصل اتصالا وثيقاً بالانجليز فى ذلك الوقت . وصدر حكم

المحكمة بجلد البعض وبشنق الآخرين . وأنفذت الأحكام فى القرية ذاتها . ورأى الأطفال اباءهم يشنقون أو يجلدون ، ورأت الزوجات والأمهات والشقيقات والآباء أعزاءهم وهم يتدلون من الحبال أو يصرخون من الجلد .

وأذكر أنى كنت فى الاسكندرية فى ذلك الوقت أتنزه مع أخى ، وكنا نأكل فى المطاعم . فلما قرأت الحكم عمنى جمود يشبه الغثيان ، فلم أستطع الأكل جملة أيام ، ودارت فى رأسى خواطر جنائية عن هؤلاء المعتدين على بلادنا وأهلنا . وخجل الانجليز أنفسهم من هذا الحادث الاجرامى ، فعزلوا كروسر عن وكالته فى مصر . وكان يرأس الوزارة الانجليزية فى ذلك الوقت رجل من الحريين يدعى هنرى كامبل بانرمان . ولكن وزير الخارجية المدعو جراى قد برر جريمة كروسر بأن وقف فى البرلمان يقول : « إن التعصب الاسلامى قد تفشى فى إفريقية الشمالية كلها بما فى ذلك مصر . » وكتب « المقطم » مقالا عنوانه « التعصب يمتد ويشتد » أى تعصب المصريين المسلمين الذين يجب أن يكبحوا بمشانق دنشواى . وما زالت كلمات هذا المقال ترن فى ذهنى ، ولا تزال « دنشواى » عندى من الذكريات النفسية الأليمة .

وقد وجدت تعزية فى شئ واحد هو أن الوجدان الوطنى أصبح عاماً وتنبهت الأمة كأنها استيقظت من نوم . فكنت أجد بعض الشبان يشترون « المقطم » ويمزقونه حتى لا يقرأه أحد . وحتى الأقباط الذين كانوا متوجسين من حركات الحزب الوطنى الدينية ، أصبحوا وطنيين يكرهون الانجليز . وكان هذا الانفعال الجديد ملحوظاً فى أعضاء عائلتنا

ولكن اختلاط الحركة الوطنية بالدعوة الاسلامية من ناحية وبالرغبة فى السيادة العثمانية من ناحية أخرى عرقل الاندماج التام للأقباط فى الحركة الوطنية . فكانوا يشيحون عنها ويذكرون حكم الأتراك ومظالمهم أيام إسماعيل وتوفيق .

وشعرت فى ذلك الوقت بما زلت أشعر به الآن ، وهو أن الاستعمار البريطانى ليس هو العدو الوحيد لبلادنا ؛ لأن الرجعية بالتزام التقاليد ، وكراهة الروح العصرى فى السياسة والاجتماع والعقيدة ، كل هذا يتألف منه عدو آخر لعرقلة أمتنا عن التقدم . وكانت نظرية التطور التى تعلمتها من « المقتطف » قد جعلتنى ألمح بصيصاً من الرؤيا الجديدة ، وأن أوسن بأن العلم ، الذى حقق السيادة وإن لم يحقق السعادة لأوربا ، جدير بأن يرفعنا من حضيض الفقر والجهل الذى وضعنا عليه الانجليز ، وأن يحقق لنا استقلالنا . ولذلك وجدتنى من ذلك الوقت أدعو إلى أن نعيش المعيشة العصرية ، وأن أناصب الرجعيين المصريين العداء الذى أناصبه للانجليز .

وكان على يوسف صاحب جريدة « المؤيد » معدوداً بين كبراء الكتاب الصحفيين يحسن المناقشة ويلتزم المنطق والتعقل . وكان « المؤيد » قليل الانتشار يسبقه « اللواء » ويطغى عليه بمقالات مصطفى كامل النارية . ولكن « المؤيد » كان يثب فى الأزمات . ففى حادثة دنشواى مثلا أقبل عليه القراء ، وهم فى كمد وحزن وحيرة ، يقرأونه ويتعقلون مايكتبه عن السياسة الانجليزية المصرية وينظرون للمستقبل من خلال بصيرته .

ولكن علاقة الشيخ على يوسف بالخديوى جعلته يتجه صوب استامبول أو كما كانوا يسمونها « الأستانة العلية » حتى إنه عندما أسس « مجلس المبعوثان » فى تركيا دعا المصريين إلى أن يرسلوا نواباً عنهم فيه ؛ إذ أن مصر جزء من الدولة العثمانية . . .

أما مصطفى كامل فكان يغزو قلوب الشبان . وكان إذا أعلن عن خطبة يلقيها تجمع الألوف لسماعه . وكان فى شبابه وحماسته إغراء للشبان . وقد مات بالدرن ولما يبلغ الثانية والثلاثين .

وفى تلك السنين شبت الحرب بين روسيا ويابان ، فاتجه الرأى العام نحو اليابانيين باعتبار أنهم أمة شرقية مثلنا ، فكنا نفرح كلما قرأنا عن هزيمة روسية ؛ لأن روسيا كانت تمثل فى أذهان الجمهور أوربا التى تنتمى إليها بريطانيا ، كما أن يابان كانت تمثل يقظة الشرق . حتى إن مصطفى كامل ألف عنها كتاباً باسم « الشمس المشرقة » .

وأحدث خليل صادق نهضة أدبية فى تلك السنين بسلسلة من القصص كانت تخرج كل شهر باسم « مسامرات الشعب » وهى قصص مترجمة عن الفرنسية والانجليزية اشترك فى الترجمة له فيها كتابنا المعروفون مثل حافظ عوض وعبد القادر حمزة (باشا) ومحمود أبوالفتح وغيرهم . ولكن الأدب لم « يتمصر » فى ذلك الوقت . لأن كفاحنا للامبريالية البريطانية كان يستغرق كل مجهودنا . فكان الكاتب الذى يجد فى نفسه القدرة على التعبير الفنى يلتفت إلى السياسة قبل الأدب ، ويجاهد فى إيقاظ الوجدان المصرى الوطنى . وما نقصنا

نحن من هذه الوجهة سده إخواننا السوريون عنا . وهم بالطبع كانوا أقرب إلى الثقافة العصرية الأوربية منا ؛ لأنهم تعلموا فى الجامعة الكاثوليكية والجامعة الأمريكية فى بيروت . وهم أيضاً ، لأنهم كانوا مسيحيين ، لم يجدوا العائق السيكلوجى الذى كنا نجده نحن فى مصر إزاء الثقافة الأوربية العصرية .

وكنا فيما بين ١٩٠٣ و ١٩٠٨ فى تبلبل سياسى وفى تبلبل آخر أدبى واجتماعى . فقد كانت تسود وجداننا السياسى نزعتان : الأولى والكبرى فى الاتجاه نحو الدولة العثمانية ، والدفاع عن استقلالنا المصرى، بدعوى أننا جزء من هذه الدولة العثمانية . وواضح أن موقفنا هنا كان حائراً مقلقلا . ثم كانت النزعة الأخرى وقد بزغت ضعيفة تتلجلج بل لا تكاد تنطق ، وهى الدعـوة إلى الاستقلال المصرى التام والتخلص من بريطانيا وتركيا معاً .

أما التبلبل الأدبى فلم نكد نحس به فى تلك السنوات . وكان جميع الكتاب ، باستثناء السوريين ، يعنون بالأدب دراسة القدماء من العرب لا أكثر . ولكن كان هناك تبلبل اجتماعى وضع خميرته محمد عبده وقاسم أمين ، ونمت وزكت هذه الخميرة فى الوسط الاسلامى. وأصبح لها دعاة وخصوم .

وكان الخديو عباس محبوباً إلى سنة ١٩٠٧ يجد فيه الشباب رمزاً للكفاح . وكانت شراسة كرومر ، الذى كان يرغب فى معاملته كما لو كان أحد مهراجات الهند ، تنبه فيه هذا الكفاح . وتعلق به الجمهور وشاعت عنه مواقفّ وطنية . ومما سمعناه فى تلك السنين أن

ويصا واصف ومرقس حنا وعدداً آخر ، معظمهم من المحامين ، قصدوا إلى سراى عابدين وانتظروا إلى أن هم الخديو بركوب عربته ، فأصروا على أن يحلوا خيولها ويجرّوها هم . ولكن الخديو اتخذ موقفاً معارضا لاتجاهات الشيخ محمد عبده نحو الأزهر ؛ فكان ، أى الخديو ، يصر على أن يبقى الأزهر كما كان منذ مئات السنين محافظاً لا تتسرب إليه تيارات الثقافة العصرية . وكان محمد عبده يصر على أن يتطور الأزهر إلى جامعة عصرية . واتجه المستنيرون من الأمة وجهة محمد عبده فازورّوا عن الخديو.

ولكن أعظم ما جعل الجمهور المصرى يتغير على الخديو هو ما كان يسمى بسياسة الوفاق . فان الانجليز ، بعد أن رأوا سياسة كرومر الشرسة مع الخديو قد أحالته إلى وطنى يدس لهم ويؤيدالحركات الوطنية ضدهم ، عينوا السر الدون جورست وكيلا لهم بالقاهرة ؛ فتحبب هذا إلى الخديو وزاد فى سلطته . وارتاح الخديو إلى هذا التغيير ارتياحاً عظيما جداً ، وشرع يعارض الحركات الوطنية الدستورية، ويسير مع الانجليز فى « سياسة وفاق » كان ضررها بالأمة فادحاً .

وكانت سياسة الوفاق هذه سبباً فى انقلاب مصطفى كامل ؛ إذ أنه أبى أن يسير مع الخديو ، وأصر على الكفاح . ولم تمض سنوات حتى أصيب جورست بالسرطان ومات به فى انجلترا . وأعرب الخديو عن حبه له ، وتقديره لسياسة الوفاق بأن زاره خفية وهو فى فراش الموت .

ثم جاء كتشنر ، فأعاد سياسة كرومر ، ولكن فى فجاجة العسكرى وغشومته . وعاد الخديو إلى موقف المعارضة والمعاكسة للانجليز .

ولو سئلت عن الفرق فى القاهرة بين ١٩٠٥ و ١٩٤٥ لقلت إن

نبض القاهرة قبل أربعين سنة كان أبطأ ، كما أن الايقاع كان شرقياً فى كل شئ تقريباً . فكان الناس يمشون أكثر مما يركبون . وكانت المدينة متجمعة متكتلة فى رقعة صغيرة لم تستفض بعد إلى صحراء هليوبوليس أو إلى الضفة الغربية من النيل . وكنا فى الملابس نعبر طور الانتقال . فانى أذكر أنى لبست قفطاناً بحزام وأنا تلميذ بمدرسة الأقباط فى الزقازيق ، وكنت فى العاشرة من العمر . ثم لبست أيضاً وأنا فى الثانية عشرة بذلة رمادية من طراز الريدنجوت . أما نساؤنا وآنساتنا فبقين كلهن إلى سنة ١٩١٩ يتخذن البراقع والحبرات .

وكنا نقضى ليالى السرور عند الشيخ سلامة حجازى . والحق أن هذا الرجل كان ممثلا بارعاً ، ولكنه لم يكن يمثل قدر ما يغنى . فقد وجد إقبالا عظيما على أغانيه فكان التمثيل عنده ملحقاً بالغناء . وظنى أنه كان يفعل هذا مضطراً ؛ لأن كفاءته المسرحية كانت عظيمة جداً . ولابد أنه كان يتألم ؛ لأن الجمهور لا يقدرها ويؤثر عليها الغناء .

وكانت هناك إلى جنب مسرح الشيخ سلامة ملاه أخرى كانت غاية فى الفحش ، حيث كانت الراقصات يقمن بحركات وإيماءات هى فى صميمها محاكاة غير فنية للتعارف الجنسى ، محاكاة فاحشة رخيصة دنسة متهتكة . وقد اضطررنا بعد سنة ١٩٢٢ ، إلى إلغاء هذا الرقص . ولكن بعض الأغانى القديمة الفاحشة لا تزال تغنى إلى أيامنا هذه .

وشرعنا ، بعد ذلك بسنوات ، نحس الوجدان المسرحى ، وندرك معنى الدرامة ومغزاها ، مما ترجمه فرح أنطون ومما مثله جورج أبيض من الدرامات عن اللغة الفرنسية .

أول وجدانى الذهنى

كنت فى سنة ١٩٠٣ تلميذاً فى السنة الأولى الثانوية قد تركت بلدتى الزقازيق ورحلت إلى القاهرة ؛ إذ لم تكن فى تلك السنين مدارس ثانوية إلا ثلاث فى القاهرة والاسكندرية . وكانت سنى إذ ذاك نحو ١٥ أو ١٦ سنة ، فشرعت أقرأ الجرائد اليومية وأشترى مجلتىْ « المقتطف » و « الجامعة » وأسأل عن الكتب . ولم تكن هناك مجلات أسبوعية . وبقيت الحال كذلك إلى أن أنشأت أنا أول مجلة أسبوعية فى ١٩١٤ وهى « المستقبل » .

وعرفت « المقتطف » . وكان اهتدائى إليه من المصادفات البديعة التى أعانتنى على التثقيف الذاتى . وكنت أشترى الأعداد القديمة بل أحياناً الأعداد الجديدة ، من الادارة ، على غلاء ثمنها ، وألتهمها من الغلاف إلى الغلاف . وعندما عدت إلى الزقازيق وجدت فى بيت صديق لى بقرية قريبة من الزقازيق نحو مئة عدد من هذه المجلة ، فاستعرتها وقرأتها جميعها . وكان يحرر « المقتطف » فى تلك السنين الدكتور يعقوب صروف . وكانت بؤرة اهتمامه الذهنى فى ذلك الوقت نظرية التطور التى كان يسميها نظرية النشوء والارتقاء . ولذلك لم يكن يخلو عدد من بحث هذه النظرية .

وفى مجتمعنا المصرى كثير من الكظوم التى ترهق الذهن بالقيود والسدود . وكان الايمان بنظرية التطور نوعاً من التفريج والانتقام. ولذلك وجدتنى فى ذلك الوقت داعية متحمساً لهذه النظرية فى البيت والمدرسة وفى كل مكان آخر . وشعرت بأنى ممتاز بهذه النظرية . فبعثنى هذا إلى التوسع فيها ، وعرفت لذلك الدكتور شبلى شميل ، وكان رجلا كبير الذكاء محدود المعارف . فكان يعتمد على الحجة المنطقية أكثر مما يعتمد على البيّنة العلمية . وفى الوقت الذى كان يعتمد فيه «المقتطف» على البيّنات العلمية وينقل أقوال البيولوجيين فى أوربا عن هذه النظرية كان شبلى شميل ينافح عنها ويدعو إليها بقوة المنطق . ولكن يجب مع هذا أن نذكر فضل شبلى شميل فى أنه نقل إلى العربية كتاب بوخنر فى المادية العلمية . والحق أن هذه النظرية كانت رؤيا جديدة لشاب مثلى لم يكد يخرج من طور الصبا ، كما كان شبلى شميل بجرأته وذكائه شخصية فذة لها قوة الايحاء والتوجيه فى نفسى .

ولكن مع ذلك لم يستطع «المقتطف» ولا شبلى شميل تكوين مدرسة فكرية . لأن الركود الذهنى كان عاماً كما كان الشرق بقواته التاريخية الساحقة يخيم علينا بل يحط علينا بكلكله . فلم يكن المجتمع المصرى وقتئذ يجيز لنا أن نبوح ونعلن سرائرنا . فكنا لذلك أفرادا متفرقين نناقش هذه الأفكار والآراء فى همس متسترين أو فى استحياء يشبه الاعتذار إذا صادفنا غرباء . وكثيراً ما كنت أجد أن الحجة تنتقل من الرأس إلى الذراع ، فأسارع إلى التسليم وأعلن صحة العقائد

والتقاليد وكذب الآراء والعلوم . لأن المنكرين كانوا فى العادة أكبر سنى سناً وأضخم جسما . . .

وإنى أعزو إلى « المقتطف » هذه النزعة العلمية التى لازمتنى طوال حياتى الماضية كما أعزو إليه هذا « الأسلوب التلغرافى » الذى أكتب به والذى يظن كثيرون أنه من اختراعى . وكان الدكتور يعقوب صروف لا يعرف التزاويق بل كان فى الأغلب لا يتذوق الجملة الفصيحة أو الكلمة الناصعة أو العبارة المتلألئة أو سائر تلك الألاعيب الصبيانية التى كان الكتاب يرفعون من شأنها إلى قبيل الحرب الكوكبية الأولى .

وكان يرافق هذا الوجدان العلمى بالنظر المادى وجدان أدبى آخر غمرنى وبسط لى آفاقاً جديدة . ذلك أننا فى تلك السنين أى حوالى سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ لم نكن نعرف من معنى الأدب سوى القواعد الجامدة للبيان والبلاغة التى نحفظها عن ظهر قلب فى جمود أو كراهة؛ ولكنا كنا نتذوق شيئاً من الجمال الفنى فى مقالات اللواء ومصباح الشرق . وكنا نقرأ كتاب أدب الدنيا والدين للماوردى أو كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع . والواقع أن أسلوب الأول يخالف أسلوب الثانى ؛ فان الماوردى مسهب غير ململم أو محبوك فى حين أن ابن المقفع موجز رصين مضبوط . ولذلك كانت رؤيا جديدة بل إلهاماً جديداً أن أعرف مجلة « الجامعة » لفرح أنطون . لقد عثرت على بضعة عشر عدداً من هذه المجلة ، ثم اقتنيت مؤلفات هذا الكاتب العظيم ، فرأيت دنيا جديدة من الأدب الأوربى لم نكن نعرف عنها شيئاً من قبل .

وقد مس هذا الأدب أوتاراً فى نفوس جميع قارئيه فى الشرق العربى. لأن هذه الدنيا الجديدة من الأدب الأوربى كانت تختلف ، لا بل تناقض ، ما تعلمنا من أدب عربى . ذلك لأن الأدب العربى ، كما كنا نعرفه فى ذلك الوقت ، كان أدب السلطة والتقاليد والعقائد . ولكن الأدب الأوربى ، أو بالأصح الفرنسى ، الذى نقله إلينا فرح أنطون، كان أدب الثورة والتمرد ، أدب العقل الذى يحس والقلب الذى يعقل ، أدب فولتير وروسو وديدرو وبرناردان دوسان بيير . وكان جميع هؤلاء مجاهدين يكافحون استبداد الملوك والأمراء واستبداد العقيدة وسلطان التاريخ .

وكنا نحن فى مصر فى حالة اجتماعية وسياسية تحملنا على الترحيب بهذا الأدب ، ففتحنا له قلوبنا ، لا بل تفززنا وتمردنا . وكان هذا الأدب هو الذى هيأ فرنسا التهيئة الذهنية للثورة الكبرى .ويبدو لى الآن أن فرح أنطون لم يكن على جهل بما يعمل . فانه خرج من لبنان حوالى سنة ١٩٠٠ وكان هذا القطر يغط فى ركود تاريخى آسن وقد خيمت عليه الدولة « العثمانية » ومنعت عنه النور إلا بصيصاً يتلقاه الشباب فى كلية بيروت الفرنسية أو الجامعة الأمريكية . ودرس فرح أنطون الفرنسية وتشبعت نفسه وذهنه بادابها . فلما رحل إلى مصر وجد شيئاً من الحرية . ولكنه أدرك أن الظلام الذى كان يشكوه لبنان هو نفسه الظلام الذى تشكوه مصر مع فرق فى الدرجة فقط . فعمد إلى هؤلاء المؤلفين الفرنسيين الذين ذكرت أسماءهم ينقل عنهم أويستلهمهم فى كل مايكتب . ومن هنا كانت جدته وطرافته لى بل لجميع

قرائه. فان « المقتطف » لم يكن يعنى بالأدب. وكان « مصباح الشرق » جريدة أدبية يصدرها المويلحى ، ولكن لأدب العرب فقط . أما الجامعة فانفجرت بيننا تنير وتشير وتثير . أى تنير عقولنا وتشير إلى مبادئ ومناهج رتبها أدباء فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر . وكان يحس أننا فى حاجة إلى هذه المبادئ والمناهج . ولذلك أثارنا بترجمة قصة الثورة الفرنسية لألكسندر دوماس . ولا أعرف واحداً يقظاً فى تلك السنين لم يقرأ هذه القصة ولم يتغير بها وبسائر مؤلفات فرح أنطون.

وكان جديراً بهذه المؤلفات أن تحدث حركة رومانتية ابتداعية فى الأدب العربى ، ولكنها للأسف لم تحدث . فان خلاصتها أن الانسان حسن مسالم ، ولكن المجتمع سئ يحمله على الرذائل . وما كان أبدعها من فكرة لمثل أمتنا فى مثل ذلك العصر أى حوالى ١٩٠٥ أو ١٩٠٦. فان هذه الفكرة كانت جديرة بأن تختمر وتبعث النشاط الذهنى فى جميع القراء ، كما تبعث وجداناً أدبياً جديداً ينضج ويتوالد فى شتى الأفكار والآراء .

ولعلى محتاج هنا إلى أن أشرح ماذا أقصد إليه من الاتجاه الرومانتى فى الأدب . فان الأدب يمكن أن يقسم من ناحية المزاج والاتجاه وقواعد التفكير واللغة بأنه أدب كلاسى اتباعى أو أدب رومانتى إبتداعى . وليس أحدهما خيراً من الآخر ، ولكنهما مختلفان . وفى فترة ما تحتاج الأمة إلى النزعة الاتباعية فى حين أنها فى فترة أخرى قد تحتاج إلى النزعة الابتداعية .

فالنزعة الاتباعية تقتضى العناية بالماضى والجرى على أساليب

السلف والتقيد بالنصوص فى قواعد التفكير واللغة . ففولتير اتباعى، وطه حسين فى كتابه عن المعرى اتباعى . والعقاد فى كتبه عن رجال الاسلام الأولين اتباعى . وقس على هذا .

والنزعة الابتداعية تقتضى الخيال أكثر من التقيد بالنصوص . وهى تجنح إلى التحلل من النص والقاعدة . ولذلك كان روسو ابتداعياً كما أن طه حسين فى « الأيام » ابتداعى . وكذلك توفيق الحكيم ابتداعى فى معظم ما يكتب .

ونحن محتاجون إلى النزعتين ، ولكنا فى مصر أكثر احتياجاً إلى النزعة الابتداعية ؛ لانها فى النهاية نزعة التجديد واقتحام المستقبل .

وكان فرح أنطون فيما ألف ونقل رومانتياً ابتداعياً . بل إن أول الكتب التى نقلها عن الفرنسية كان كتاب « إميل » لجان جاك روسو ، وهو يعد أساساً للحركة الرومانتية فى أوربا ، ويقول بأن الطبيعة البشرية حسنة يفسدها المجتمع والحكومات والقوانين . وهذا الكتاب مع الأسف لم يطبع إلى الآن .

ولكن حياة فرح أنطون فى ذلك الوقت بترت ؛ لأنه وقع فى مناقشات تمس الدين مع الشيخ محمد عبده ، فبارت مجلته بعد الرواج . ورحل إلى القارة الأمريكية حيث اشتبك فى خصومات صحفية لم يكن القلم وحده أداة الرأى والحجة فيها ؛ فعاد مهزوماً إلى مصر .

وكان أثر فرح أنطون فى نفسى أنى أكبرت الأدب الأوربى إكباراً عظيما .

ولم يكن هذا غريباً فى مثلى . فان فرح أنطون استبدل بالماوردى

عندى جان جاك روسو ، وحملنى على أن أستبدل بالكلمة الوضيئة والعبارة المذهبة أدب المبادئ والفلسفة والفكرة .

وعرفت فرح أنطون بعد ذلك حين اشتغلت معه فى جريدة «اللواء»، وكانت جريدة الحزب الوطنى يرأسها المرحوم عثمان صبرى حوالى ١٩١٠ ، فزادنى توجيهاً نحو الأدب الأوربى . وعاش فرح فى مصر إلى ١٩٢١ حين توفى وهو فى الحادية والأربعين . وكانت وفاته نكبة على النهضة المصرية السياسية والأدبية . وكان من السوريين القلائل الذين اندغموا فى الحركة الوطنية المصرية اندغاماً تاماً . وكان سعد زغلول يحبه ويقدره . وزاره واصف غالى باشا وهو فى فراش المرض قبيل وفاته بمنزل أخته السيدة روزا حداد وقدم له تحية الوفد .

والآن أعود بالذاكرة إلى هذه الشخصية الفذة وأتساءل : ما مقدار ماضاع منا بوفاته ؟

الحق أن مافقدنا فيه عظيم فادح . فلو أنه عاش إلى أيامنا مثلا لطبع النزعات الأدبية والسياسية فى مصر بطابعه . ولعله كان يوجه الأدب المصرى هذه الوجهة الرومانتية التى آسف على أنه لا يتجهها الآن . لأننا على الرغم من كل جديد فى هذا الأدب مازلنا نعيش فى أسر التاريخ بأدب أغلبه سلفى ، نفكر بمزاج سلفى فى لهجة سلفية . وأدبنا هو أبعد الآداب عن روسو ، بل لقد أصبحت حركاتنا الاجتماعية سلفية أيضاً كما نرى فى حركة « الأخوان المسلمين » .

وكان فرح أنطون بشرى النزعة والايمان ، يؤمن بالانسان ويكره الأساطير الغيبية بل يشمئز منها . وكان يمتاز بالذهن

الاستطلاعى يرود كل جديد فى الثقافة الأوربية . فهو أول من كتب عن نيتشه . وأظن أنى أنا كنت الثانى ؛ لأن أول مقال صحفى لى كان فى « المقتطف » سنة ١٩٠٩ بعنوان « نيتشه وابن الانسان » وقد وصلت إلى نيتشه مستقلا وأنا بأوربا .

ولذلك عقب عودتى من أوربا واتصالى به كنت لا أجد موضوعاً أختلف فيه معه . وكنا نتحدث عن الاشتراكية والنزعات الأدبية الجديدة والسياسة فى مصر ، فنكاد نتفق فى كل شئ حتى فى العقيدة الدينية .

وفيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٠ ظهرت قوة جديدة فى مصر كان لها أثر آخر فى توجيهى النفسى ، وكانت هذه القوة أحمد لطفى السيد . ففى تلك السنين كانت الوطنية المصرية فى طور اليرقة لم تنسلخ بعد إلى الجسم الحى الكامل . وكانت عرضة لأخطار شتى وتطوحات مختلفة . وحسب القارئ أن يعرف أن كلمة « وطنية » ليست عربية وأننا إنما سككنا هذه الكلمة كى نعبر بها عن وجدان جديد . ذلك أن مصر فى بداية هذا القرن كانت لا تزال فى أسر الماضى . وكانت الدولة « العثمانية » هى دولتنا التى كنا نكافح بها الامبراطورية البريطانية . وكان بيننا متنبهون تعلموا فى المدارس الفرنسية أو نبهتهم الحوادث وأيقظت فيهم وجداناً وطنياً ، فلم يكونوا يسيغون منطق اللواء والمؤيد فى الدفاع عن استقلال مصر بحق الأتراك فى سيادتها . وكان الأقباط ينفرون من هذه الوطنية العثمانية نفوراً عظيما .

وظهر لطفى السيد فى الجرائد يدافع عن هذه البديهية الواضحة ،

وهى أن مصر يجب أن يملكها المصريون دون الأتراك ودون الانجليز. ووجد فى الأول مصادمة قوية من الكتاب الذين ألفوا الدعاية للأتراك ولكن سرعان ما انتصر وظفر بالرأى العام فى مصر . ووجد الأقباط منطقاً فى هذه الوطنية كما وجد المثقفون فيها أملا جديداً يعبئ الأمة للإصلاح والتجديد نأقبلوا على الجريدة وشغفوا بمقالات لطفى السيد.

وكثير من القراء فى أيامنا ، أى بعد نحو ٣٥ سنة من هذه الحركة ، لا يعرفون مقدار هذه الحركة وفضل أحمد لطفى السيد فيها . ذلك أننا جميعاً قد اعتنقنا هذه الوطنية الجديدة ، وطنية مصر للمصريين ولم نعد نعرف غيرها . ولكن على القارئ أن يذكر أن الدولة « العثمانية » كانت شيئاً أكبر من تركيا الحاضرة . وكانت إمبراطورية شاسعة لها جيوش وموظفون فى اليمن والحجاز والعراق وطرابلس . وكانت الرحلة السنوية إلى استامبول أو كما كان يصفها الصحفيون وقتئذ « دار السعادة » لا تقل فى عدد المسافرين المتنزهين عن الرحلة إلى باريس . وكان حبل الدسائس لا ينقطع بين القاهرة واستامبول . ولكنه مع ذلك كان واهياً ، كما كانت هذه الدسائس عقيمة .

وكان لطفى السيد وعبد العزيز فهمى وقاسم أمين جيلا جديداً فى مصر بعد الجيل الذى كان منه الأفغانى ومحمد عبده . وكان هذا الجيل أكثر جرأة . ولذلك نجد أن قاسم أمين يدعو إلى سفور المرأة وإلغاء الاعراب فى اللغة . ولطفى السيد يدعو إلى لغة مبسطة تقارب العامية ، كما نجد عبد العزيز فهمى الآن يدعو إلى الخط اللاتينى . وقد

حفظ هذا الأخير شبابه الذهنى إلى مابعد السابعة والسبعين . وهو يعانى الآن من هذا الشباب عنتاً من خصومه أولئك الشبان الذين شاخوا قبل الثلاثين والأربعين .

والواقع أن لطفى السيد مهد لحركة سنة ١٩١٩ بجمع الأمة على رأى موحد فى الوطنية ، كما أنه جعل التجديد مساغاً لا يتهم القائمون به بالهوج أو الرعونة . بل أصبحت الدعوة إلى حرية المرأة وتعليمها شيئاً وقوراً محترماً ، واحترمت « الجريدة » بعد أن كانت موضوعاً للنكات البذيئة .

وقد سبق أن قلت إن أسلوب المقتطف كان علمياً مقتصداً و إنى أخذت عنه ما أسميته « الأسلوب التلغرافى » . ولكن أسلوب لطفى السيد كان موجزاً مقتصداً أيضاً . وهو أشبه الأساليب بأسلوب ابن المقفع . وأظن أنى تأثرت به أيضاً .

وقد كان هؤلاء الثلاثة : يعقوب صروف ، وفرح أنطون ، ولطفى السيد ، من القوات التى صاغت شخصيتى الثقافية الذهنية . فان الأول وجهنى إلى طريق العلم . والثانى بسط لى الآفاق الأوربية للأدب . والثالث جعل من المستطاع لى ، بوصف أنى غير مسلم ، أن أكون وطنياً فى مصر .

كروم وجورست وكتشنر

فى ١٩٠٧ كنت قد بلغت حالا من القلق النفسى والثقافى جعلت مقامى فى مصر شاقاً . فقد كنت أعانى هذا الكرب المدرسى الذى أحدثه الانجليز بنظام الشكنات فى المدارس ، إلى جنب نكد عائلى آخر أوجدته تلك المطامع العائلية الصغيرة التى أجد من البر أن أنساها. والقارئ يعرف أننا فى مصر نكابد خلافات عائلية تتعدد مراجعها من التمييز المالى أو المطامع المالية بين الورثة إلى الاشتباكات التى تعود إلى مصاهرات سيئة تحيل العائلات إلى قبائل تحيى الثأر وتعيش السنين وهى فى الشقاق والنزاع . وقد كابدت من كل ذلك مضضاً وألماً . ولكنى كنت أجد العزاء فى شغفى بالثقافة . بل لقد كانت هذه المساوئ العائلية تحملنى على تجنب الاختلاط بالاعتكاف للدراسة كما كانت الدراسة نفسها سروراً أنشده كى أخفف عن نفسى هذا البلاء . وحين أرجع بذاكرتى الآن إلى تلك الأيام أجد أن بؤرة هذه المتاعب كان واحداً أو اثنين قد أسئ إليهما فى طفولتهما بالتدليل المسرف . فنشأ كلاهما على العدوان والعناد والخطف . والحق أنهما لا يزالان على هذه الحال إلى الآن .

وسافرت إلى أوربا وأنا على غير وجهة تعليمية معينة سوى الحصول

بأية وسيلة على الثقافة العصرية . وقد كان ميراثى من أبى الذى مات وأنا دون السنتين يكفل لى نحو ٢٥ أو ٣٠ جنيهاً فى الشهر دخلا ثابتاً . فلم أحس الحاجة إلى إعداد مهنى أتكسب به . ولم تكن الوظائف مغرية فى ذلك الوقت لأن الحاصل على الدبلوم لم يكن يزيد مرتبه على ثمانية جنيهات .

وقصدت إلى باريس عن طريق استامبول . وكانت الدولة العثمانية (تركيا) فى تضعضعها قد شاع فيها التفكك والانحلال . وكانت غايتى من اختيار هذا الطريق أن أرى أوربا قبل أن أهبط باريس . وقد يلذ للقارئ أن أروى له ثلاث حوادث وقعت لى فى السفر لاتزال بارزة فى ذهنى . أولها أنه كان يرافقنى فى قمرة الباخرة موظف تركى كان قادماً من اليمن إلى استامبول . وكان يعرف العربية . وكان يعين مساءه بشرب زجاجة من العرق . ويعين صباحه بملء فمه ماء ثم ينفخ طربوشه نفخاً من فمه و يمسحه بعد ذلك . و كنا نتحدث كثيراً عن السياسة التى كان يفيض ويصرح فى شئونها عقب الكؤوس الأولى من العرق . وكان يسب اليمنيين والعرب عامة . وكانت الباخرة قد قامت من بور سعيد تقصد إلى الموانى الشرقية على البحر المتوسط وتلبث فى كل منها نحو ثلاث أو أربع ساعات . فكنا ننزل للتفرج . فلما بلغنا أزمير اقترح على أن يرافقنى وأن نستأجر عربة لرؤية المدينة . فلما واجهنا العربات على رصيف الميناء جعل يسأل الحوذية بلغته التركية عن أسمائهم فطلبت منه أن يخبرنى عن السبب لهذه الأسئلة . فأجابنى : « أسأل كى أعرف إذا كان مسيحياً أم مسلما لأننا يجب ألا نركب إلا مع

حوذى مسلم . » ولم يكن يعرف أنى مسيحى . وبصرت عندئذ باحدى المشكلات التى أدت فى النهاية إلى موت السلطنة العثمانية . إذ ليس شك أن الأقليات من العرب والأرمن ، لما نالها من عسف ، حطمت بنيان هذه السلطنة لأن هذا التعصب الدينى كان يرافقه تعصب عنصرى آخر ضد العرب . كما نعرف نحن مما فعله الشريف حسين حين ألب العرب وانضم إلى الانجليز وحارب الأتراك فى الحرب الكبرى الأولى .

والحادثة الثانية أنى وأنا فى استامبول دخلت قهوة تركية كان دخان النارجيلات قد انعقد فيها بحيث لم يكن الداخل يستطيع التنفس أو رؤية السقف . وصدمنى هذا الجو فارتددت بعد أن فتحت الباب . وعدت إلى الشارع . ولكنى تأملت وقلت فى نفسى يجب أن أعرف هذا الوسط التركى بعيوبه وميزاته . ورجعت إلى القهوة وقعدت . وأنا من الأصل أكره الدخان . وظنى أنى على « استهداف » طبى منه . مثل أولئك الذين يستهدفون لهباء القطن أو القمح أو عطور بعض الأزهار . ولم يمض علىّ بهذه القهوة نصف ساعة حتى شعرت بغثيان فخرجت وقئت فى الشارع . وقصدت إلى الفندق وأنا فى غاية الكرب فى الرابعة بعد الظهر . وآويت إلى الفراش . وفى رأسى ضربان كأن مطرقة تدق دماغى . وتورمت الغدد فى عنقى . ولم أفق إلا فى صباح اليوم التالى . وكان واضحاً أنى تسممت بدخان هذه القهوة .

أما الحادث الثالث فهو رؤية السلطان عبد الحميد وهو يقصد من قصره إلى المسجد لصلاة الجمعة . وكنا نحن المتفرجين قد اصطففنا

على الطريق وأمامنا الجنود الأتراك فى صف عسكرى . وكانت المدافع تطلق قنابلها والنواقيس تدق فى المسجد ، على غير مألوفنا فى مصر . والمؤذن يهتف باللغة العربية ، ويدعو إلى الصلاة . وخرج عبد الحميد فى عربته وكان قد تجاوز الشيخوخة إلى الهرم المتحطم . فكان منحنياً يكاد رأسه يلمس ركبتيه . وكانت العربة تسير على مهل وهتاف القائد « بادى شاه شوك يشا » يبعث فى كل منا حماسة تاريخية وإن تكن غير ديمقراطية . ولكن أفسد علينا هذه الحماسة التاريخية منظر آخر هو ضابط شركسى كان واقفاً قريباً منا . وكان غاية فى جمال الوجه وفتنة القوام . وزادت هذا الجمال شكّته العسكرية الزاهية . وكان إلى جنبي وخلفى سيدات أجنبيات فأخذت عيناى تتجسس عليهن كى أرى وقع هذا المنظر فيهن . وكان ما توقعت . فقد تركت أعينهن عبد الحميد وتجمعت نظراتهن فى بؤرة مفردة هى هذا الضابط الشركسى. وهكذا انتصر عرش الجمال والشباب على عرش السلاطين الأتراك .

وقطعت الطريق من استامبول إلى باريس على مراحل قصيرة كى أرى العواصم الأوربية حتى استقررت فى باريس . وسأروى فى فصل آخر ماذا رأيت فى فرنسا . وكنت قد تركت مصر عقب خروج كرومر الطاغية الانجليزى الذى عاث وعربد فى كياننا الاقتصادى والسياسى وعطل بلادنا من التطور . وكان السبب لخروجه فظيعة دنشواى التى فضحت الاستعمار البريطانى فى جميع أنحاء العالم المتمدن .

ولم يكتب إلى الآن فى اللغة العربية تاريخ كرومر . فقد كان هذا الرجل جاهلا يتشدق بعبارات لاتينية أو أغريقية قديمة ولا يعرف

شيئاً من العلوم العصرية الجديدة . ولما ترك مصر استخدمته مجلة « اسبكتاتور لندن » لكتابة النقد للكتب السياسية الجديدة . وكنت أقرأ مقالاته هذه وأنا فى لندن فلا أجد نوراً أو معرفة ، ولكن حذلقة لغوية جوفاء وآراء سخيفة مستغرضة . وكان استعمارياً مسرفاً فى الاستعمار فمنع التعليم ، وخاصة تعليم المرأة ، وقتل الصناعة المصرية. وأحال القطر المصرى إلى عزبة للقطن . ولما أصر السر هنرى كامبل بانرمان رئيس وزارة الأحرار على طرده من مصر عقب فظيعة دنشواى وقف فى دار الأوبرا يودع أصدقاءه الانجليز وأعداءه المصريين فقال هذه الكلمات التالية التى تدل على حنقه وعجزه . وذلك فى ٤ مايو من ١٩٠٧ :

« أخاف أن أكون قد أتعبتكم أيها السادة بطول الكلام . ولكن ما قلته إلى الآن كان عن الماضى . فاذا تكرمتم علىّ بالاصغاء فانى أقول شيئاً عن المستقبل .

« ما هى حقائق الحال المصرية الآن ؟ أولها أن الاحتلال البريطانى سيدوم إلى ما شاء الله . وقد قالت لنا حكومة صاحب الجلالة الملك ذلك رسمياً . والثانى أنه ما دام الاحتلال البريطانى باقياً فالحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسئولة عن الخطة التى تجرى عليها الحكومة المصرية . ولا يكونن عند أحد أقل ريب فى هذه الحقيقة الثابتة . والنتيجة التى أستخلصها من هذه المقدمة أن نظام الحكم الحاضر دائم . »

وإذا كانت هذه الكلمات تدل على حنقه فانها أيضاً توضح سياسته التي اتبعها فى مصر.

وجاء بعد كرومر من يدعى جورست ، وكان قد أدرك أن الخديوى عباس يرأس الحركة الوطنية ويؤيد مصطفى كامل فى جهاده الوطنى وأنه يمكن أن يجتذب الخديوى إلى الانجليز . فاخترع ما كان يسمى « سياسة الوفاق » أى أن الانجليز يجدون المحالفة مع الخديوى أسوس له وأنفع لمصالحهم من الخلاف المستمر والتصادم بينهم وبينه . وكان ما أراد جورست . فان الخديوى تنكر لمصطفى كامل بعدما أطلقت يد الخديوى فى « نظارة » الأوقاف . بل أصبح يناوئ حزب الأمة الذى كان يطالبه بالدستور . وكان أحمد لطفى السيد قد أصدر ، بمعاونة بعض الأعيان « الجريدة » . وجعل رسالتها الأولى الدعوة إلى الدستور . وكان من وقت لآخر يحمل على الخديوى لأنه تتاح له الفرصة لمنح الدستور ولكنه لا يمنحه . ووقعت البلاد من هذا « الوفاق » بين عميد الاستعمار البريطانى وأمير البلاد فى هاوية من اليأس . وتوطدت الصداقة بين عباس باشا وجورست حتى أنه عند ما مرض هذا سافر إليه الخديوى وزاره فى لندن وهو فى فراش الموت كما سبق أن ذكرت .

ثم كان هذا الانبعاث الوطنى الجديد فى الأمة فعمد جورست إلى مناورة استعمارية أخرى هى إيجاد الخلاف والشقاق بين المسلمين والأقباط ، فكان الموظفون الانجليز يحرضون الأقباط من ناحية على المسلمين ثم يعودون فيحرضون المسلمين من ناحية أخرى على الأقباط . وشرعت المصالح الحكومية تخرج إحصاءات ، غير مطلوبة ، كى تبين عدد الموظفين من القبط والمسلمين . وشرع كل فريق يعقد المؤتمرات ويطالب بطلبات كأن مصر لم يعد لها طلبات قبل الانجليز المعتدين علينا جميعاً وإنما

صار كل ما نطمع فيه أن يطلب المسلمون من الأقباط ترك هذه الوظائف أو تلك ويطلب الأقباط من المسلمين هذا الحق أو غيره . وهكذا انتهى جورست إلى « تهنيد » مصر . وسعد الانجليز وشقينا نحن ونسينا الدستور ونسينا الاستقلال . وخيم الشر على الأمة حتى أن كاتباً يدعى عبد العزيز جاويش كتب فى اللواء جريدة الحزب الوطنى يقول فى رعونة إن المسلمين كانوا يستطيعون أن يصنعوا نعالهم من خدود الأقباط . . .

وعاشت مصر أياماً سوداً اغتبط فيها العدو وابتأس الصديق . وقتل بطرس غالى باشا رئيس الوزراء فحمل قتله على أنه ثمرة التعصب الدينى . وهكذا تحققت الأسطورة التى اخترعها ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية كى يبرر بها فظيعة دنشواى وهى أن التعصب الاسلامى قد فشا فى مصروعم أفريقيا الشمالية . واستغل المستعمرون هذه الاسطورة .

ومات جورست قبل أن ينال جميع الثمرات التى كان ينتظرها من الوقيعة التى غرسها بين الأقباط والمسلمين . وجاء بعده كتشنر ، وكان عسكرياً فظاً غليظ العقل يحمل حقداً قديماً على الخديوى . وبقى إلى ١٩١٤ ، وكانت غايته محو الحركة الوطنية وضم مصر إلى الممتلكات البريطانية . وسار سيرة الضغط والعداء للأمة وللخديوى . وأفشى التجسس فى الحكومة . وأرسل بعثة مصرية إلى موسكو كى يتعلم رجالها طرق التجسس التى كانت تستعملها حكومة القيصر نيقولا فى مكافحة الأحرار الروس حتى تصل إلى شنقهم أو نفيهم إلى سيبريا .

وأقام قلعة تحت ستار ثكنة فى ميدان باب الحديد لا تزال قائمة إلى الآن وعلى كل زاوية منها مزاغل من الحديد . وكنت أقرأ هذه الأخبار فى الجرائد التى واظبت على الاشتراك فيها وأنا بفرنسا وكلى يأس واغتمام . وكانت تصل إلى أيضا خطابات خاصة من أقاربى وأصدقائى الأقباط وهم حانقون على إخوانهم المسلمين وخاصة لهذا المقال البذئ الذى كتبه ذلك الكاتب الشاطح عبد العزيز جاويش ، عن خدود الأقباط تصنع نعالا ، فى نقاش صحفى بين جريدتى اللواء والوطن .

ولكن مع هذا الظلام الذى عم مصر فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٢ كانت هناك أشعة من نور . منها الدستور الذى دأب حزب الأمة ولسانه « الجريدة » فى المطالبة به . ومنها هذا التطور الملحوظ فى الوطنية المصرية . والفضل فيه أيضاً للجريدة وأعنى به الانتقال من الوطنية العثمانية إلى الوطنية المصرية البحتة . وقد كان هناك تطورات أخرى غير ملحوظة لأنها سارت فى هدوء . فقد رأت مصر سيدة مصرية تكتب فى الجرائد باسم « باحثة البادية » هى ابنة المرحوم حفنى ناصف بل رأت أيضاً الآنسة نبوية موسى تنجح فى نيل الشهادة الثانوية على الرغم من معارضة دنلوب لها ومنعها من التقدم للامتحان فى السنة الأولى . ومن التطورات غير الملحوظة أن الثروة انتقلت من العائلات التركية إلى العائلات المصرية . وذلك لأن أبناء الأتراك قنعوا بثرواتهم الموروثة ولم يتعلموا . فى حين أقدم الشبان المصريون على التعلم ، فصار منهم الأطباء والمحامون والمهندسون وعامة الموظفين . وكان هذا انتصاراً عظيما للعنصرية المصرية . والقراء الذين ألفوا رؤية

وزراء من المصريين فيما بين ١٩٢٠ و ١٩٤٧ قد يتعجبون حين يعرفون أن المصرى القح لم يكن يعين وزيراً إلا نادراً ، بل نادراً جداً ، قبل ١٩٠٠ . وكان بطرس غالى باشا أول رئيس مصرى للوزارة منذ الاحتلال البريطانى . كما أن فرح الأمة باختيار سعد زغلول باشا وزيراً للمعارف فى وزارة بطرس باشا كان يرجع بعضه إلى أنه مصرى العنصر. والتفاتى هنا إلى هذا الموضوع يدل القارئ على أننا منذ بداية هذا القرن كنا على وجدان بالعنصرية المصرية . وقد ضعف هذا الوجدان بتقهقر السلالة التركية فى الوظائف الحكومية .

وعدت إلى مصر بعد قضاء سنة فى فرنسا فى ١٩٠٩ ، وأذكر أنى حين نزلت فى الاسكندرية سارعت إلى قطع التذاكر عند شركة كوك لرؤية مدن الصعيد إلى الأقصر . وقضيت شهرين أتنقل من بلدة إلى أخرى أدرس الآثار المصرية . وكان الباعث المؤلم بل المخزى على هذه الرحلة أنى لم أكن ألقى أحداً فى أوربا إلا وكان يفاجئنى بالسؤال عن تاريخ الفراعنة الذين كنا نجهلهم تمام الجهل . لأن الانجليز كانوا يشعرون أن هذا التاريخ الذى يشتعل مجداً وعظمة يجب ألا يعرفه أبناء الفراعنة فى القرن العشرين لئلا يشتعل فيهم مثل هذا المجد أيضاً فيطلبون الاستقلال . ومنذ ذلك الوقت وأنا أهتم بالفراعنة وثقافتهم ، وكان كتابى « مصر أصل الحضارة » ثمرة هذا الاهتمام .

وعدت إلى القاهرة بعد هذه الرحلة . وكانت الحركة الوطنية على أشدها ، فكانت هناك المظاهرات من الطلبة ، كما كانت هناك الصحف التى تطالب الانجليز بالجلاء والخديوى بالدستور والشعب

بالنهوض . فكتبت أنا بعض المقالات فى اللواء جريدة الحزب الوطنى . وكان يرأس التحرير فيها المرحوم عثمان صبرى . وكان رجلا حكيما عرف الهوة التى أردى فيها عبد العزيز جاويش الأمة حين وصف خدود الأقباط بأنها تصنع نعالا فشرع يستصلح ويسترضى ويضع الوفاق مكان الشقاق . ودعانى إلى التحرير . وكان من أعظم ما طربت له أنى وجدت هناك فرح أنطون صاحب الجامعة التى وجدت فيها الثقاب الذى أشعل فى نفسى الرغبة فى درس الآداب الأوربية . وقد انتفعت كثيراً بصحبة فرح أنطون فى ذلك الوقت . فانى ، زيادة على ما كنت أستمتع به من حديثه فى الصباح كنت أجتمع به فى المساء ، فى إحدى القهوات بميدان الأوبرا . وكان فرح جميل الطلعة عصرى الذهن أوربى التفكير ، يكره الأتراك والانجليز على السواء . وكان مساوراً يتنقل من الأدب إلى السياسة ولا تفوته النكتة العالية والاقتباس الفريد .

وكان المندوبون الانجليز ، كرومر وجورست وكتشنر ، سواء فى الغاية وهى استغلالنا ونهب أموالنا . ولكنهم كانوا يختلفون فى الوسيلة . فقد كان كرومر لورداً لا يعد هتلر شيئاً فى جانبه من حيث الاعتقاد بأن الآريين يفضلون الأسيويين والأفريقيين . وكان يصرّ على مظاهر السيادة البريطانية فى كل شئ بحيث كان يصرح بأنه يجب على الرئيس المصرى أن يخضع للمرءوس الانجليزى . وكان لكل وزارة « مستشار » هو فى حقيقته وزير يتصرف كما يشاء ، وليس على رؤسائه سوى الخضوع . وأستطيع أن ألخص سياسته كما أذكرها الآن فيما يلى :

١ — قتل الصناعة المصرية قتلا تاما بحيث لا يجوز لمصرى أن ينشئ مصنعاً ، إذ على مصر أن تستورد جميع المصنوعات من انجلترا ، بل من غير انجلترا ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، حتى لا يتعلم المصريون شيئاً من الثقافة الصناعية .

٢ — إحالة القطر المصرى كله إلى عزبة للقطن ، كأنه ضاحية زراعية لمصانع لنكشير . وتوجيه نشاط الحكومة كله إلى هذه الغاية . حتى فقدت كلمة « مشروعات » معناها اللغوى عند الحكومة وأصبح معناها الوحيد زيادة المياه للرى حتى تزيد مساحة الأرض التى تزرع قطناً . وكانت هذه الزيادة فى المياه السبب فى تفشى البلهارسيا والانكلستوما واستشباع التربة بالماء حتى وهنت .

٣ — قصر التعليم وتحديد عدد المدارس لتخريج الموظفين للحكومة فقط ، وذلك بعد قصر نشاط الحكومة على مهمة واحدة هى زراعة القطن .

٤ — المحافظة على تقاليدنا التى ورثناها من القرون المظلمة وكانت تؤخرنا . وأهمها بقاء البرقع والحجاب للمرأة وتثبيط تعليمها . وقد اتبع من جاءوا بعده هذه الخطط كلها . حتى أننا لم نؤسس مدرسة ثانوية للبنات إلا فى ١٩٢٥ .

أما جورست فكان بعيداً عن صراحة كرومر . ولكنه كان يسير فى الخطة نفسها من حيث تثبيط التعليم ومنع الصناعة وزيادة الزراعة القطنية . وزاد على ذلك الوقيعة بين المسلمين والأقباط . وزاد أيضاً حباً متبادلا بينه وبين الخديوى عباس على حساب الشعب .

أما كتشنر فقد عاد إلى صراحة كرومر . وكان يكره الخديو عباس كراهة شخصية ، ولم يكن فيه من الميزات السياسية ما يمكنه من إخفاء هذه الكراهة . وكان صغيراً فى أساليبه شرساً فى مبادئه الأمبريالية . فقد أراد الخديو عباس حوالى ١٩١١ أن يزور بعض المدن . وكان الأعيان يستقبلونه على المحطات . فكان من صغار كتشنر أنه عندما كانت القهوة توشك أن تقدم على المحطة يصفر القطار ويطير فى سرعة مفاجئة فيرتبك الخديو ويضطرب المستقبلون ويعم الهرج . وكان هذا الصغار يلذّ لكتشنر . وقد ذكر هذه القصة جورج لويد مع الاعجاب ، لأن هذا الأخير كان ، نفساً وذهناً ، لا يختلف عن كتشنر صغاراً وانحطاطاً .

وقد كانت شهرة كتشنر حربية . ولذلك كانت له الكلمة العليا فى الحرب الكوكبية الأولى . وقد عانى الانجليز أعظم خسائرهم باستماعهم لمشورة كتشنر الذى أوصى بانفاذ حملة إلى الدردنيل كانت من بدايتها لنهايتها خساراً فادحاً للانجليز وهزائم متوالية منكرة .

ولم أبق سوى بضعة أشهر فى اللواء جنيت فيها مرانة حسنة على الكتابة وبعض الدراية عن الشئون الداخلية فى مصر . ثم سافرت إلى فرنسا عن طريق سويسرا التى تركت لى أجمل الذكريات النفسية عن جبالها وبحيراتها ومدنها وناسها وحريتها وثقافتها .

وكنت وأنا بفرنسا أتتبع الجهاد الوطنى فى مصر وأشترك فى معظم الجرائد والمجلات . ووجدت فى « الجريدة » نزعة وطنية جديدة خلاصتها أن الجهاد يجب أن يتركز فى بؤرة وطنية هى أن مصر للمصريين

وليست للانجليز أو الأتراك . وإن الشعب يجب أن يحكم نفسه بدستور حتى لا يترك الخديوى حاكماً مطلقاً للبلاد . وقد أدت هذه الدعوة إلى تقهقر الحزب الوطنى ، وإلى اعتناق الأقباط للوطنية المصرية التى كانوا قبل ذلك يتوجسون منها ويخشون أن تكون وطنية تركية لمصلحة السلطنة العثمانية .

وأخذت الحركة للمطالبة بالدستور تنتشر وتعم الأمة ، وأصبح الخديوى بعيداً عن الحركة الوطنية إن لم يكن مناهضاً لها .

الآفاق الأوربية تتفتح لى

لما فوجئ العالم فى أوائل أغسطس من هذا العام (١٩٤٥) بالقنبلة الذرية وجد كثير من شباننا « المتعلمين » أنهم محتاجون إلى أن يراجعوا حياتهم وأن يفتشوا أذهانهم كى يعرفوا موقفهم على هذا الكوكب . وقد اضطر كثير منهم إلى أن يغيروا الأوزان والقيم الثقافية التى كانوا يرتضونها من قبل وأن يستبدلوا بها قيماً وأوزاناً أخرى . وقد أحدثت هذه القنبلة صدمة فى أذهان هؤلاء المتعلمين أؤكد أنها لا تقل، فى قيمتها الروحية ، عن الصدمة المادية التى أحدثتها فى هيروشيما وناجازاكى فى اليابان .

أعرف من هؤلاء الشبان اثنين كلاهما يستمتع بمركز مالى حسن كما أنه على اطلاع حسن بالتيارات الثقافية العصرية . وقد كان إلى أغسطس الماضى قانعاً بمعارفه وتطوراته الذهنية . ولكن هذه القنبلة كشفت له عن نفسه فجاءة . فقال لى واحد منهما : «أشتهى أن أعيش طويلا كى أتعلم وأعرف كثيراً من تطورات العالم بعد ظهور هذه القنبلة.»

وقال الثانى : « إنى أحس كأنى أحتاج إلى تربية جديدة كاملة أولد بها من جديد أتعلم معارف جديدة وأقف على كنه هذه القنبلة وعواقبها الحربية والمدنية . »

وقد ذكرت مثلى هذين الشابين كى أقول إنى فى عام ١٩٠٨ أحسست مثل هذا الوجدان ، وضاقت نفسى إلى حد الانفجار . فقد وجدت من الأدب الذى نقله إلى العربية فرح أنطون ومن نظرية التطور التى دأب فى شرحها يعقوب صروف سنوات فى « المقتطف » إنى إزاء رؤيا أنا أعمى إلا عن بصيص منها ، وإن هناك أفاقاً مغلقة يجب أن يكون همى واهتمامى فى حياتى أن أفتحها . وذلك بعد أن استقر عندى أن جهلى عميق ، وأنى فى مصر أعيش فى حياة ذهنية صحراوية تقفر من التفكير الخصب . لذلك قررت وأنا فى التاسعة عشرة أن أترك مصر وأرحل إلى أوربا كى أبحث عن الحياة وأربى نفسى وأولد من جديد . وكنت فى ذلك الموقف الذى وجدته فى أغسطس من ١٩٤٥ من ذينك الشابين الذين ذكرتهما ، وأحسست كأنى أريد أن أنسى ، عن ظهر قلب ، كل ما سبق أن تعلمت ، وأن أمسح لوحة ذهنى كى أنقش فيها المعارف التى أختارها بنفسى .

وكان من حظى الحسن كما سبق أن ذكرت أن الناحية المالية بفضل ما ورثت من عقار صغير مغل ، لم تحوجنى قط إلى الاهتمام بالكسب ولم يكن الاسراف أو الاستهتار فى مزاجى . ولذلك لم أبال فى دراستى أن أعين هدفاً بنية الارتزاق والكسب ، بل كان كل قصدى ونشاطى أن أستنير وأن أقشع هذا الظلام المخيم على عقلى . وشرعت آخذ تربيتى فى يدى وأعين برنامجى أو برامجى لا للدرس فقط بل للحياة أيضاً . بل الحق أن الدرس كان عندى هو الحياة ؛ لأنى شعرت أنى أعيش لأدرس وأنى أدرس لأعيش . ويبدو لى أنى أحسنت الاختيار فى هذا البرنامج ؛ لأنى

أجد فى ١٩٤٥ أن همومى الثقافية لا تزال هى نفسها تلك الهموم التى كانت تشغل قلبى وذهنى فى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ . وإذا كان هناك تغيير فهو فى التوسع والتفرع فقط .

فى ١٩٠٨ سافرت إلى فرنسا وهبطت باريس :

شباب وفراغ وباريس ، وأنا فى التاسعة عشرة ، ولكن لا ! فان باريس عندى لم تكن مدينة الأنوار التى كان يحج إليها المصطافون ويجدون فيها ما يشتهون . لأن هذا الذى يشتهون قد وضع لهم وحدهم . إذ أن سواد الباريسيين يجهله . وباريس من حيث الانغماس الجنسى تعد من أنسك العواصم الأوربية . ثم كانت شهواتى الملتهبة فى تلك السنين ذهنية أكثر مما كانت جنسية . وكانت الدهشة عندى على أعظم ما تكون حين وجدتنى فى مجتمع يخالف المجتمع الذى نشأت فيه فى مصر . ولم تكن دهشة منبهة فقط بل كانت صدمة موقظة .

كنت فى مصر قبل ١٩٠٨ أعرف الحجاب وأرتضى شعائره ولا أجد غرابة أو عيباً فى التلميذات الصغيرات يدخلن المدرسة السنية الابتدائية وعلى وجوههن براقع بيض . وكنت أجد الفصل بين الجنسين شيئاً مألوفاً . والبيت فى مصر خدر كامل ونساؤنا مخدرات كاملات . ولا أكاد أذكر أنى طوال عمرى فى مصر قبل سفرى إلى فرنسا قد تحدثت إلى آنسة أو قعدت إلى سيدة أو فتحت عينى فى وجه امرأة مصرية . فلما وجدت المجتمع الباريسى واختلطت به ورأيت فيه المرأة الفرنسية على حريتها وصراحتها وطلاقتها شعرت أن أفقاً جديداً يتفتح أمامى لم يستطع يعقوب صروف أو فرح أنطون أن يفتحه لى من قبل . فانهما لم يمسا

هذا الموضوع ، أى حرية المرأة ، لسبب واضح وهو أنهما مسيحيان . وكانا بالطبع يخشيان أن يعاب عليهما النقد للعقائد أو التقاليد الاسلامية. ولم أكن قد عرفت قاسم أمين أو بالأحرى لم أتحمس له . ولا أدرى العلة لغيابه عن وجدانى فى ذلك الوقت . لذلك كنت حين أضطر إلى محادثة إحدى الباريسيات أحس ارتباكا يغمر كيانى فلا أجد اللعثمة فى لسانى فقط بل التخاذل أيضاً فى سائر أعضائى . وقد احتجت إلى سنوات كثيرة حتى أتغلب على هذا الشعور المتعس الذى غرسته فى نفسى تسع عشرة سنة من الفصل بن الجنسين فى مصر .

وواضح أن هذا الشلل النفسى منع عاطفة الحب أو كظمها فى الوقت الذى كان يجب أن تنفرج فيه أو تتسامى . ذلك أن للحب فناً كنا نجهله نحن فى مصر فى تلك السنين . وكانت أية محاولة منى نحو التعارف الحميم بآنسة تنتهى بخيبة تكوى القلب والعقل معاً . وفى مصر فى وقتنا هذا من ينظر إلى الاختلاط بين الجنسين بعين المقت أو النفور ولكنى حين أقارن حالى سنة ١٩٠٩ وما كنت عليه من تعس جنسى ووكس عاطفى بحال شباننا الآن فى سرورهم ولهوهم أرانى مضطراً إلى الاعتراف بأنهم سعداء يغتبطون فى ظروف كنت أنا فيها شقياً يرثى لى .

وحبست نفسى فى مدرسة ابتدائية فى قرية قريبة من باريس تدعى سوليرى من قرى القرون الوسطى . واندغمت فى عائلة ناظر المدرسة ، وشرعت أتعلم اللغة الفرنسية فى نشاط ومثابرة حتى نبزت بين المعلمين بعبارة « كيه فو ديرسا » أى « ما المعنى » وذلك لالحاحى على السؤال. ولم تمض أشهر حتى وجدتنى أقرأ الجريدة اليومية بل الكتاب فى فهم

وتعقل بمساعدة المعلم . وكان انتفاعى بجرائد فرنسا اليومية عظيما لأنها وجهتنى فى السياسة وجهة عالمية كانت جرائدنا فى مصر فى ذلك الوقت تعجز عنها . وانقطعت صلتى بمصر باستثناء « الجريدة » التى كان يصدرها لطفى السيد وكان يلقن تعاليمه الجديدة : مصر للمصريين لا للأتراك ولا للانجليز . حرية المرأة . الحكومة الدستورية بايجاد برلمان . وكان يكتب فى هذه الشئون وغيرها بأسلوب اقتصادى بعيد عن الزخارف التى كنا نتعلمها فى المدارس الثانوية ونحسب أنها قمة البلاغة وتاج الفصاحة . وقد عرفت أن مجلة « المقتطف » قد جمعت هذا العام (١٩٤٥) عدداً كبيراً من مقالاته التى كتبها بالجريدة فيما بين ١٩٠٧ و ١٩١٤ . والقارئ يستطيع أن يجد فى هذه المقالات ذلك التوجيه الوطنى الذى وجدته أنا فى تلك السنين منها .

وكانت المرأة الفرنسية ، كما قد عرف القارئ مما ذكرت ، أعظم ما حرك وجدانى الاجتماعى . بل كذلك حرية المرأة فى أوربا الغربية . فان هذه الحرية كانت لهباً يلسع ويجرحنى فى كرامتى الوطنية كلما ذكرت حال المرأة المصرية . وإلى هذه السنوات وإلى هذا الوجدان تعود ثورتى بعد ذلك على التقاليد المصرية التى لم أعد أطيق صبراً عليها . وكثيراً ما فقدت صداقات كنت أحرص عليها لموقفى من هذه التقاليد . بل هناك من أصدقائى من يقول إنى فقدت مكاسب .

وبعد ذلك قرأت هنريك إبسن ودعوته إلى شخصية مستقلة للمرأة ثم عرفت المنظمات والجمعيات النسوية التى كانت فى لندن تطالب بحقوق الانتخاب والنيابة . وامتلأ قلبى وذهنى نوراً وتفاؤلا بمستقبل البشر .

وقد نشأت فى مصر فى وسط ريفى . ولذلك التفت إلى الريف فى فرنسا وتعلمت منه . فاننا فى مصر لا نرحل إلى الريف إلا مضطرين كارهين لأننا نتوقع الغبار على السكك والاهمال الصحى فى المساكن . وريفنا فضلا عن هذا صحراء الروح لما يخيم عليه من جهل وفاقة وقذر للجسم كأنه الدنس للنفس . ولكن ريف فرنسا جنة العين . وكنت أجد السعادة العظمى فى فسحة أقضيها ماشياً على الطرق الزراعية التى يكسوها البلاط (وقتئذ) بين حقول تموج بحركة الحياة النامية فى البقول أو تزدان بالكروم وأشجار الفاكهة الزاكية . وما زلت أذكر ذات مرة أنى رأيت على مسافة فى جولاتى هرماً صغيراً أحمر أثار استطلاعى فقصدت إليه . فلما بلغته وجدته شجرة قد كساها التفاح الأحمر حتى كاد يخفى أوراقها . . .

والقرية الفرنسية ، مهما صغرت ، تحتوى كثيراً من المرافق الاجتماعية حتى لكأنها مدينة صغيرة . فان فيها المطعم والحانة والفندق والسوق الأسبوعية . ولذلك كثيراً ما يقضى الباريسى أسبوعاً أو شهراً فى الريف كما يقضى أحدنا مثل هذه المدة فى الأسكندرية أو رأس البر .

وفى الحرب الكبرى الثانية أشار الماريشال بيتان شبهات وشكوكا بشأن المجتمع الفرنسى أوهمت كثيراً من القراء المصريين أن هذا المجتمع مريض قد تفككت فيه العائلة وتزعزع الإيمان . والواقع أن كل هذا وهم ؛ فانه ليس فى أوربا عائلة متماسكة كالعائلة الفرنسية . ولا يزال نظام هذه العائلة بطريركياً لا تخرج فيه السلطة عن الأب .

وليس فى كل أوربا الغربية أمة تحترم الكنيسة كما يحترمها الفرنسيون. وحسب القارئ أن يعرف أن جميع الكنائس فى فرنسا ، وبعضها ينفرد فى ريف ناء ، تترك مفتوحة ليلا ونهاراً . ومع ذلك لا يسرق ما فيها من الأثاث الغالى الذى يقدر أحياناً بمئات أو ألوف الجنيهات . وهذا على الرغم من حرية الفكر المستفيضة . لا بل على الرغم من الدعايات النشيطة ضد الدين والكنيسة . وما زلت أذكر منظراً كان له أثر الصدمة الموجعة لأول شهر كنت فيه فى باريس فى ١٩٠٨ . فقد رأيت جنازة تسير فى أحد الشوارع تتقدمها راية قد كتب عليها « لا رب ولا سيد » .

ومثل هذا المنظر يوهم أن الأمة الفرنسية قد استفاض فيها الكفر والالحاد . ولكن وقفة واحدة خارج الكنيسة أو داخلها يوم الأحد كانت تكذب هذا الوهم . فان كاهن القرية هو الرئيس الروحى الذى يخاطب السكان بلهجة الأسر تحيط به هيبة التقاليد . والواقع أنه ليس فى أوربا كلها كنيسة حية كالكنيسة الفرنسية .

والحانة ، على الرغم من اسمها وشهرتها ، هى فى باريس والمدن والقرى مؤسسة اجتماعية للسمر بين الرجال أو بين الرجال والنساء . وكثيراً ما يجد فيها الزائر الطعام إلى جنب الشراب . ومع أن فى فرنسا آلاف الحانات ، ومع أن الأطفال يشربون الخمور ، فانى لا أذكر أنى رأيت طوال إقامتى فى فرنسا فى ١٩٠٨ و ١٩٠٩ رجلا سكران . ولعل مرجع ذلك أن الفرنسى يأكل ويشرب ويسكن ويلبس ويعمل وله فى كل ذلك مأرب فنى يحمله على أن يتأنق فى معيشته . فهو يتجنب

السكر عن تأنق وفن كما يجد فى التماثيل كرامة ولياقة . والمائدة الفرنسية ، بأوانيها وزهورها ، هى متعة فنية للعين كما هى لذة الذوق بمهارة طهاتها .

وبدهى أن تماسك العائلة الفرنسية نتيجة هى أن فرنسا أقل أقطار العالم كله طلاقاً . وأن البيت الفرنسى يشبه فى كثير من الأحيان متحفاً يحوى كثيراً من التحف القديمة والطرف الغالية . والجيل الجديد يرث عن الجيل السابق تقاليد فى البيت هى الشعائر الاجتماعية التى يتعارف بها الأفراد كما يرث الأبناء تراث الآباء من أثاث مادى أو ذكريات روحية .

وتعلمت اللغة الفرنسية فى سرعة عجيبة . وقد هبطت وحدى بلا معونة على طريقة ، وجدت بعد ذلك أن المربين قد التفتوا إليها ، هى أن الجملة ، دون الكلمة ، هى التى تحفظ وتستذكر . وحين كنت أزور باريس كنت على الدوام أعنى بحضور إحدى الدرامات . وقد أتيح لى أن أستمتع برؤية سارة برنار وهى تمثل «العقاب الصغير» ولكنها كانت فى كهولتها قد ذهبت عنها لمعة الشباب مع بقاء البراعة الفنية .

ودأبت فى قراءة الجرائد الفرنسية اليومية . وكانت تباع بأثمان التراب . وتعرفت إلى الأحزاب الفرنسية وشغفت بقراءة الأومانيتية التى كانت تعبر عن آراء الاشتراكيين . وكانت الاشتراكية رؤيا جديدة حملتنى على أن أذكر الطبقة الفقيرة فى مصر وأجعلها موضع اهتمامى . وأكسبتنى الجرائد الفرنسية العقلية السياسية الأوربية ، واستطعت أن أفهم كثيراً فى ضوء المذهب الاشتراكى . وكانت جرائدنا

فى مصر « محلية » قد أنهكها الكفاح للاستقلال وحال بينها وبين دراسة الشئون العالمية . ولذلك انتفعت كثيراً بهذه النظرة الواسعة . وخاصة لأن إقامتى فى فرنسا صادفت تلك السنوات التى سبقت الحرب الكوكبية الأولى . فكانت الخمائر تختمر لمن يتشمم الأخبار ويتنسم الطوالع .

ومع أن اللغة الفرنسية هى لغة الافصاح والايماض ، لغة الأدب الحر الذى يمتاز بعبقرية خاصة فى الدقة والوضوح، ومع أن باريس بؤرة الآداب الأوربية بل شعلة الثقافة التى تعشو إلى ضوئها عيون الأوربيين ، ومع أن فرنسا لا تزال فى وجدانى فكرة أكثر مما هى قطر ، فانى لاتجاهى العلمى وجدتنى فى مستقبل أيامى أميل إلى قراءة الكتب الانجليزية وأوثرها على الفرنسية . لأن الانجليزية تعبر عن نزعة عملية تحقيقية كثيراً ما نجدها بعيدة أو غائبة عن المزاج الذهنى الفرنسى ، ولذلك أعزو تربيتى أو بالأحرى معارفى الثقافية إلى الانجليزية أكثر مما أعزوها إلى الفرنسية .

وإذا سألنى القارئ : هل وجدت فى الانجليزية أديباً له مرانة الفن ودقة الحس وإناقة التفكير وجمال التعبير مثل أناطول فرانس أو هل وجدت أديباً فى الانجليزية له حكمة فولتير وثورة روسو وجنونهما المقدس فى خدمة الحق والفن ؟ فانى أجيب بلا. بل أنى أعترف أن هناك آخرين غير أناطول فرانس وفولتير وروسو ممن أثمرتهم الثقافة الفرنسية ولا يوجد من يضارعهم من أدباء الانجليز أو الأمريكيين . ولكن ميزة الكاتب الانجليزى ، وأسمى كتاب الانجليز عندى هو برنارد شو ،

ميزته أنه يلصق بالحقائق ، وله قدم ثابتة فى الأرض حتى حين يرتفع رأسه فوق السحاب . ومع أنى ما زلت إلى الآن أوثر الجريدة الفرنسية فى القاهرة على الجريدة الانجليزية ، ولا أترك نزعة أدبية فرنسية تفوتنى ، فانى حين أحتاج إلى دراسة تطالبنى بالهرس والطحن أعمد إلى الكتب الانجليزية .

وفضل فرنسا علىّ أنها جعلتنى أوربى التفكير والنزعة . وقد تركت باريس فى نفسى إحساساً بأنها عاصمة العالم المتمدن . ولم يتركنى هذا الاحساس إلى الآن . بل إنى أرى من الحق أن نصف المصرى أو الألمانى أو الروسى أو الصينى الذى استشبع بالثقافة الفرنسية بأنه « فرنسى » كما كان يوصف سكان البحر المتوسط من الرومان والمصريين والمشارقة بأنهم « هلّينيون » إذا استشبعوا بالثقافة الاغريقية ونزعوا النزعة الأتينية . لأن إغريقيا لم تكن وطناً جغرافياً للاغريق فقط بل كانت أيضاً وطناً ثقافياً لغيرهم من أبناء الأمم المجاورة . وكذلك فرنسا ليست الآن وطناً جغرافياً للفرنسيين وحدهم ، وإنما هى وطن كل مثقف درس الثورة الفرنسية وأحب باسكال وروسو وعرف كلود برنار وأناطول فرانس . ولا يستطيع أحد أن يقول مثل هذا القول عن أى قطر آخر . لقد فتحت لى فرنسا الآفاق الأوربية التى لا تزال تنبسط أمامى فتكسب حياتى مغزى حتى حين أعيش فى وسط ليس له معنى فضلا عن مغزى . وأى عزاء أكبر من هذا ؟

أنا أربى نفسى

فى ١٩٠٩ قصدت إلى لندن بعد قضاء شهرين فى مصر عقب عودتى من فرنسا . وهنا يجب أن أذكر أن السفر كان فى ذلك الوقت حراً . فلا جوازات ولا تقييدات أو عراقيل حكومية . وكان السفر إلى باريس أو برلين أو لندن لا يختلف عندى من السفر إلى طنطا أو أسيوط . وأذكر أنى أخذت إلى لندن باخرة قادمة من الهنـد عليها موظفون من الانجليز فى الحكومة الهندية . فقاطعونى حتى على المائدة حين يحتاج كل واحد إلى مناولة الملاحة أو إناء الماء أو غيره . ولم أنجح فى حمل أحد من هؤلاء الانجليز على الحديث معى ونحن على سطح الباخرة . وعوملت كما لو كنت هندياً . أنا العبد وهم السادة . ولكنى وجدت بعض الهنود الذين عزلوا أيضاً ، اجتماعياً ، مثلى . فكنا نتحدث معاً ونحن على وجدان بهذا الاستغراض الامبراطورى. أجل . لقد عرف الانجليز نظرية « الشعب السائد » ومارسوها حين كان لا يزال الألمان مبتدئين فى تفهم مغزاها يكتبون عنها فقط . وكان هذا أول اختبارى للاستغراض اللونى . لأن أوربا كلها لم تكن تعرف هذا الاستغراض . وكنا نحن المصريين نجد الاحترام بل الاكرام فى عواصم أوربا إلا فى عاصمتين : استامبول حيث كان الأتراك ينظرون

بالاحتقار إلى كل عربى ، ولندن حيث كان الانجليز على وجدان وقح بسيادتهم للهنود والمصريين وسائر الأمم التى استولوا عليها .

وقد يسأل القارئ : لماذا لم أعد إلى باريس بعد أن قضيت فيها نحو سنتين كانت بالطبع لا تكفى للتعلم ؟

وللاجابة أقول أن باريس بعد أن بسطت لى آفاق الثقافةالأوربية حملتنى على أن أسرف فى الطموح . فقد كنت فى مصر أعيش فى عزوبة ثقافية لا أقرأ غير اللغة العربية ولا أستنير عن شئون هذا العالم حتى بقراءة الجريدة العربية . وكان تعلمى للفرنسية بمثابة التزوج من الثقافة الأوربية . وخشيت إن أنا بقيت فى باريس أن أنسى اللغة الانجليزية التى تعلمتها بمصر . فأضمرت برنامجاً لتربيتى الذاتية ، برنامج الحياة ، هو أن أعيش فى لندن سنة أو أكثر ثم أقصد إلى برلين فأتعلم الألمانية . وامتلاك هذه اللغات الثلاث يكفل الاتصال بالعالم المتمدن كله جملة وتفصيلا من حيث الوقوف على معارفه واتجاهاته . وقد اختل هذا البرنامج فيما بعد . فانى وأنا فى لندن شرعت فى تعلم الألمانية . ولكن صعوبة هذه اللغة ، وأيضاً سوء الطريقة التى اتبعها المعلم معى ، كلاهما جعلنى أكف عن الاستمرار فى تعلمها . وبدلا من أن أبقى فى لندن سنة بقيت نحو أربع سنوات .

ورأيت وأنا بلندن أن أتخذ دراسة نظامية إلى جنب دراساتى الأخرى الاختيارية . ولم يكن لى من قصد فى هذه الدراسة النظامية سوى الحصول على الشهادة للوجاهة لا للكسب . ولذلك لم أبال أية دراسة . والتحقت بلنكولنز إن . وهى أشبه بهيئة نقابية للمحامين

فى لندن تجهز الطلبة الملتحقين بها بدراسات قانونية ينتهى من يجتاز الامتحان فيها بالحصول على شهادة هى فى الحقيقة رخصة بأن يكون محامياً أو وكيل دعاوى . وقد كان اختيارى لهذه الدراسة كارثة . فانى بعد أن درست الدستور البريطانى بشئ من الحماسة والتوسع وجدت سائر القوانين الانجليزية لا تطاق ولا تستحق العناء وخاصة تلك القوانين التى تعالج مشكلات التجارة البحرية . ولذلك شملنى فتور حال دون الاستمرار فى الدراسة .

ولكن هذا الفتور فى دراسة القوانين الانجليزية كان يصحبه نشاط محموم فى دراسات أخرى كنت أتهجد لها فى الليل . كما كانت هناك فترات تطول أياماً بلا دراسة ولكن فى تأمل وفى إمتحان ذاتى حين كنت أبحث عن مراسىء فى هذه الدنيا المبلبلة . وأذكر أنى، فى إحدى هذه الفترات ، وجدتنى قاعداً على الكرسى كأنى قد سمرت به . وكأنى نويت أنى لن أبرح هذا الكرسى حتى أصل إلى قرار حاسم . ماذا أنا عامل فى هذه الدنيا ؟ من هم خصومى الذين يجب أن أكافحهم ؟ من هم أصدقائى الذين يجب أن أؤيدهم ؟

ووجدتنى أفكر وأجيب . وأحياناً يحتد تفكيرى فأسمعه كلاماً أنطق به . أجل . ليس لى مأرب فى هذه الدنيا . فلست أبالى أن أكون ثرياً . لا بل لست أبالى أيضاً أن تكون لى زوجة وأطفال . وإنما قصدى أن أفهم ، أن أعرف كل شئ وآكل المعرفة أكلا .

ثم عدت فقلت : ولكن لماذا ؟ وأجبت : لأكافح .

أكافح الانجليز حتى يجلوا عن وطننا . وأيضاً أكافح تاريخنا .

أكافح هذا الشرق المتعفن الذى تنغل فيه ديدان التقاليد . وأكافح هذا الهوان الذى يعيش فيه أبناء وطنى : هوان الجهل وهوان الفقر . أجل أنى عدو للانجليز وعدو لآلاف من أبناء وطنى ، لهؤلاء الرجعيين الذين يعارضون العلم والحضارة العصرية وحرية المرأة ، ويؤمنون بالغيبيات . وصارت هذه الأفكار هماً يؤرق .

وعقب مقامى فى لندن بأربعة أشهر فقط أصبت بنزلة شعبية فنهضت منها منهوكاً حتى نصح لى الطبيب المعالج بأن أعود إلى مصر كى أنتفع بشمسها . فوجدت أن العودة إلى مصر بعد شهور فقط قد تحدث ارتباكاً كبيراً فى برنامجى . ولما كان الغرض هو ترك جو لندن أى الضباب والبرودة فانى فكرت فى مراكش لقربها من إنجلترا . وقلت: أقضى بضعة أسابيع هناك وأعود فى مارس حين يكون قد خف البرد. وتجهزت للسفر . وكانت الرحلة من لندن إلى جبل طارق حافلة بعناء الأمواج المضطربة فى خليج بسكاى ونغاصة الاقامة مع الموظفين الانجليز العائدين إلى مصر والهند وسائر الامبراطورية . وكان هؤلاء ينظرون إلينا كأننا كلاب بل أشنع . ونزلت فى جبل طارق حيث طاب لى أن أتردد على المراكشيين التجار وأتحدث معهم بالانجليزية والعربية .

وقصدت إلى طنجة مدينة ابن بطوطة . وهناك قضيت نحو عشرين يوماً كان أعظم وقعها فى نفسى أنى اقتنعت بأن الشرق مفلس وأن طراز الثقافة الذى يعيش به ويسترشد بقواعده يجب أن يتغير .فقد كانت الحكومة المراكشية تبيع الحشيش للأهالى وتحتكر الاتجار به تؤثر بذلك ربحها على صحة السكان . وقد حدث أنى خرجت مع الدليل

لرؤية بعض الآثار الرومانية التى تبعد أميالا عن طنجة . وكان كل منا على بغلة . فلما وصلنا إلى سفح تل نزلنا للاستراحة . فانطلقت بغلة الدليل وفرّت فوق التل . فلما طلبت إليه أن ينهض ويدركها أجابنى فى برود وطمأنينة بأن الحشيش « قطع » قلبه . وأنى يجب أن أنهض أنا وأعدو وراء البغلة حتى أمسكها وأعود بها إليه . ونظرت إلى وجهه وتأملت شحوبه وتحقق لى أنه ليس هناك مفر من أن أستمع لكلامه. وقمت أجرى خلف البغلة على التل . وقد احتجت إلى نحو نصف ساعة وأنا ألهث جهداً حتى قبضت عليها وعدت بها لهذا الدليل الحشاش .

وقيل لى وأنا فى طنجة أن الرقص ممنوع . ولكن الدليل أسرّ فى أذنى بأنه على الرغم من هذا المنع فانى أستطيع أن أرى الرقص وأسمع الغناء المغربيين . ولكن فى مكان غير علنى . ويعثنى الاستطلاع على أن أستجيب لاقتراحه . وقصدت معه بعد الثامنة مساء إلى هذا المكان حيث وجدت فتيات عاريات لا تستر أجسامهن خرقة وهن يرقصن ويغنجن ويغنين أغانى مراكشية ويطربن الأجانب وبعض الوطنيين بهذا الابتذال الذى بعث فى نفسى اشمئزازاً عظيما .

وكانت لغة المغاربة عربية بالطبع . ولكنها تنطق بلهجة تغاير لهجتنا فى مصر حتى كنت أوثر التحدث بالفرنسية . فاذا لم يفهمها محدثى ألقيت عليه السؤال باللغة العربية الفصحى . وكان ، بعد أن يتأملنى فى دهشة ، يجيب بفهم على سؤالى . وقد كتبت عن رحلتى هذه مقالا بالمقتطف فى ١٩٠٩ بعنوان : « أسبوعان فى المغرب » .

وعدت إلى لندن منتعشاً معافى وقد فطمتنى الزيارة للمغرب من

أى أثر باق من الولاء للشرق . وشرعت أتعرف إلى ينابيع الثقافة الانجليزية العصرية وأتتبع مناقشات الصحف . والتحقت بالجمعية الفابية التى كانت تنشر الاشتراكية بين المتوسطين والأغنياء دون العمال . وكانت هذه الجمعية فى ذلك الوقت تجمع عدداً كبيراً من المتيقظين للتطورات الاجتماعية والاقتصادية بزعامة برنارد شو وولز . وكان الثانى قد تركها ولكن أثره كان باقياً . ولم أنقطع منذ أن عرفت هذين المؤلفين عن دراسة مؤلفاتهما التى تعد تربية عصرية فى الاقتصاد والاجتماع والدين والأدب . وقد تربى عليهما جيل فى أوربا وأمريكا أصبح أفراده يقودون عصرهم ويرتادون المستقبل . وعرفت أيضاً جمعية العقليين . وكانوا يطبعون مؤلفات مبسطة رخيصة عن العلوم والمكتشفات التى تناهض العقائد الدينية المألوفة . وقد طبعوا الملايين من هذه الكتب التى كان يباع الواحد منها بنحو ٢٥ مليما . وقرأت جميع مؤلفاتهم ومطبوعاتهم .

وكان المذهب العقلى يتفشى فى أوربا فى تلك السنين ويجد أخصب تربة لنموه فى فرنسا . فقد كان فى باريس جرائد يومية ، مثل لولانترن ، تكافح الغيبيات . ولا أنسى مظاهرة هائجة ارتجت لها لندن وسائر العواصم الأوربية حوالى ١٩١٠ . فقد حدث أن رجلا من هؤلاء العقليين يدعى فرانسيسكو فيرير أعدم فى أسبانيا . وكانت التهمة التى حوكم من أجلها أنه دبر مؤامرة لقلب نظام الحكم من الملوكية إلى الجمهورية وتهم أخرى خاصة بالجيش . ولكن التهمة الحقيقية كانت أنه كان ينشر فى أسبانيا المظلمة مؤلفات الأحرار فى أوربا مثل فولتير ونيتشه

وكوربتكين وروسو وتولستوى ويترجم مؤلفات العقليين ، وخاصة ما اتصل منها بنظرية التطور ، إلى اللغة الأسبانية ويبيع هذه المؤلفات بأثمان منخفضة حتى تصل إلى العامة . ورأى الكهنة والرجعيون أن هذه المؤلفات خمائر سوف تقوض سلطانهم وتلغى امتيازاتهم واحتكاراتهم . فدبروا له تهمة « قلب نظام الحكم عنوة » وأعدموه .

وهاجت أوربا كلها لاعدام هذا الرجل . فكانت مظاهرات فى كل مدينة بل فى كل قرية . وكانت الخطب النارية فى كل ناد ومحفل استنكاراً لهذه الجريمة . وحضرت المظاهرة الكبرى التى سارت مواكبها فى لندن وتجمعت أخيراً فى ساحة الطرف الأغر حيث ألقيت الخطب من الأحرار والديمقراطيين فى التشنيع بالحكومة الأسبانية واستبداد الكنيسة الكاثوليكية . وعقدت اجتماعات كثيرة بعد ذلك فى هذا الشأن . ووصلت الأخبار من باريس فى مساء ذلك اليوم بأن المظاهرات جمحت وقتل عدد من المتظاهرين الذين حاولوا الهجوم على الكنائس والأحزاب الرجعية . وصدرت الكتب العديدة فى شرح الحركة العقلية التى كان يقوم بها فيرير ومحاكمته الجائرة التى انتهت باعدامه . واتضح من هذه المحاكمة أن وكيل النيابة الذى شرح التهمة للمحكمة صرح بأنه لا يعرف من هو تولستوى الذى كان فيرير يتعب وينفق ماله فى نشر مؤلفاته باللغة الأسبانية . ولما وثب الطاغية فرانكو إلى الحكم فى ١٩٣٧ ، وحارب الديمقراطيين والاشتراكيين ، بمعاونة الكهنة ، وقتلهم ودمر المدن الأسبانية بمساعدة الطيارين الفاشيين من ألمانيا وإيطاليا ، تذكرت فيرير . وتذكرت ما كان يقول الأحرار وقتئذ

عن أسبانيا وهو أن الفاصل بين أوربا المتعلمة المتمدنة وبين أفريقيا السوداء هو جبال البرانس التى تفصل أيضاً بين فرنسا وأسبانيا ...

وقد أنعشتنى هذه المظاهرات وبت ليلتى وأنا أفكر فى هذا الروح البشرى فى مدن أوربا المتمدنة وقراها ، هذا الروح الذى انطلق بالسخط واللعنة على الحكومة الأسبانية لأنها أعدمت رجلا أوربياً من أبناء القرن العشرين فى حين هى أصرت على أن تعيش فى القرون المظلمة وأن تكون أفريقية متوحشة . وأخذت أسائل : هل مثل هذه المظاهرات يمكن أن يوجد فى مدن الشرق ؟

وكان من الأغلاط التى وقعت فيها أنى آمنت بمذهب النباتيين فامتنعت عن تناول اللحم نحو عام كدت أموت من الهزال فى نهايته . وكانت المطاعم النباتية فى لندن كثيرة تقدم لزبائنها مختلف الألوان الشهية التى تغنى فى الطعم عن اللحم . فلم أجد صعوبة فى الكف عن الوان اللحوم . ولكنى هزلت حتى كدت أمرض .

والتحقت ببعض الكليات لدراسة العلوم المختلفة التى جذبتنى ، مثل المصرلوجية للاستاذ بترى ، ومثل والبيولوجية الجيولوجية والاقتصاد وانغمست فى هذه الدراسات كثيراً .

وعلى الرغم من الشهرة التى تتمتع بها باريس بشأن حرية المرأة فقد وجدت أن المرأة الانجليزية أكثر حرية . والشبان والفتيات يتحابون ويتغازلون جهرة فى الحدائق العامة بل أحياناً فى الشوارع . ولكن الشلل النفسى الذى أحدثته التربية الشرقية فينا حال دون

استمتاعنا نحن المصريين بهذه المسرات فى لندن . واحتجت إلى مرانة طويلة قبل أن أجرؤ على المبادأة والسلوك الاستقلالى فى الحب . ثم حانت فرصة .

ذلك أنى كنت أصطاف فى إحدى المدن الصغيرة على الشاطئ الشرق لانجلترا . فعرفت هناك فتاة إرلندية فى سنى أو أكبر قليلا كانت تعمل فى التدريس . وكانت تحنق على الانجليز لسلوكهم الامبراطورى فى إرلندا كما كنت أحنق أنا على احتلالهم لمصر .وتوطدت بيننا صداقة على أساس هذا الحنق . ثم صارت الصداقة حباً فغراماً . واستسلمت لى واستسلمت لها وكنا نقضى ليالينا فى غرفة واحدة وكانت من الجهال بحيث تحدث فيمن يحبها أو فى بعضهم ذلك العيب الأكبر الذى كان يعلله فرويد بمركب أوديب . وقد استطعت أنا بعد ذلك بعشرين سنة أن أشفى صديقاً عزيزاً إلى من هذا المأزق . ولكنى لتعسى فى ١٩١٠ كنت أجهل فرويد وأجهل السيكولوجية . وكانت اليزابيث جميلة تمتاز ببشرة غاية فى النعومة والصفاء . وكانت مديدة القامة كنت أحس وهى قادمة إلى عن بعد أنها علم يخفق . وكان نشاطها يبدو فى حركاتها كأن جسمها وذهنها يتفززان . وتناسقنا كلانا فى التفكير والعواطف . فكنا نقرأ الجرائد معاً ونتفق على مغزى الأخبار .

وعدت إلى لندن وعادت هى إلى مدينتها فى وسط انجلترا . ولم تنقطع المراسلة بيننا . وعقد فى لندن مؤتمر الشعوب المخضعة . وكان محمد فريد يمثل مصر . وكان دى فاليرا يمثل إرلندا . فجاءت اليزابيث

وقضينا أياماً فى لندن حضرنا فيها اجتماع هذا المؤتمر الذى خطب فيه دى فاليرا باللغة الأرلندية التى لم يفهمها أحد . ولكنه أصر على ذلك كى يثبت حق أمته فى ثقافة ولغة مستقلتين . وترجمت خطبته إلى الانجليزية . وكذلك خطب محمد فريد باللغة الفرنسية . وبعد هذه الزيارة القصيرة للندن عادت إلى بلدتها وتأكد لى عندئذ أن الزواج غير مستطاع لأنى لن أبرأ . وبعثت إليها بذلك مع هدية غالية . وتزوجت هى بعد ذلك ولكنى لم أرها وهى متزوجة .

وقد ملأ هذا الاختبار نفسى غما ومرارة ولكنه بعثنى على الاستطلاع والدراسة للشئون الجنسية . فعرفت هافلوك أليس وأوجست فوريل قبل أن أعرف فرويد . بل إن هذا الاستطلاع الجنسى كان سبباً فى استطلاعات ثقافية أخرى عديدة .

وكانت الحركة النسوية على أشدها فى لندن حوالى ١٩١٠ . فكانت مظاهرات النساء للمطالبة بحقوق الانتخاب . وكان بعض هذه المظاهرات عنيفاً تشتبك فيه السيدات والفتيات مع رجال البوليس . وكانت زعيمة هذه الحركة سيدة تدعى المسز بانكهرست وكانت جريئة مقدامة تتخير الكلمات الجارحة عندما تصف رجال الحكومة الذين كانوا يعارضون هذه الحركة . وحضرت أحد هذه الاجتماعات وعجبت للحماسة بين الحاضرات المستمعات وهى حماسة تجلت عن جمع نحو خمسة آلاف جنيه فى بضع دقائق للانفاق على هذه الحركة .

وكان البيت الانجليزى يمتاز برفاهية لا تعرفها البيوت فى أى قطر آخر فى أوربا . وذلك لارتفاع مستوى المعيشة بين الانجليز بما كانوا

ينهبونه من محصولات الأمم المخضعة فى إمبراطوريتهم أو يشترونه رخيصاً من هذه الأمم ويبيعونه غالياً لهم ولغيرهم . وكذلك بما كان يرد إليهم من دخل آخر هو أرباحهم من الشركات التى يؤسسونها فى الهند أو مصر أو غيرها . ولذلك كثيراً ما كنت أجد منزل النجار فى أحد المصيفات مؤثثاً بالرياش التى تعد فى مصر فاخرة لا يحصل على مثلها إلا موظف فى الدرجة الرابعة .

وانتفعت كثيراً باختلاطى بأعضاء الجمعية الفابية . وكانوا ، كما قلت ، من الاشتراكيين . ولكنهم كانوا مع ذلك أماميين فى شئون أخرى . وأيما حركة كانت تنتشر فى الأدب ، أو نظرية يقول بها العلميون ، أو دعوة إلى بدعة جديدة فى الدين أو الفلسفة ، كنا نجد لها من يمثلها أو تمثلها فى الجمعية الفابية . فقد كانت بها اجتماعات لبحث اليوجنية أى هذا العلم الجديد لترقية النسل . كما كان بها اجتماعات أخرى لدرس التطورات الاجتماعية أو الاقتصادية فى ألمانيا أو فرنسا . وقد عرفت الأدب الروسى عن طريق هذه الجمعية كما عرفت إبسن . ولا أذكر شو أو ولز وكلاهما كان من أعلام هذه الجمعية .

وكان برنارد شو فى تلك السنين فى شبابه أحمر اللحية يتعلق به الفابيون ويتكأكأون حوله ، وكان أول لقائى له فى الحديث أنه رآنى أتأمل رسماً له على الحائط . فجاءنى وقال : ما رأيك فى هذا القذف؟ فقلت إن الرسم جميل ولا يعد قذفاً . فلما عرف أنى قبطى قال : أنت سونوفيزيت ؟

تأربكنى السؤال لأنى لم أكن أعرف هذه الكلمة الضخمة .وتبادر إلىّ أن الكلمة تتعلق بالطعام النباتى . لأن برنارد شو كان مقروناً فى ذهنى إلى الطعام النباتى . وكنت قد داعبت الفكرة بأن أقتصر أنا أيضاً على النبات وانقطعت عن اللحم جملة أشهر . وظننت أن الخطاب موجه إلينا كأمة لأن كلمة أنتم تقال فى الانجليزية للمفرد كما للجمع . وأنه قد حسب أننا مثل الهندوكيين نقتصر على الطعام النباتى . فقلت : لا نحن نأكل اللحم أيضاً فى مصر .

فانفجر بالضحك . وطلب إلىّ أن أبحث فى المعجم عن «مونوفيزيت» وبحثت عنها ذلك المساء فوجدت أنها تتعلق بالغيبيات المسيحية . وأن الأقباط يؤمنون أن طبيعة المسيح البشرية قد اندغمت فى طبيعته الآلهية . وأن له لذلك طبيعة واحدة أى مونوفيزيت . وأن هذا المعنى هو النقطة الجوهرية فى الخلاف بيننا وبين الكاثوليك الذين يعتقدون أن طبيعة المسيح حين كان على الأرض كانت بشرية . وأن طبيعته الآلهية تبدأ من رفعه إلى السماء بعد صلبه .

وكان برنارد شو فى تلك السنين « الطفل المدلل » فى الصحافة والأدب . وكانت دراماته قد بدأت تغزو المسارح وأفكاره تستحيل إلى مذاهب تتشيع لها أو عليها الجماعات المفكرة . وقد غزا برنارد شو عصره وأشعل نوراً ، كثيراً ما كان يستحيل إلى نار ، حين كان يجد جوراً إمبراطورياً أو ظلمات استغراضية أو تعصبية.

وقد كانت لندن حوالى ١٩١٠ فى ثورة فكرية على التقاليد التى كانت تسود الأمة فى العصر الفكتورى أى القرن التاسع عشر .فقد

اختمرت فى هذا القرن جملة خمائر فى الاقتصاد والدين والاجتماع .
واتفق وجودى فى لندن فى الوقت الذى كانت قد شرعت فيه هذه الخمائر تغير الآراء والعقائد والاتجاهات . وكان أعظم ماتركته فى نفسى ، الثقافة العامة الانجليزية فى ذلك الوقت ، هو الشك فى القيم والأوزان الأخلاقية والروحية . وقد رأيتنى أسير فى لندن بلا قبعة إحتجاجاً على العرف مع أن الرأس العارى لم يكن وقتئذ مألوفاً كما هو فى أيامنا . وكان إكبابى على دراسة كتب العقليين دليلا آخر على هذا القلق الذى كان يشيع فى الأوساط المتعلمة اليقظة . وزادنى قلقاً إختلاطى بأعضاء الجمعية الفابية وكانوا على وجدان بالتغيرات الكامنة والقادمة يضعون أناملهم على نبض الثقافة الأوربية ويتعرفون اتجاهاتها . وفى هذا العام (١٩٠٩) ألفت رسالة صغيرة دعوتها «مقدمة السبرمان» وأرسلتها إلى المرحوم جرجى زيدان محرر الهلال فطبعها لى بعد أن حذف بعض الفقرات الجريئة . وهى تدل القارئ على القلق العام لشاب مصرى لم تزد سنه على ٢٠ أو ٢١ سنة . شاب مسته بل كوته الثقافة الجديدة وقطعت مابينه وبين الماضى وسددت نظره إلى بصيص من نور المستقبل .

وقد نفدت هذه الرسالة ولم أعد طبعها . ولكنى ، بعد تنقيحات أو تلطيفات ، جعلتها فصلا من فصول كتابى « اليوم والغد » .

ولا أنسى هنا أن أذكر المتحف البريطانى . فان هذا المتحف ، زيادة على مافيه من الآثار القديمة التى تحوى مقداراً كبيراً من مخلفات الفراعنة ، يحتوى أيضاً مكتبة بها نحو أربعة ملايين مجلد . وكنت أتردد

كثيراً على هذه المكتبة . بل لقد قرأت فيها بعض الكتب العربية .

وقد ذكرت شيئاً عن الاستغراض اللونى فى لندن . ولكن هذا الاستغراض كان مع ذلك ضعيفاً . وكان لايبدو إلا فى بعض البنسيونات أو الفنادق التى كانت ترفض نزول الهنود فيها . وكنا نحن المصريين نعامل أحياناً مثل الهنود . وأحياناً نجد التسامح لأن لوننا كان قريباً من لون الأوربيين . أما فى الريف الانجليزى فلم نكن نجد شيئاً بتاتاً من هذا الاستغراض .

والريف فى إنجلترا هو أجمل ريف فى العالم كله ؛ لأن الانجليز لايعنون بالزراعة . فالجبل والسهل ، والبحيرة والغابة ، لاتزال جميعها على عذريتها لم تمسسها سكة المحراث إلا فى نبذ صغيرة متباعدة . ولذلك يجد الزائر الجائل فى الريف الانجليزى الطبيعة الساذجة فى صميم جمالها .

والريف فى كل أوربا يعد مزاراً فى الربيع والصيف حين ترغى الحقول وتزبد بفيض الحياة الهائجة . والقرية الأوربية مبلطة الشوارع جميلة البناء تغسلها الأمطار حتى لتبدو عقب شؤبوب من المطر كأنها صورة مزخرفة بالألوان الزاهية . وكل قرية ، مهما صغرت ، تحتوى الحانة والمطعم والفندق . ولذلك يستطيع الزائر أن يجد الراحة أسبوعاً أو أكثر . وقد انتفعت كثيراً واستغللت هذه الحضارة القروية فى تأملات ومقارنات مع ريفنا الكالح الأسيف الذى لايزال يعيش الفلاحون فى قراه فى جحور تحطم صحتهم وتجرئ المستبدين على انتهاك كرامتهم .

وأذكر أنى فى بعض زياراتى للريف البريطانى قعدت على العشب أتحدث إلى فلاح مسن . وكان ، قريباً منا ، حقل قد نمت فيه الذرة

وزكت إرتفاعاً وغصوناً . فسألت الفلاح : هل تشوون الذرة كما نفعل؟ فلم يفهم سؤالى . وعرفت أن الذرة تنمو فى إنجلترا ولكنها لا تثمر . أى أن الكوز أو القنديل لا يتكون . لأن القمة التى تتألف من اللقاح الذكرى لاتتم . وإنما تزرع الذرة كى تصير مرعى فقط للبهائم . وبرودة المناخ هى التى تمنع نمو الذرة إلى النضج .

وإيجار الفدان لم يكن يزيد على نصف جنيه أو جنيه . فمن يملك مئة فدان فى انجلترا لا يحصل إلا على خمسين أو مئة جنيه فى السنة إيجاراً . أما الفلاح المزارع المستأجر فيحصل على نحو عشرة جنيهات ربحاً من الفدان . وهذا عكس ما نجد فى مصر حيث أكثر الربح للمالك وأقله بل أقله جداً للمستأجر .

وزرت فلاحاً آخر فى بيته . فوجدته يربى نحـــو خمسين عجلا يشتريهـا وهى فى الأسبوع الثالث من عمرها . ثم يرضعها فى بيتــه بالبزازة . أى أنه كان يبيع قشدة اللبن ثم يأخذ المخيض ويخلطه بزيت القطن ويرضع بمخلوطهما هذه العجول . فيكسب ثمن القشدة أو الزبدة فى حين أن العجل يجد فى الزيت عوضاً عنهما . فاذا فطم العجل حبس حتى لا يكاد يتحرك ثم يسمن بالغذاء المركز من كسب القطن وبعض البروتينات . والعجل المسمن فى إنجلترا يبلغ وزنه أحياناً طناً كاملا (٢٢ قنطاراً) ويباع لحمه بأغلى مما يباع الضأن .

وقد كان تأملى للمزارع الأوربية يبعثنى على الاكتئاب كلما فكرت فى فلاحينا فى مصر؛ لأن المقارنة بين القرية الأوربية والقرية المصرية إنما هى مقارنة بين النعيم والجحيم أو بين الجمال والقبح أو بين الكرامة والمهانة .

تربيتى الأدبية

عند ما أرجع بذاكرتى إلى البذور والجذور التى نشأت ونبتت منها ثقافتى الحاضرة أجد أنها تكاد جميعها تعود إلى الفترة الواقعة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ حين كنت فى لندن . ففى تلك الفترة كانت هناك طائفة من المذاهب والنظريات ، فى الأدب والعلم ، « تتجرثم » . وقد كان من حظى الحسن أن أدركت الجراثيم الأولى لهذه الحركات . ومع أنى الآن مشرف على الستين ، فانى أجد ، بالاستبطان الذهنى ، أن ما أعرفه أو أعتقده أو أدعو إليه من نظريات أو مذاهب فى ١٩٤٦ إنما أخذت جراثيمه الأولى فى تلك الفترة . ولم تكن الزيادة فى السنين بعد ذلك سوى زيادة فى نمو هذه النظريات والمذاهب أو التوسع فيها أو التفرع منها . وظنى أن هذا هو المألوف أيضاً فى سير التكشف الثقافى عند غيرى . أى إننا لا نكاد بعد العشرين نجدد شيئاً ، وإنما قصارانا أن ندافع عما أحببنا أو تلقينا راغبين ، ثم يبعثنا الحب إلى النمو بالتوسع والتعمق . وعندى البرهان على ذلك . فانى فى ١٩٠٩ ألفت رسالة صغيرة تبلغ نحو ٣٠ صفحة بعنوان « مقدمة السبرمان »، حين أعود إليها الآن ، أجد فيها جميع الجراثيم الفكرية التى لا تزال تشغل ذهنى . وهى تمتاز بفجاجة فى الأسلوب مع فجور فى التفكير .

إذا كانت تدل على عقل خام ناشئ ، فهى أيضاً تدل على عقل مستطلع واثب .

واندمجت فى المجتمع الانجليزى . وأعنى بنعت « الجديد » تلك الطوائف والجماعات المستطلعة المتسائلة فى « الجمعية الفابية » و « جمعية العقليين » وأمثالها . وكان كل شئ فى تلك السنين فى البوتقة فى سبيل التغير والتطور . فقد كان حزب الأحرار فى مجده يقوده كامبل بانرمان واسكويت ولويد جورج . ولكن هذا المجد كان يحمل غبار القرن التاسع عشر . وتراكم هذا الغبار حتى لم يستطع الأحرار أن ينفضوه عنهم . فلم تمض عليهم بعد ذلك نحو عشر سنوات حتى خنقهم فلم نعد نسمع عن الأحرار بعد الحرب الكوكبية الأولى . وكانت جراثيم الاشتراكية تختمر فى كل أوربا ، وكان هؤلاء الأحرار أنفسهم عجينتها التى نمت فيها هذه الجراثيم .

ولم يمض علىّ عام فى لندن حتى وجدتنى أتجه نحو اليسار أى نحو الاشتراكية . ولم يكن هذا الوجدان سياسياً فقط ، فقد وجدتنى اشتراكيا قبل أن أقرأ ماركس لقوة الجذب التى كانت عند الاشتراكيين فى ناحيتى العلم والأدب . ذلك أن هؤلاء المجددين فى السياسة كانوا أيضاً مجددين فى العلم والأدب ، يؤمنون بمذهب داروين ، ويؤلفون جمعيات لليوجنية أى إصلاح النسل ، كما كانوا يقرأون الأدب الروسى ونيتشه وإبسن . ولذلك أدركتنى الاشتراكية فى تلك الأيام عن طريق الأدب أكثر مما أدركتنى عن طريق السياسة . وكان « التطور » لايزال مذهباً أكثر مما كان نظرية علمية . ولذلك أنفق « العقليون » مجهوداً

كبيراً فى المقاومة السلبية للكتب المقدسة بدلا من أن ينيروا أو يشرحوا حقائق التطور .

وأذكر أنه فى تلك السنوات طغى الأدب الروسى على لندن . فلم يكن هناك حديث أو سمر إلا عن جوركى أو دستويفسكى وأمثالهما . وأذكر أنى حضرت محاضرة عن تولستوى فوجدت الحاضرين المستمعين كأنهم فى معبد خاشعين . وكانت المحاضرة أيضاً أشبه بعظة دينية . وكان هذا طبعاً من الانحرافات فى تفسير تولستوى ؛ لأن مقام تولستوى فى الفن كان أكبر جداً من تلك التطوحات الوعظية التى شطح فيها . وأذكر أن أحد الناشرين عرض قصة صغيرة لأحد الروس فسارت فى المكتبات كأنها حريق ، فلم يكن أحد يتكلم إلا عنها . وهذا يدل القارئ على المكانة العظمى التى احتلها أدباء الروس فى لندن فى تلك الفترة ، حتى أشار إليهم برنارد شو مرة بقوله « العمالقة » . ولما عدت إلى القاهرة شرعت ، بهذا التأثير ، أترجم « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى وطبعت منها على نفقتى جزءاً يبلغ نحو ١٢٠ صفحة . ولكنى أخفقت فى نشره حتى بعت هذا الجزء بسعر مليم واحد للنسخة . وثبطنى هذا عن المضى فى الترجمة لسائر القصة . ولكنى دأبت فى الحديث والكتابة عن الأدباء الروس ، حتى صار كثير من القراء الذين كانوا يجهلونهم على وجدان بهم .

وفى تلك السنوات عرفت إبسن ونيتشه و برنارد شو وولز . وأذكر أنى قضيت ليلة كاملة إلى الصباح وأنا أقرأ نيتشه وقد أخذنى سحر أسلوبه وجراءة تفكيره . ونيتشه لا يخطو ولا يعدو ، ولكنه يقتحم

ويتب . ولكنى عندما أرجع أيضاً إلى الاستبطان الذهنى أجد أنى لم أتأثر كثيراً به أو أن أثره كان مقصوراً على سنوات ، على الرغم من الحماسة التى كنت أتلقى بها مؤلفاته وأحفظ بها عباراته . فأنا الآن خلو أو كالخلو من المركبات الذهنية التى أستطيع أن أعزوها إلى نيتشه ولكنه غرس فىّ الأقدام الفلسفى وحطم عندى ما كان باقياً من قيود غيبية . أما مؤلفات داروين مثلا فكنت أقرؤها فى عناء التفكير حتى كنت أترك الكتاب أياماً أو أسابيع ثم أعود إليه يحفزنى إحساس الواجب لا الرغبة ؛ فلم يكن له فى صدرى حماسة . ومع ذلك هو الباقى الآن فى كيانى الثقافى . وكتابى « نظرية التطور وأصل الانسان » هو إحدى ثمرات داروين ..ولا تزال هذه النظرية تفتق فى خلاياى الذهنية ، وتحملنى على توسع وتعمق فى التفكير البيولوجى والسيكلوجى والاجتماعى .

وهنريك إبسن يعد الآن من الكتاب القدامى ، ولكنه كان جديداً فى تلك الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ . وكان وقعه فى نفسى كبيراً ، أكبر مما كان فى نفوس قرائه الأوربيين . وذلك لأنه كان يجدد فى مجتمع كنت أعده أنا جديداً بالمقارنة إلى مجتمعنا المصرى الجامد؛ إذ كنت أدمن التفكير فى حال المرأة المصرية والمرأة الأوربية ، وكنت كثير الاعجاب بحرية الثانية فى باريس ولندن وأنها تملك جزءاً كبيراً من مصيرها وتقرره . ولكن درامة إبسن « بيت اللعبة » أو « بيت عروس » كشفت لى حقائق ، وبسطت لى آفاقاً جديدة ؛ لأن ما كنت أتوهمه عن حرية المرأة أو استقلالها فى أوربا إنما هو فى نظر إبسن لم يكن سوى

طلاء سطحى يخفى حقيقة الاستعباد القائمة ؛ لأن المرأة لا تجد من المجتمع سوى التدليل لأنها لعبة الرجل أو هى كالعروس من الخشب يلعب بها الأطفال ، أطفال الرجال الذين لا يطيقون المساواة الحقيقية بينهم وبين النساء . ومغزى الدرامة أن المرأة يجب أن ترتفع من الأنثوية إلى الانسانية ؛ ويجب أن ترفض التدليل وأن تربى نفسها وتكسب الاختبارات فى هذه الدنيا ؛ لأنها إنسان قبل أن تكون زوجة أو أماً .

وعندئذ انجابت عن ذهنى غشاوة ؛ واتضح لى أن المرأة الأوربية كالمرأة الشرقية سواء ، وأن ما بينهما من فرق إنما هو طلاء الحضارة فقط . أو هو فقط فرق الدرجة فى الاستعباد . وهو استعباد بعيد أحياناً عن أية رحمة أو رأفة ؛ لأن المرأة التى تعمل كالرجل لا تحصل على أجره . وفى أقطار أوربية كثيرة كانت لا تحصل على ميراثه . وكانت الجامعات ترفض قبولها طالبة ، كما كانت ترفض الدولة قبولها ناخبة أو مرشحة لعضوية المجالس البرلمانية .

وليس لهذه الدرامة قيمة فى أوربا الآن ؛ لأن الحال تغيرت فى ١٩٤٦ عما كانت عليه فى ١٩١٠ ، بل تغيرت كثيراً جداً . وكثير من هذا التغيير يعزى إلى هذه الدرامة التى أهابت بالمرأة أن تكون إنساناً له شخصيته وسكانته فى هذه الدنيا قبل أن تكون أنثى أو زوجة لها مكانتها فى البيت .

وكنت فى تلك السنوات لا أعرف عن المسرح إلا ما كان يخرجه لنا سلامة حجازى من التمثيل الميلودرامى والأغانى الغرامية . فكانت الدرامة عندى لهواً فنياً لا أكثر . ولكن إبسن جعل الدرامة اجتماعية

بل أحياناً فلسفية . وقرأته فى انتباه وقلق وتفكير كثير . وأصبحت أصد ، فى اشمئزاز ذهنى ، عن المرأة المؤنثة المغناج ، وأحترم المرأة العاملة الكاسبة التى تصر على أن تحيا وأن تعرف وتختبر . وعندى أن إبسن كان محورياً فى ثقافتى ؛ لأن دراماته بعثتنى على دراسات أخرى متصلة بالموضوعات التى عالجها هو فى أسلوبه الدرامى .

وإذا كانت أوربا قد أهملت إبسن الآن فذلك لأنها تعلمته وعملت بجميع مبادئه . ويعد برنارد شو إحدى ثمرات إبسن . فان جميع دراماته اجتماعية وفلسفية . ولكنه يختلف عن معلمه من حيث عجزه عن الكمال الفنى الذى استطاع إبسن أن يرتفع إليه .

وقد تأثرت كثيراً ببرنارد شو . وعندما أسائل : لماذا لم أؤلف كتاباً عنه إلى الآن ؟ أعود بذاكرتى إلى محاولات فى هذا التأليف كان يصدنى عن المضى فيها أنى أعرف الكثير عن برنارد شو . فصعوبتى هى صعوبة خراش ، بل هى أكثر . وهى أنى زيادة على أنى سأضطر إلى الاختيار مع الاسهاب والتفصيل فانى أيضاً سوف أواجه من المبادئ والأفكار والفلسفات ما أحتاج إلى تفصيله مما لا يطيقه قارئ رجعى أو جامد لم تتفتح مسام ذهنه للتفكير العصرى بل المستقبلى . فان برنارد شو يفكر للمستقبل . وهو علمى الذهن يفكر فى آفاق فلسفية بلغة أدبية . وقد أمضيت من حياتى نحو أربعين سنة وأنا أتعلم على يدى هذا الحكيم الذى أعد حياته فى عصرنا نوراً وناراً لجميع الذين يعرفونه ولا أظن أنه فاتنى شئ مما كتب . وكتاباته هى إلى الآن هورمونات ذهنية توقظنى وتحركنى .

والكاتب ينفعنا إما بما يبسط لنا من معارف ، وإما بما يرسم لنا من خطط واتجاهات . وبرنارد شو من النوع الثانى ؛ لأنه يسدد العقول الزائغة نحو أهداف بشرية جديدة ، ويبعثنا على الاستطلاع العلمى للدنيا والانسان والمستقبل. والنزعة العلمية فى برنارد شو قوية جداً ، ولكنها ممزوجة بنزعة فنية أيضاً . ولذلك نشعر كأنه يحس بعقله ويفكر بقلبه . وهو أحياناً يسب ويهاتر ويهدد بالمعانى العلمية . ومشاجرته مع داروين بشأن « تنازع البقاء » هى مشاجرة فلسفية سيتوقف على الاجابة عليها ، وخاصة بعد اختراع القنبلة الذرية ، مصير الانسان . إذ ماذا يكون مصير ٩٩ فى المئة من البشر إذا ثبت أن الحق للقوة ، مهما يكن نوع هذه القوة ؟ أو إذا كان معنى تنازع البقاء هو بقاء الأصلح كما نراه فى عصرنا ؟

لقد رد برنارد شو على داروين بأن ذكره بأن المسيح لم يكن صالحا للبقاء . . . فى النظام البيولوجى الذى وضعه داروين للتطور .

وبرنارد شو مجاهد . وأدبه هو الأدب الجهادى ، أو كما يسميه هو الأدب الصحفى ؛ لأنه يبحث الهموم والاهتمامات العصرية بالذهن العلمى فى ضوء المستقبل . وقد أحدث لى مركبات أو عقداً أدبية وفنية ذهنية كثيرة فى حياتى الثقافية لا تزال إلى الآن مثار التفكير والتأمل .

وأحياناً حين أتأمل الكاتب العظيم أجد أنه عظيم من حيث إنه قادر على أن يترك لنا عقدة ذهنية ، فى المعنى الحسن ، تترتب عليها أفكار واهتمامات متصلة متشابكة نامية . فقد ترك إبسن فى ذهنى عقدة ذهنية هى « الشخصية الاستقلالية » التى هى الواجب الأول على

كل إنسان . وترك برنارد شو عندى طائفة من العقد ربما كان أهمها هو النظر البيولوجى للانسان ، وأن التطور المستقبلى للبشر يجب أن يكون له المقام الأول عند أية حكومة متمدنة . بل هو يقترح أن تكون لكل دولة وزارة خاصة بالتطور غايتها بحث الوسائل كى تتطور الأمة .

ولا عبرة بأن تكون له أخطاء وأوهام . إذ ماذا نبالى ، كما يقول نيتشه ، أن يكون فى رأس المفكر بعض الديدان ؟

ولم أر رؤيا واحدة فى برنارد شو ، بل رأيت ثلاثاً أو أربعاً . والرؤيا الأولى هى الاشتراكية الانسانية . وهى بالطبع لا تختلف عن اشتراكية ماركس العلمية . ولكن برنارد شو ، لأنه أديب وفيلسوف وفنان ، جعل المذهب الاشتراكى مذهباً إنسانياً ، ودمغ بالخزى كل من يجهل الاشتراكية أو لا يسعى لها . وهو الذى استطاع أن ينشر هذا المذهب بين الأثرياء ؛ لأنه أثبت لهم أن أموالهم لا تساوى همومهم وما يتعرضون له من قلق ، وأن الاشتراكية إنما جاءت لتغنى وتزيد لا لتفقر وتنقص .

والرؤيا الثانية هى ديانة برنارد شو ، فان مشاجرته مع داروين ينتهى مغزاها إلى أنها مشاجرة دينية . إذ كيف يمكن أن نسكن إلى كون يكون محوره ومغزاه تنازع البقاء وبقاء الأصلح ؟ وقد قلت إن من الموانع التى حالت دون تأليفى عن برنارد شو أن أخشى الأذهان الجامدة التى لم تتسع مسامها الذهنية للآراء الجديدة . وهنا أيضاً أقول إنى عاجز عن بعض الاسهاب أو التفصيل لديانة برنارد شو . وقصاراى أن أقول إنها ديانتى وإن عمودها الفقرى هو التطور الذى يعد فيها أسلوباً وهدفاً .

أما الرؤيا الثالثة فهى الايمان بالعلم بل السلوك العلمى ولكن مع الدين ، وعلم بلا دين هو القنبلة الذرية وبقاء الأصلح كما يفهم هذا الأصلح أو يتخيله تجار منشستر ونيويورك . ولكن العلم مع الدين هو السعادة البشرية والتطور إلى السبرمان .

و برنارد شو مثل جيته قد جعل من حياته كتاباً آخر ، بل ربما كان هذا الكتاب أحسن مؤلفاته . فان الناس يقرأون حياته ويستوحون منها القدوة والصلاح . فهو الآن فى التسعين ، وقد عاش منها ستين سنة وهو نباتى . وهو يسير كل يوم ساعياً على قدميه نحو سبعة كيلومترات ويقرأ ويكتب كما لو كان فى الثلاثين أو العشرين . وهو يخفف من ألم الحقائق بالفكاهة ، تلك الفكاهة الجدية النارية التى تخرج منه كأنها تشنجات الحكمة أو وخزات الفلسفة .

ومن عجب أن هذا الرجل ، الذى نسترشد بآرائه وتستنير برؤاه أحسن الطبقات المثقفة فى العالم ، هذا الرجل لم يتعلم قط فى مدرسة أو جامعة . وقصارى ما حصل عليه تعليم أبتر فى السنتين الأولى والثانية من المدرسة الابتدائية . ولكن إذا عد هذا تقصيراً أو قصوراً فى النظام التعليمى و برامجه ، فانه يجب علينا أن نعد ارتقاء برنارد شو إلى القمة فى الثقافة العصرية برهاناً على أن الثقافة السامية قد أصبحت مشاعة بين الجمهور ، بحيث إذا توافر الذكاء والعناية استطاع أى فرد منه أن يصل ، من الكتب المطبوعة ، إلى أرقى ما يستطيع المتعلم فى الجامعة بل أكثر . وهذا مالا يمكن أن يقال فى قطر مثل مصر . و إنما يقال مع التأكيد عن فرنسا أو بريطانيا أو الولايات المتحدة ؛ لأن

الثقافة شائعة تفشو فى كل مكان بكل طرزها الابتدائى والمتوسط والعالى . ولذلك سرعان ما يتعلم الأمى أو من هو فى مقامه ويتسلق إلى القمم .

وهناك شخصية فذة أخرى كانت محورية توجيهية فى حياتى هى شخصية هـ. ج. ولز. وظنى أنه الآن (١٩٤٦) فى مرض من الموت. وكل من شو وولز يبحثان العالم وكأنهما يشرفان عليه كما يشرف العمدة فى ألفة ومعرفة على قريته . ولكن بينهما مع ذلك فرقا ؛ فان شو يتجاوز الأعماق والآفاق إلى ما وراءها . وولز يتعمق ولكنه لا ينظر إلى ما وراء الآفاق . يعيش على الأرض فى حين يعيش شو فى السماء ، حتى لنحس ونحن نقرأ ولز أننا نختنق بهواء المدينة ولو أننا نتحدث إلى رجل يعرف كل ما فيها ، ولكننا نحس حين نقرأ شو أننا نتنسم أوزون البحر المعقم . وكلاهما طائر ، ولكن ولز يدرج وقلما يحلق . أما شو فدأبه الطيران والتحليق .

والمغزى فى شو أن الانسان سيتغير ، جسما ونفساً ؛ لأن التطور يقضى بذلك . ورسالته هى أن يبعث وجدان التطور فى قرائه .

ولكن المغزى فى ولز أن المجتمع سيتغير ، فى نظمه وأخلاقه ؛ لأن الآلات قد أحدثت قوات اقتصادية جديدة سوف تضطر أمم العالم إلى أن تكون أمة واحدة . ورسالته هى أن يبعث فى قرائه وجداناً هو أن هذا العالم قريتنا الكبرى .

وولز هو بلا شك الأب الروحى للعالم الجديد ؛ فانه يدعو إلى لغة واحدة وثقافة واحدة . بل لقد ألف فى شرح الطرق التى يجب

أن تتخذ لايجاد موسوعة عالمية يتحد فيها أبناء هذا الكوكب فى أراء واتجاهات نحو الخير والحضارة . وله ثلاثة مؤلفات تدل على اتجاهه العالمى . أولها « خلاصة التاريخ » وقد ألفه عقب الحرب الكبرى الأولى حين كانت عبارة « الحرب لأنهاء الحرب » تجرى على الألسنة وتوحى الخيالات الزاهية بشأن اتحاد العالم . وهذا الكتاب هو محاولة نيرة خيرة غايتها أن نفهم أن الحضارة القائمة هى مجهود البشر جميعهم . وأن هذه الأمم الكثيرة المختلفة إنما هى أمة واحدة ، أو يجب أن تكون كذلك . وكتابه الثانى : « علم الحياة » هو دعوة إلى النظر العلمى لهذه الدنيا وسكانها من الأحياء . وهى دعوة دينية علمية . وكتابه الثالث : « أعمال البشر وثروتهم وسعادتهم » هو بحث فى حاضر البشر وطاقتهم لحضارة قادمة .

وقد كان أثر ولز عندى نفسياً أكثر مما كان ذهنياً . أى إنه أكسبنى مزاجاً عالمياً يكاد يكون مساوياً للحماسة الوطنية ، فان اهتمامى بالحركة الوطنية مثلا فى الهند يحرك عاطفتى ويثير انفعالى كالحركة الوطنية فى مصر . وكنوز أفريقيا من الحيوان تشغل ذهنى وتثير غضبى عند ما أقرأ عن عبث الصيادين فى الغابات ، كما تشغل ذهنى وتثير غضبى سياسة الانجليز فى زراعة السودان أو ضبط مياه النيل . بل كسبت من ولز مزاج التساؤل والاستطلاع والتوسع الثقافى فى العلم والأدب والفن .

وقد كان اهتدائى إلى شو وولز عن طريق الجمعية الفابية حوالى سنة ١٩٠٩ . ولكنى واليت اتصالى بهذين الكاتبين إلى وقتنا هذا .

وهما يدرسان السياسة العالمية على آفاقها العالية . ومفتاح دراستهما هو الاشتراكية والتطور .

وفى الفترة بين ١٩٠٧ و ١٩١١ كان إبسن وشو وولز عالقين بقلبى يرسمون لى معالم دراساتى فى المستقبل . ولكن كان هناك مؤلف آخر تسلط فترة قصيرة على ذهنى ، وكان تسلطه نارياً ثم عاد تحريرياً، أعنى به نيتشه . فقد التهمت مؤلفاته فى حماسة ولذة فعصفت بى . وكان ظنى وقتئذ أنه فتح لى أبواباً كانت مغلقة من قبل . ولكن الحقيقة أنى كنت مأخوذاً بسحره فى الأسلوب وجرأته فى التفكير ، وهما سحر وجرأة يستهويان الشباب . وهو يؤلف النثر وكأنه يقرض الشعر ، ويفكر وكأنه يقتحم . وانتفعت كثيراً بتحليله للأخلاق . ولكن هذا التحليل بالطبع فقد قيمته بعد أن عرفت التحليل الماركسى ، وإن كان كلاهما ينتهى إلى أن الأخلاق السائدة هى أخلاق السائدين . ولكن ماركس وصل إلى هذه النتيجة بالتحليل الاقتصادى للمجتمع على حين وصل إليها نيتشه بالتحليل التاريخى اللغوى . أما أخلاق الأقوياء التى دعا إليها نيتشه وجعل منها ديانة جديدة يجب أن يبشر بها الفيلسوف الجديد فقد استهوتنى سنوات ، بل انحزت إليها وآمنت بها ، فيما يشبه الحزبية الفلسفية ، بتأييد من نظرية التطور حين استسلمت لتنازع البقاء وبقاء الأصلح . ولكن رويداً رويداً تقهقر نيتشه من وجدانى وتغير عندى مغزى التطور بل تطورت عندى نظرية التطور ؛ فلم يعد نابليون هو السبرمان ، ولم يكن للامبراطوريات مغزى التفوق البيولوجى الذى كاد نيتشه يوهمنى أنه كذلك .

وعرفت بعد ذلك ماركس وجيته وفرويد . عرفتهم عن سبيل تلك المركبات أو العقد الذهنية التي أحدثها لي شو وولز وإبسن وداروين .

وفي تلك السنوات أيضاً كان في لندن مجلات أسبوعية أدبية كثيرة تختص بدراسة الأدب الانجليزي والأوربي . وكانت « ذي أثنيوم » ثم « ذي أكاديمي » أقوى هذه المجلات . وكانت الأولى راقية حاوية موضوعية . أما الثانية فكانت شخصية جدلية ، وكان يحررها اللورد ألفريد دوجلاس صديق أوسكار وايلد . وكان شاعراً أنيقاً ، ولكن تاريخه الماضي وعلاقته الحميمة بأوسكار وايلد كانا يجعلان الجمهور الانجليزي المحافظ يصد عنه ، وكانت مجلته تنزوي في استحياء في المكتبات يسأل عنها طالبها .

وربما نستغرب في مصر أنه ليس عند الانجليز الآن مجلة أسبوعية واحدة للأدب إذ استثنينا الملحق الأدبي للتيمس ومجلة جون أو لندن وهي تكتب للعامة . وقد يعد القارئ هذه الحال تأخراً للحركة الأدبية ، ولكني أعده تقدماً . ذلك أن الأدب انتقل من برجه العاجي ، أدب للأدباء ، إلى الميدان الاجتماعي بل السياسي والاقتصادي . ولذلك فان المجلات السياسية الانجليزية تعالج الأدب في عناية وخبرة تدلان على أنها تعرف قدره في التفكير والتوجيه . أو قل إن التطور السياسي في أوربا قد أصبح حافلا بالانقلابات والانفجارات ، وإنه جذب إليه جميع الأدباء ، ولذلك صار الأدب مذهبياً يتحزب ويتشيع لآراء معينة في السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد .

وغاية الثقافة بعد ذلك أن نزيد الحياة وجداناً بأن نجعل مشكلات العالم مشكلاتنا الشخصية كأن الحياة تنادينا إلى اليقظة والفهم والجد كلما استولى علينا النعاس والركود . والأدب هو إحدى الوسائل لزيادة هذا الوجدان . وعندى أن الرجل المثقف هو الذى يرتفع وجدانه الشخصى إلى الوجدان العالمى . ولا يكون هذا إلا بالانغماس فى المشكلات البشرية العالمية .

وهذا هو ما يجب أن يكون ؛ لأن الأدب للأدب هو الأدب فى الخواء . وقد يقال حسب الأدب أن يكون إنسانياً . ولكن كيف يكون كذلك إذا لم يشتبك فى المشكلات الانسانية الحاضرة : السياسة والاقتصاد والاجتماع ؟

ووجدت من هذه الحركات الأدبية فى تلك السنوات توجيهاً لى وتربية . وكثير من مؤلفاتى ، إن لم يكن جميعها ، اتجهت فيها هذه الوجهة الاجتماعية ، حتى صرت أوصف بأنى « كاتب اجتماعى » . وكأن هؤلاء الواصفين أرادوا أن يميزوا بينى وبين الأدباء الذين ما زالوا يفصلون بين الأدب وبين الاجتماع . ولكنى ، مع ذلك ، أجد فرقاً أساسياً آخر بينى وبين بعض الأدباء فى مصر ، هو أنى أمارس طرازاً من البلاغة يمارسون هم غيره . ذلك أن طرازى أوربى وطرازهم عربى . وقد حملنى هذا الفرق أن أؤلف كتابى « اللغة العربية والبلاغة العصرية » ؛ لأن بلاغتنا التقليدية لا تلابس حضارتنا العصرية ، وقد وجدت فيها عجزاً عن التعبير لشئون عصرنا ، فاخترت أسلوباً آخر للتعبير الذى يجمع بين الفن والاقتصاد ، كما يكون على وجدان بقيمة

التفكير ثم التعبير العلمي . فان معاجمنا العربية التي ورثناها عن الأدب العربي تقول مثلا إن الطب هو السحر . ولكنا في القرن العشرين نقول إن السحر هو الخرافة . وإن الطب قد صار علماً تجريبياً اجتماعياً بيولوجياً . ويجب ، لهذا السبب ، أن تلابس البلاغة العصرية عند الكاتب العصري ، هذا الطب الجديد فتكون هي أيضاً علماً تجريبياً اجتماعياً بيولوجياً . وبكلمة أخرى أقول : إن البلاغة ، كاللغة ، اجتماعية . أي إنها تخدم المجتمع وتلابسه . فاذا تغير المجتمع وجب أن تتغير البلاغة . ومجتمع القرن العشرين يحتاج إلى بلاغة القرن العشرين ، بلاغة العلم والاجتماع الجديدين لا بلاغة العباسيين ولا بلاغة الأمويين .

تربيتى العلمية

لما تركت مصر إلى فرنسا فى سنة ١٩٠٧ كان « التطور » من مركباتى الذهنية البارزة ، بل المركب الأول . حتى إنى حين هبطت باريس جمعت طائفة من الكتب التى تعالج هذا الموضوع ، ولكنى لم أستطع فهمها وقتئذ ؛ لأنى أسأت الاختيار فلم أقتن الكتب الابتدائية أو بالأحرى لم أجدها . فلما قصدت إلى لندن وجدت العشرات من هذه الكتب الابتدائية . وكانت جمعية « العقليين » تنشرها وتبيعها بأثمان التراب بسعر ٢٥ مليما لكل كتاب . فأكببت عليها فى دراسة مثابرة ، مع استخراج الخلاصات وكتابة التعليقات . وقرأت كتاب داروين « أصل الأنواع » . وليس فى هذا الكتاب شئ يشق على الفهم . ولكنه يحتاج إلى التأمل الكثير . وداروين بعيد كل البعد عن التعبير المسرحى ؛ إذ هو متواضع معتدل يكتب فى حذر كأنه يخشى أن يؤمن القارئ بكل ما يقول . وهو الضد لنيتشه فى الأسلوب . فان نيتشه نارى سماوى . أما داروين فأرضى طينى . وأسلوب نيتشه عاطفى ذاتى حتى حين يهتدى إلى الحقائق الموضوعية . أما داروين فيكتب عن وجدان وتعقل ؛ حتى لتحس أنه ينفض عن نفسه عاطفته وذاتيته كما ينفض أحدنا الغبار عن شخصه .

وليس شك أن حبى لداروين وتحيزى لنظرية التطور ، منذ نشأتى الثقافية ، قد تركا أثرهما فى أسلوبى الكتابى . فقد قيل إن الأسلوب يدل على الجانب الأخلاقى للمؤلف بل يكشف عنه . أى يدل على الاتجاه التفكيرى وإيثار بعض القيم على بعض . وأنا أوثر أسلوب داروين : أسلوب المنطق الصارم والحذر والاعتدال على أى أسلوب آخر يوصف بأنه « أدبى » . وكثيراً ما وصفنى الكتاب فى مصر بأنى لست « أديباً » ؛ لأنهم لا يجدون عندى تلك الزخارف والتزاويق المألوفة فى غيرى من الكتاب . ومع ذلك فانى لا أنكر سحر الأسلوب العاطفى . ولكنى إذا كنت ألتذ السحر أحياناً وأستمتع بما فيه من مهارة فانى أوثر عليه أسلوب التعقل والوجدان . وأذكر أنى حين قرأت « من الأعماق » تأليف أوسكار وايلد أعجبت بسحره . حتى إنى عندما بلغت الصفحة الأخيرة عدت فوراً إلى الصفحة الأولى أقرؤه ثانية كأنى أستعيد لحناً جميلا وأنغاماً رائعة . ولكنه لم يترك فى رأسى مركبات ذهنية كتلك التى تركها « أصل الأنواع » لداروين . فقد غيرنى داروين . أما أوسكار وايلد وجون روسكين وكارليل من الكتاب الذاتيين فقد نسيتهم ؛ لأنهم جميعاً بعيدون عن الحقائق الموضوعية . وحين أقرؤهم الآن أشعر أنهم يخطبون أو يصرخون أو يتفصحون . فأجد اللذة العابرة فى أسلوبهم ولكنى أحس أنهم ليسوا مفكرين أساسيين . والمفكر الأساسى عندى هو داروين الذى يتحدث فى اعتدال وحذر . وأسلوبه هو الأسلوب الرصين . وأقرب الناس إليه فى هذا الأسلوب هو برنارد شو. وقد سبق أن قلت إن أحسن ما نقيس به الكاتب أن نعرف

مقدار ما تركه لنا من المركبات الذهنية ؛ لأنه على قدر هذه المركبات يكون تفكيره محورياً أو بذرياً ، أى إننا لا نأخذ منه المعرفة الجامدة فقط ، بل نأخذ المعرفة النامية التى تنمو وتتشعع فى الخلايا الرمادية من المخ فتتركنا ونحن نفكر ونشتبك فى اشتباكات جديدة لا تفتأ تنبهنا إلى توسع وتعمق فايناع . ومنذ ١٩٠٨ حين قرأت « أصل الأنواع » وأنا فى هذا التوسع والتعمق . فقد درست البيولوجية والجيولوجية بل سيكلوجية فرويد بحافز من داروين . كما أن داروين كان السبيل إلى التعرف إلى هربرت سبنسر . وكان داروين يصفه بأنه « فيلسوف التطور » والحق أن سبنسر هو المسئول عن تعميم هذه النظرية ونقلها إلى المجتمع ، ولا عبرة بأنه ارتكب أخطاء كثيرة فى التفاصيل . فان الأخطاء أحياناً قد تكون منيرة مثل الاصابات ؛ لأنها تفتح كوة على ناحية لم تكن مفتوحة من قبل . فاذا كان الناظر إليها قد أخطأ الرؤية ، فان فضله لا يزال عظيما لأنه فتح الكوة . وهذا هو ما أراه فى كثير من المفكرين مثل فرويد وسبنسر بل داروين نفسه . فقد نبهنا فرويد فى خطئه عن « مركب أوديب » ، كما نبهنا سبنسر فى خطئه عن وراثة الصفات المكتسبة ، وكذلك نبهنا داروين فى خطئه عن تنازع البقاء . وكل هذه الأخطاء كانت كوات جعلتنا نفكر ونبحث ؛ لأنها فتحت لنا آفاقاً جديدة . وقد انتقلنا بها من الميدان البيولوجى إلى ميادين الاجتماع والدين والاقتصاد .

ومن الكتاب البذريين الأساسيين الذين تأثرت بهم ، وما زالت المركبات الذهنية التى خلفوها فى خلاياى المخية قائمة بل نامية ،

كارل ماركس . فقد وصلت إليه عن استغراض ضده من كتّاب « الانفرادية » الذين يقولون بالمباراة الاقتصادية مثل هربرت سبنسر، وخرجت منه على احترام له واحتقار لهربرت سبنسر وأمثاله . ولكن هذا الاحتقار فى هذه النقطة المعينة ، لم ينقص من إكبارى للقوة التفكيرية عند سبنسر . والحق أنها قوة عظيمة جداً . فان نظرته شاملة وهو فيلسوف أكثر مما هو عالم. ولكنه فيلسوف بعيد عن الغيبيات . وقد احترف هذا الرجل التفكير احترافاً . حتى ليسأم الانسان حين يقرؤه ويكاد يسائل : لماذا هذا الجد ؟ لماذا يلهث ويعرق ؟ ألا يفكر فى إجازة يستريح فيها ؟

والحق أنه لم يفكر فى إجازة . وقد أصيب لهذا السبب بانهيار عقلى تألم منه نحو سنتين ، وحتى بعد ذلك كان أحياناً يطلب من ضيوفه ألا يتكلموا بل أن يبقوا فى ضيافته أو رفقته صامتين . . .

وفى هذه السنين كدنا ننسى هربرت سبنسر . ولكن كارل ماركس يزداد بمرور السنين قوة بل حياة . فان نظرياته تحيا فى كل مكان فى العالم ، والأزمة العالمية الحاضرة هى أزمة الصراع المنتظر ، أو الوفاق المحتمل ، بين الماركسيين دعاة الانتاج التعاونى وبين الديمقراطيين دعاة المباراة الاقتصادية . ولذلك لا يمكن أحداً أن يصف نفسه بأنه مثقف إذا كان يجهل الماركسية ولو كان يكرهها . لأن الأزمة العالمية هى فى صميمها أزمة ماركسية .

وقيمة الماركسية فى فهم السياسة العالمية والتطورات الاجتماعية والأخلاقية الحاضرة كبيرة جداً . ولكن لها قيمة أخرى فى فهم

التطورات التاريخية . والمتعمق فى دراسة ماركس لا يتمالك من الشعور بأنه هو ، لا فرويد ، الأساس الصحيح للفهم السيكلوجى. فان ماركس أثبت أن العواطف الاجتماعية ، أى التى نكتسبها من المجتمع ، أكبر قيمة وأبعث على التغير والتطور وأثبت فى كياننا مما نسميه العواطف الطبيعية . ولذلك لا يقتصر فضل ماركس على أنه جعل الاقتصاد علماً ، لأن الحقيقة أنه جعل كذلك الأخلاق والاجتماع والسيكلوجية علوماً . ولا يستطيع أحد أن يفهم هذه الثلاثة على حقيقتها الفهم الموضوعى إلا إذا كان ماركسياً .

داروين وماركس ، كلاهما قد غرس فى رأسى مركبات ذهنية ، وجعلنى أنظر إلى الدنيا وإلى الأحياء فى استغراض علمى وتحليل اقتصادى وسيكلوجى . وعندما أستبطن إحساسى الدينى أجد أن بؤرة هذا الاحساس هو « التطور ». وهذا الاحساس الدينى هو فهم وممارسة. فانى أفهم أننا وجميع الأحياء أسرة واحدة بما فى ذلك النبات ، وأن الخلية الأولى التى نبض بها طين السواحل قبل نحو ألف مليون سنة هى عنصرنا الأول . وأننا ما زلنا ننبض ونتغير فى تجارب لا تنقطع . وأن سنتنا هى لذلك سنة التغير ، وجريمتنا هى لذلك جريمة الجمود . ونحن حين نجمد إنما نكفر بسنة الكون مادة وحياة . ولكن إلى جنب هذا الفهم الدينى يجب أن « نمارس » ممارسة دينية باحترام الحياة أيا كانت والتعرف إلى أشكالها وحمايتها من الأميين المستهترين بالطبيعة . هذه الطبيعة التى تكتسب فى ذهنى قداسة كلما فكرت فى غابات أفريقيا أو الهند وما تحوى من تحف الحياة ، أو كلما فكرت

فى غياهب المحيط الهادى أو الأطلنطى أو المحيطين القطبيين وما بهما من أحياء يحاول التجاريون ، فى غير شرف ، أن يبيدوها بالالحاح عليها فى الصيد .

وكذلك لا أقرأ الجريدة اليومية ولا أسمع عن خبر سياسى أو مشروع لقانون جديد إلا وأنظر إليه بالاستغراض الماركسى من حيث دلالته على النوازع المختفية التى دفعت إليه ، فى حين أن الذى يجهل الماركسية يتطوح ويتخبط فى تقديرات « شخصية » للممثلين السياسيين أو الحربيين . مع أن هؤلاء ليسوا سوى أدوات تأخذ مكانها فى دورة الآلة الكبرى ، فى حركة المجتمع الاقتصادى . ولذلك أيضاً أصبحت فكرة « البطل » فى التاريخ من الفكرات التى كانت تتقهقر فى وجدانى كلما تقدمت فى التحليل الاقتصادى . ولكن يجب أن أعترف أنها مع تقهقرها لم تنمح ، وأنه لا يزال للشخصية قيمتها فى تفكيرى .

وفرق عظيم ، بل عظيم جداً ، بين شخص قد قرأ ماركس ودرس التفسير الاقتصادى للتاريخ ، وبين آخر يجهله . لأن الأول الذى امتاز وجدانه بالحاسة التاريخية التى اكتسبها من ماركس يجد فى أخبار الجريدة اليومية من المعنى والمغزى مالا يجده الثانى الذى يحسب أن الحوادث التافهة والخطيرة ، والاتجاهات السياسية ، والتطور والثورة والحرب والسلام ، كلها أشياء تجرى جزافاً .

ويأتى فرويد ، بعد داروين وماركس ، فى إيجاد المركبات الذهنية التى عملت فى توسعى وتعمق . وعندى أن « مركب أوديب » الذى يعد محور السيكلوجية الفرويدية هو خطأ . ولكنه خطأ منير ، لأنه

نبهنا ، كأنه دسيسة علمية تحركنا إلى البحث والتنقيب فى كهوف النفس المظلمة ، إلى قيمة السنين الأولى أيام الطفولة فى تكوين الشخصية . وقد وصفت أفكار فرويد بحق بأنها « سيكلوجية الأعماق » ، وهى كذلك وإن كنا نختلف كثيراً عما نجد فى هذه الأعماق . ولولا فرويد لما كان هذا الجيش الذى يتألف من آلاف العلميين الذين يبحثون النفس البشرية فى جميع الأقطار المتمدنة . وقد جمعت بين فرويد وماركس وخرجت منهما بأزكى الثمرات ، بل فطنت إلى أن ماركس هو السيكلوجى الأساسى ؛ لأنه يجعل وجدان الفرد ثمرة المجتمع .

وعبارة « التحليل النفسى » من العبارات التى تعزى إلى فرويد وهى « اللافتة » لجميع أنواع العلاج السكلوجى ، وليس ثمة شك فى قيمة التحليل . ولكنى أحس أن « التأليف النفسى » أهم وأنفع من التحليل وإنه إلى الآن مهمل لأن السيكلوجيين مقيدون بفرويد .

وفى حياتنا العصرية لا يستطيع أحد أن يهمل التفكير العلمى ؛ لأن الحضارة الصناعية السائدة هى حضارة العلم . وقد دأبت فى دراسة العلوم التى تدور حول التطور أو الاقتصاد أو السيكلوجية أكثر من ثلاثين أو أربعين سنة ، ولذلك أستطيع أن أتناول كتاباً عن الهورمونات ، أى مفرزات الغدد الصماء ، أو كتاباً عن الايكولوجية ، أى علاقة الحى بالبيئة ، أو كتاباً عن مشكلات الوراثة ، أو كتاباً عن جنون الشيزوفرينا ، فاقرؤها جميعاً فى رغبة وفهم ولا أجد ذلك الصدود الذى يجده غيرى ممن لم يعنوا بالعلوم .

وكل هذه العلوم هى دراستى المستقلة ؛ لأن ما حضرته من محاضرات فى لندن لا يؤبه به . ومما آسف عليه أحياناً أنى لم أجد المرشد حوالى ١٩٠٧ الذى كان يستطيع أن يعين لى منهجاً دراسياً فى العلوم . ولكنى ، بعد التفكير ، أسائل : هل كان يكون أفضل لى لو أنى كنت قد انغمست فى دراسة علمية تجريبية معينة ؟ ألم تكن مثل هذه الدراسة مانعة بطبيعتها الاخصائية من ألوان أخرى من الثقافة الموسوعية التى أتمتع بها الآن ؟ إنى لا أكاد أعرف إخصائياً فى علم ما ، نجح فى أن يكون موسوعياً ينطلق فى سهولة ويسر إلى رياض الفلسفة والأدب والاجتماع ؛ مع أن كل هذه الميادين ، فضلا عن العلوم ، قد ألفتها وجلت بل نقبت ، فيها وفكرت فى تناسقها ، وسرت فيها بروح المتعلم الذى يربى نفسه فى بعد عن الاغترار والزهو . فاذا اعتبرت القيم ، قيم الحياة لا قيم التخصص الثقافى ، فانى أجد أنى نجحت فى تربية نفسى أكثر مما لو كنت قد تخصصت . لأن المتخصص فى الجيولوجية أو البيولوجية أو الايكولوجية قلما يفكر فى دراسة أفلاطون أو قراءة الجاحظ أو دراسة الحضارة الفرعونية . ولكنى أنا بالاتجاه الموسوعى الذى اتجهته قد درست هذه العلوم ، فى غير تخصص ، ولكن مع الاستطلاع الدائم لغيرها من الثقافة . حتى أنى أقدر ، مثلا ، عدد المؤلفات التى قرأتها عن حضارة الفراعنة بما لا يقل عن أربعين أو خمسين كتاباً . ولم أترك كلمة مطبوعة للجاحظ لم أقرأها . وكذلك أستطيع أن أؤلف كتاباً عن جيته أو الاصلاح الزراعى فى مصر أو المسألة الهندية بأيسر عناء .

ولذلك يرى القارئ أنى درست ، لا للثقافة ، بل للحياة . وقد

حملتني دراستي العلمية على أن ألتفت كثيراً إلى المراحل البعيدة التي قطعتها العلوم المادية ، كالطب والهندسة والكيمياء والميكانيات والطبيعيات ، مع تأخر العلوم الاجتماعية ، التي حال دون التفكير الحر فيها وتغيير قواعدها ، تقاليد وشعائر وسنن وقوانين تعمل كلها لتجميد تطورنا الاجتماعي . فالاجتماع ، باعتباره علماً ، يعيش على مستوى التفكير في ١٦٠٠ أو ١٧٠٠ ميلادية ، بل هو في أقطار آسيا وأفريقيا يعيش على مستوى سنة ١٠٠٠ للميلاد ، في حين أن الكيمياء أو الطب يسبقانه بنحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ سنة . ولذلك نحن لا نعيش المعيشة العلمية في بيوتنا ولا يسود حكومتنا النظام العلمي . ولو أنه كانت هناك تقاليد وشعائر وسنن وقوانين للكيمياء مثلا ، كما للمجتمع ، لبقي هذا العلم على مستواه حين كان كل هم الكيماوي أن يحيل الرصاص إلى ذهب . كما أننا لو استطعنا التخلص من تقاليدنا ومن الاستغراضات التي تخدم بعض الهيئات والطبقات لكان في مقدورنا أن نرتفع بالاجتماع إلى مستوى العلوم التجريبية المادية .

ولهذا أيضاً نجد أن الطالب الذي يدرس الطب نقول له في صراحة إن الذباب ينقل عدوى الرمد أو الدوسنطاريا ، أو إن لحم البقر الذي أصيب بالدرن تنتقل عدواه إلى آكله من البشر ، ولكننا لا نقول لهؤلاء التلاميذ أو الطلبة إن الأجور المنخفضة التي يحصل عليها العمال في مصر تفشي بينهم الدرن والعمى والموت ؛ لأننا نخشى هنا الاستغراضات الامتيازية والاحتكارية والاقتصادية . ونخشى أن نصرح للفلاحين بأن كثيراً من الغيبيات التي يؤمنون بها خرافية .

ذات يوم فى ١٩١٨ كنت قاعداً فى الريف إلى قناة صغيرة فى ظل شجرة وإلى جنبى فلاح قد بلغ الثمانين . وكنت أتأمل يرقات الضفادع وهى تسبح . فسألت الشيخ عنها فاتضح لى أنه لايعرف أنها ضفادع صغيرة . ثم تشعب الحديث إلى النبات فقال : « إن لكل نبتة من هذه الأعشاب التى تنمو على شطوط القنوات ملكا يحرسها . » ولما نهضت أخذت أفكر فى هذه الرواسب الثقافية التى انحدرت إلينا عن الفراعنة والكلدانيين والبابليين ، وجعلتنا نعيش فى غيبيات تحملنا على النظر المخطئ لحقائق هذا العالم وتباعد بيننا وبين النظر العلمى الموضوعى . وقلت فى نفسى : هذا الرجل غيبىٌّ يؤمن بأن العالم حافل بالأرواح التى تحرس الناس والحيوان والنبات . إذن هو من خصوم داروين .

ولكن هذا الفلاح المسن يمثل فى سذاجته المركزة جهل الرجل العادى والمرأة العادية . وكلاهما يعيش بذهنه على رواسب قديمة من العقائد . حتى إن فكرة « القرينة » عند الفراعنة ، لا تزال حية فى أيامنا . أجل ! لقد ذكرت الآن ؛ فقد كنت طفلا لم أتجاوز السابعة أو السادسة ، وكنت قد غضبت وصرخت ورفست وأنا على العشاء . فقالت لى أمى تخيفنى : « دلوقت أختك تزعل منك وتضربك » .

وكانت تعنى بأختى هذه « قرينة » الفراعنة . وقصدت إلى الفراش ونمت بلا عشاء . وإذا بى أحلم أن فتاة قد حضرت وهى تحمل سوطاً ترفعه فى الهواء كى تتحفز لضربى ، فصرخت فى النوم . وأقبلت إلى أمى فى فزع فأيقظتنى وحضنتنى وجاءتنى بكوب من الماء شربت منه

جرعة . ثم أخبرتها عن الحلم ، فأخذت تقبلنى وهى تبكى : « حقك على يا ابنى . أنا كنت بضحك . مفيش أخت . مفيش أخت . »

ولكن مجتمعنا لا يزال فى أسر هذه القرينة أو ما يشابهها من العقائد التى تتخذ أحياناً أسلوب البحث العلمى . كما نرى مثلا فى أولئك الذين يزعمون أنهم يستجلبون الأرواح فتنقر على المائدة وتتحدث عن العالم الثانى . . . وهذه العقائد تعيش كأنها كابوس للمجتمع تعمل على تجميده وتخويفه حتى لا يتطور . ودعاة الروح هؤلاء لا يختلفون عن تلك الأم الساذجة التى تقول عند ما يعثر طفلها : « وقعت على أختك أحسن منك » تمدح الأخت وتسترضيها حتى لا تصيب طفلها بأذى . . .

وهذه القرينة أو هذه الأخت التى أفزعتنى فى نومى ، وهذه الملائكة التى تحرس النباتات عند ذلك الفلاح المسن ، هى ضباب العقل الذى كان يجب أن يقشعه العلم . وقد انقشع أو كاد فى أمريكا وأوربا . ولكنه لا يزال يخيم علينا ؛ لأن الثقافة العلمية لا تزال بعيدة عنا لم نتنفس هواءها الصافى .

وهذه الثقافة العلمية هى ما أفنا أرجو أن أجعلها أسلوبى فى الحياة الشخصية والاجتماعية . ولكنى لم أخطئ قط ذلك الخطأ المألوف بأن أجعل العلم غاية إذ هو وسيلة فقط . أما الغاية فيعينها الأدب والفن والفلسفة . أى إن غاية العلم هى الدين الذى نكسبه من الأدب والتاريخ والفن والفلسفة . أى كيف نعيش فى مجتمعنا أصلح العيش وأروحه وأقصده وأشرفه .

وقد وضعت كتابى « نظرية التطور وأصل الانسان » ولى مآرب

هو مكافحة الغيبيات الشائعة . ونشرته كله مقالات فى « البلاغ » قبل طبعه كتاباً ، كى أصل إلى أكبر عدد من القراء . ومن الذكريات السعيدة أنى وقفت ذات يوم إلى دكان صغير لا تزيد مساحته على ثلاثة أمتار أشترى لابنى بعض الحلوى ، فعرفنى البائع وأخبرنى أنه قرأ كتابى هذا وفهمه .

ولو أنى وجدت التشجيع لأرصدت حياتى لاخراج كتب شعبية مثل « نظرية التطور » و « العقل الباطن » ونحوهما . وكثيراً ما كنت أتحسر حين كنت أرى مؤلفات العقليين فى لندن . فان كتاب «أصل الأنواع » الذى زلزل به داروين الثقافة الأوربية يباع بأقل من خمسة وعشرين مليما .

وحوالى ١٩٣٠ وجدت أنا والأستاذ فؤاد صروف الفرصة سانحة لايجاد حركة علمية شعبية فى مصر . فعقدنا العزم على تأليف «المجمع المصرى للثقافة العلمية » . وكانت الغاية منه أن يضم جميع المهتمين بالثقافة العلمية ونشرها بين الجمهور . ونجحنا فى المشروع نجاحاً لم نكن ننتظره ، مما دل على أن المجمع أدى حاجة عضوية فسيولوجية فى مجتمعنا . وعقدنا الاجتماع السنوى الأول له وألقيت فيه محاضرة سيكلوجية عن طبيعة التفكير فى ضوء الأحلام فى قاعة الجمعية الجغرافية . ولكنى فى ذلك الوقت كنت أمارس نشاطاً سياسياً مركزاً فى مكافحة إسماعيل صدقى باشا حين ألغى الدستور واستبدل به غيره ، واتفق مع المستعمرين والمستبدين على إعادة الحكم التركى الشركسى الذى حاول عرابى أن يحطمه . وأدى نشاطى هذا فى السياسة إلى طردى من المجمع .

وكان من حظنا السيء أننا اخترنا معظم الأعضاء من الموظفين. ولذلك حين اختير حسين سرى (باشا) رئيساً لاجتماعه الثانى أرسل إلى خطاباً يفصلنى من المجمع «مع الشكر» . وكان وقتئذ وكيلا لاحدى الوزارات ، فوافق جميع الأعضاء «الموظفين» ولم يشذ غير واحد ، غير موظف ، هو الأستاذ إسماعيل مظهر . وجاء فى عقب طردى الصديق زكى أبو شادى يعتذر إلى بأنه لم يجرؤ على مخالفة «وكيل وزارة» ، ولذلك أعطى صوته ضدى ووافق على طردى ، على أنه يعرف أنه ليس من حق المجمع أن يفصلنى لنشاطى السياسى. واتجه المجمع بعد ذلك وجهة إخصائية غير شعبية ، ولذلك لم ينتفع به الجمهور كثيراً .

وعندما أقارن بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية أجد أن القيمة العظمى للأولى أنها تحريرية ؛ لأن التفكير العلمى يسير على نهج ارتقائى : هذا شيء فيجب أن نبحث عن الحسن ، وهذا أحسن ولكن يجب أن ننشد أحسن منه بالاكتشاف والاختراع ، والتفكير الارتقائى هو بطبيعته تفكير علمى . وهو لم ينشأ فى أوربا إلا بعد أن اتجه الأوربيون وجهة علمية فى القرن السابع عشر . أما قبل ذلك فلم يكن هناك من يقول بأن الشعوب يجب أن ترتقى وتتغير . وقد يرد هنا على بأنه كان هناك طوبويون يتخيلون حالا سعيدة للبشر غير حالهم الحاضرة . ولكن الفكرة الارتقائية لم تنبت قط فى هذه التربة الطوبوية . وإنما نبتت من البذور العلمية .

والثقافة الأدبية ، إذا لم تجد الحافز من العلوم ، تركد . وقد

كان هذا شأنها فى العصور الوسطى : وسط زراعى راكد يعيش فى ثقافة أدبية راكدة محافظة . أما الآن فالعالم المتمدن يعيش فى وسط صناعى متحرك ، يعيش فى ثقافة علمية متحركة متغيرة .

ومن هنا قيمة التوجيه العلمى فى الثقافة العربية الحاضرة . بل يجب أن يرتفع هذا التوجيه إلى مقام الدعاية .

ذكريات الحرب الكبرى الأولى

كانت الحرب الكبرى فى ١٩١٤ متوقعة ، وكان أساسها المباراة العظيمة بين الانجليز والألمان . فانهما كانا على تقدم صناعى عظيم يحتاج إلى المستعمرات والمواد الخامة والأسواق . وكان الانجليزحاصلين على كل هذا ، ولم يكن الألمان حاصلين على شئ يؤبه به . فكانت الصناعات الانجليزية تمتاز بالمواد الخامة الرخيصة التى تحصل عليها من الهند وجاوة ومصر وغيرها ، فتستطيع بيع مصنوعاتها بأثمان منخفضة . ثم فى الوقت نفسه كانت تجد التفضيل فى الأسواق فى هذه الأقطار وغيرها . وإذا لم يكن هذا التفضيل بالامتياز الجمركى الصريح ، الذى يجعل مصنوعاتها تدخل هذه الأقطار بسهولة ، فانه يكون بألاعيب أخرى تؤدى إلى التفضيل ، ويقوم بها موظفو المستعمرات لخدمة طبقة الصناعيين والتجاريين فى بريطانيا .

ولم يطق الألمان هذه الحال ، أى أن يثرى الانجليز بأوضاع اقتصادية عالمية غير عادلة ، ويبقوا هم فى تخلف اقتصادى . وشئ من هذه الحال كان أيضاً بارزاً فى مقدمات الحرب الكبرى الثانية التى دعت اليابان فيها إلى « الرخاء المشترك » .

وكانت الشرارة الأولى للحرب قتل أحد الأمراء من أسرة

الامبراطور فرانز جوزيف ، وكان إمبراطوراً هرماً على إمبراطورية هرمة ركيكة . ولم تمض إلا أيام حتى كان العالم كله مشتعلا ، وأخذ الجمهور فى مصر على دهشة .

وكنت أصدر مجلة « المستقبل » فى القاهرة . فدعيت إلى تعطيلها فى إدارة المطبوعات . ثم شرع الانجليز فى اعتقال من يتوجسون فى اتجاهاته . ولبثت بعض الشهور وأنا أعمل مع مى فى جريدتها ، أى جريدة والدها « المحروسة » . ولكنى سئمت الرقابة التى لم تكن تسمح بنشر خبر صحيح إلا بعد أن تزيفه حتى تخرج الهزيمة التى كانت تقع بالحلفاء كأنها انتصار رائع لهم .

ورحلت إلى الريف ، ورأيت كيف كان يسلط الانجليز علينا الموظفين المصريين من مأمورين ومديرين وحكمدارين وشرطة لخطف محصولاتنا . وكانت الجمال والحمير بل الرجال يخطفون أيضاً كما لو كانوا فى قرية زنجية على خط الاستواء قد كبسها النخاسون لخطف سكانها وبيعهم فى سوق الرقيق . وكان المنظر يهين النفس كما يفتت القلب . فكان الرجل يربط بالحبل الغليظ من وسطه ، وخلفه أمثاله ، ويسيرون على هذه الحال صفاً إلى أن يبلغوا « المركز » فيحبسون فى غرفة المتهمين ثم يرحّلون إلى فلسطين . وكنت أنجح أحياناً بالرشوة فى استخلاص بعض هؤلاء المساكين . وذات مرة وأنا بالمنزل سمعت صراخاً ودخلت على نسوة فى فزع ونحيب . وعرفت أن ثلاثة ممن يزرعون أرضنا ألقى القبض عليهم وهم يحرثون فى الحقل . فخرجت ووجدتهم مربوطين بالحبال الغليظة بحراسة أحد الشرطة . أما سائر

الشرطة فقد تركوهم كى يغزوا قرية أخرى . واستطعت بمساومات مع الشرطة أن أحصل على الافراج عنهم . ولكنى لم أكن أنجح كل مرة. ففى ذات يوم قصدت إلى المأمور فى الزقازيق أطلب منه إطلاق اثنين من الفلاحين . فتأملنى ثم قال : أنا عايز أرحّلك أنت لفلسطين . فتركته إذ لم تكن الظروف وقتئذ تأذن بالتحدى .

وفى تلك السنوات السود أثرى كثير من العمد ثراء فاحشاً ؛ فقد فرضوا ضرائب على جميع الشباب من سن العشرين إلى الخمسين كل على مقدار مايملك . فهذا يؤدى خمسة جنيهات ، وذاك عشرة جنيهات ، حتى يعفيهم من الاعتقال وبعثهم إلى فلسطين . وعرفت عمدة كان يملك ستة أفدنة فقط جمع نحو خمسة آلاف جنيه بهذه الطرق .وكان الفلاحون يجوعون كى يجمعوا هذه الغرامة ويؤدوها .

وقد استمتعت بعد ذلك بالشماتة عند ما رأيت هذا العمدة وقد قبض عليه الانجليز بعيداً عن قريته وأجبروه على النزول فى ترعة يبحث عن أحد قضبان الخط الحديدى لشركة الدلتا . فقد فوجئ وهو على حمار قاصداً إلى قرية مجاورة فأنزلوه وضربوه وأجبروه على العمل فى ترميم الخط الحديدى الذى كان الفلاحون قد نزعوه فى ١٩١٩ . وعرفت بعد ذلك أنه تورط فى معاكسات ومشاجرات بينه وبين الأهلين فضاع كل ما جمعه . فقد تعقبوه بالشكايات جملة سنوات وتمسكوا عليه بمخالفات خطيرة جعلته ينفق فى الرشوة وأجور المحامين كل ما كان قد جمعه من هؤلاء الفلاحين المساكين .

وكان معظم النقل فى الحرب الكبرى الأولى على الخيول

الاسترالية . وكانت ضخمة يعلف الحصان منها بضعف ما يعلف به حصان من خيولنا . ولذلك كان التبن والشعير يخطفان من الريف . وقد قام عمالنا المصريون ، وهم من الفلاحين ، بخدمة الحملة الانجليزية فى فلسطين . وكانوا يعدون بعشرات الألوف مات أكثرهم وعمى بعضهم . ومع ذلك عندما انتهت الحرب واشتعلت الثورة فى مصر فى سنة ١٩١٩ وقف السفير البريطانى فى واشنطون ينتقص من قيمة خدمتنا فى الحرب كى يحول دون العطف الأمريكى على قضية استقلالنا، فقال إن جميع من قتلوا فى الحرب من المصريين لا يزيدون على ثلاثة أشخاص . ثلاثة فقط .

وكثير من الفلاحين يتركون الأرض إلى المدن لما يلاقون من قسوة المالكين الذين يعصرونهم بالايجارات والمحاسبات . ولكن الريف لا يزال معموراً بل مزدحماً بالفلاحين على الرغم من جميع مايلقى هؤلاء فيه من مصاعب . وظنى أن بعض السبب لذلك أن فى الأرض فتنة تسحر الفلاح وتربطه بها مهما قل كسبه منها . فانه يستيقظ قبل الشروق ، ويخرج إلى حقله ترافقه بقرته وحماره وعنزته أو نعجته . وهو يحس برفقة هذه الحيوانات ويجد فى هذه الرفقة لذة تسمو على الاعتبارات المالية . وهو يتشم الأرض عقب حرثها حين تنفح التربة الهواء بروائحها التى توحى الرخاء والبركة . بل هو يبكر أحياناً كى يتحقق من النمو الجديد فى الذرة أو القمح . وفى الشتاء حين يكسو الندى البرسيم تبدو الدنيا فى بهاء لا يعدل الانسان به أى جمال آخر .

وقد وجدت هذه الفتنة فى السنوات التى قضيتها فى الريف مدة الحرب . وكنت كثيراً ما أتأمل الفلاحين وهم يكدون من الفجر إلى الغروب ، ثم يعودون مرحين يتغنون بالمواويل خلف البهائم إلى بيوتهم . وهذا الحب للأرض وللنبات وللحيوان يلصق الفلاح بالريف ويجعله يرضى بالمعيشة الضنينة من حيث الطعام واللباس والمسكن . بل هو يرضى بقسوة الايجارات والمحاسبات ، بل إن الفلاحة أيضاً تجد من الاهتمامات بتربية الدجاج والبط والحمام ما يجعلها مفتونة بهذه الطيور فتغنى لها كما لو كانت تؤدى هواية لذيذة . وكثيراً ما رأيت إحدى الفلاحات تخاطب البقرة التى عزفت لسبب ما عن الطعام بقولها : « يا حبيبتى ، يا أختى » ، ثم تمسحها بيديها كما لو كانت طفلا تدلله .

ثم يجب ألا ننسى القمر فى الريف ؛ فانه يسكب سحره على كل شئ ، وأبناء المدن الذين يرون القمر من خلال المبانى لا يعرفون فتنة هذا الكوكب فى الريف .

وغيرى يعد الريف منفى ، ولكنى أعتقد أن أحسن سنى حياتى هى تلك التى قضيتها فى الريف . فقد أتاح لى الدراسة الجدية كما أتاح لى الاستمتاع بالطبيعة . ولم يكن يمر على يوم دون أن أستيقظ فى الساعة الرابعة أو الخامسة من الصباح وأسير فى الحقول وهى مبللة بالندى فى هدوء الطبيعة الرخيم أنتظر بزوغ الشمس فأحييها وأتأملها كأنى فى صلاة . وهناك آلاف من الناس لم يعرفوا قط هذه الصلاة ولم يحسوا هذا الاحساس الدينى فى الاتصال بالطبيعة فى خلوة الحقول

التى تنمو كل نهار بحياة جديدة . والسائر فى الحقول فى هذه الساعات الأولى من النهار تغمره نشوة حقيقية حتى ليجد خفة فى نفسه لاتختلف من تلك التى يحدثها الكئول ، ولكن دون تخدير للوجدان .

والريف يوهم التجزؤ والانفصال . هذا نبات ، وهذا حيوان ، وهذا مسكن ، وهذا حقل ، بل هذا إنسان وهذا بهيم . ولكن المتأمل يجد الترابط والتكافل ، كأن كل هؤلاء وحدة حية .

وقد كان داروين يقول على سبيل الفكاهة إنه يستطيع أن يقدر عدد العوانس فى قرية (فى انجلترا) بملاحظة حقول البرسيم المحيطة . فاذا كان البرسيم مزدهراً ناجحاً فانه يدل على أن العوانس كثيرات فى القرية . ذلك لأنهن يربين القطط . والقطط تأكل الفئران . والفئران تأكل النحل . والنحل هو الذى ينقل إلى البرسيم لقاحه من زهرة إلى زهرة . . . فاذا قلت العوانس قلت القطط وزادت الفئران ، وقل النحل ثم قل ازدهار البرسيم .

ونحن نرى هنا بالطبع فكاهة . ولكن لها مغزاها ، وهو أن النبات والحيوان يعيشان فى تضامن سمبيوزى أى إن كلا منهما يخدم الآخر . فحياة هذا تتوقف على حياة ذاك . وقد كنت أبتهج بالتأمل فى الريف لهذه الروابط بين النبات والحيوان . وكثيراً ما كنت آسف وأنصح بشأن البومة . فان الفلاحين قد ورثوا عقائد غيبية عنها إذ يقتلونها لأنهم يتشاءمون منها ، مع أنها تأكل الفئران التى تقتات بذراهم وخبزهم . ثم إن تكاثر الفئران يؤدى إلى تكاثر الثعابين التى تقتات بها . بل

إن للذئاب والثعالب فى ريفنا قيمتها السمبيوزية فى حياتنا الريفية أيضاً لأنها تنظف القنوات من الرم .

وقد كنت ، وما زلت إلى الآن ، أجد لذة واهتماماً فى أن أتابع فراشة بل أجرى وراءها كالصبي حتى أمسكها وأتأملها وأبحث عن أعضائها ، ثم أطلقها . وسلوكى هذا كثيراً ما كان يبعث الابتسامات بين الفلاحين الذين يعتقدون أن مثل هذا العبث لا يتفق والوقار . ومازلت إلى الآن متعلقاً بالريف أخطف إليه الزيارات بل مازلت أحلم بأن أقضى السنة الأخيرة من عمرى فى الريف .

وريفنا الذى صنعته الطبيعة ، ريف الحقول والزهر والشجر والطير والفراش ، هذا الريف يتلألأ بالجمال ويبعث الحياة تنبض فى عروقنا حين نشرب من هوائه ونشم منه خضرة البرسيم أو الذرة التى تغمر نفوسنا . ولكن الريف الذى صنعه المجتمع المصرى ، ريف المساكن الكالحة المبنية من الطين المجفف ، ريف الايجارات والمحاسبات والحرمان للفلاحين ، هذا الريف لا يوحى إلينا الصلاة بل يوحى الغضب واللعنة وكراهة الحياة فى مصر . فان المالك يعامل أحياناً الفلاحين بروح تجارى لا يبالى هل هو يجوع أو يمرض بسبب الايجارات العالية التى يفرضها عليه .

وأذكر أن أحد الفلاحين فى عزبة غير بعيدة قدم إلىّ ذات صباح فى ١٩١٥ وعرض على أن ينتقل إلى عزبتنا ، فقبلت . وقبيل الغروب حضر هو وزوجته التى كانت تحمل ابنتها على صدرها ، وكان هو يحمل جرة بها « مخلل » . وكانت هذه الجرة كل مايملك من متاع فى الدنيا .

فقد حاسبه صاحب الأرض وأخرجه خالصاً لا عليه ولا له . وفاحت رائحة كريهة من الجرة . فكشف عنها أحد الحاضرين وصب منها على الأرض ، وما زال يصب حتى فرغت . وكان هذا «المخلل» الذى ذكره هذا المسكين لا يتجاوز هذا السائل الكريه يبلل به هو وزوجته خبز الذرة ثم يبلعانه . وكان الهزال واضحاً فى الثلاثة . وكان أوضح فى الطفلة التى كانت تتعلق بصدر أمها كأنها خرقة بالية معلقة فى ترهل . وقد ماتت هذه الطفلة بعد نحو أسبوعين .

وقص علىّ علىّ ، وهذا اسمه ، مأساته . فقد دخل تلك العزبة قبل ست سنوات ومعه بقرة وحمار ، وكان لزوجته صندوق ولحاف وحصير ومخدة . ولكن المالك كان « يحاسبه » كل عام ، فيخرج مديناً . وباع بقرته وحماره فى تسديد الدين . ثم باعت زوجته كل أمتعة البيت كى تشترى الذرة .

وذات مساء أقبلت على العزبة فوجدت عليا مبطوحاً على بطنه وهو يصرخ صرخات عالية . وفزعت عندما رأيته على هذه الحال . وظننت أنه قد تسمم أو أن وباء الكوليرا قد نقل إلى مصر مع بعض الجنود الهنود . ولكن المسكين سكت خجلا عند ما رآنى . وذهبت به فى اليوم التالى إلى الزقازيق لأحد الأطباء .فقال إنه مريض بالبلاجرا وهو مرض ينشأ من النقص الغذائى ، فذكرت الجرة التى جاء بها وصببنا منها المخلل على الأرض . . .

وتفاقمت حاله ، وظهرت عليه أمارات البلاهة . وتركته زوجته وتزوجت غيره . ثم حدث حريق فى بهنباى بعد ذلك بسنين ، وكان

هو فى أحد أزقتها . فخانه ذكاؤه الذى تقهقر من البلاجرا فعجز عن التخلص من النار ومات بالحريق .

وفى الريف المصرى الجميل ، آلاف من هذه المآسى التى تعود إلى الروح التجارى فى محاسبة الفلاحين وزيادة الايجارات حتى يموتوا فى بطء لقلة الطعام . وأغلب المسئولين عن هذه القسوة هم من المالكين الذين يعيشون فى المدن ويستغلون ، غيابياً ، أرضهم . فلا يستطيع وكلاؤهم التسامح ، ولا تقول الرحمة ، مع المأزومين ، والفقراء ، بل أحياناً يبرهن هؤلاء الوكلاء على إخلاصهم واجتهادهم للمالكين بزيادة الايجارات على هؤلاء المساكين .

وكنا نقرأ الأخبار كما يحب الانجليز أن نفهمها . ولذلك كانت الرقابة صارمة شاملة . فقد اشتركت فى بعض المجلات الأمريكية كى أصل عن طريقها إلى الأخبار الصحيحة . فكانت إما تمنع من الوصول إلى وإما تقص أوراقها التى تحمل أخباراً غير ملائمة للانجليز . ولكن حتى بين المحررين المصريين من كان يستطيع أن يروى الخبر بحيث يجوز ظاهره على الرقيب ويدرك قارئه ما بين سطوره ، مثل :

« جاء فى التلغراف أن هزيمة الألمان عند فردناش كانت فادحة ؛ إذ تقدموا بعد جهد كبير عشرة كيلومترات . ولكن ارتد عليهم الجنود الانجليز والفرنسيون فانتزعوا منهم طاحوناً . وقد أحدث هذا المنظر فرحاً عاماً فى قيادة الحلفاء . »

وكان الرقيب ينخدع بهذه اللهجة وينسى المعانى الواضحة .

وكان إعجاب الجمهور بألمانيا يفوق الوصف . وبعض هذا كان يعود بالطبع إلى الشماتة بالانجليز المحتلين لوطننا . وكنا نهجس أحياناً بأمل الاستقلال إذا انهزمت بريطانيا أو على الأقل لم تنتصر . وكان هذا الأمل قوياً فى بداية الحرب وبقى إلى أن دخلت أمريكا فى صف الحلفاء.

ولم تكن الطائرات عنصراً خطيراً فى الحرب الكبرى الأولى. ولم تزرنا فيها غير طائرتين : الأولى ألقت قنبلة بالقرب من البنك الأهلى . والثانية ألقت قنبلة فى حى الفجالة ، وكان التلف صغيراً . وأيضاً أرسلت ألمانيا بلوناً عبر جونا ، ذهاباً وإياباً ، من أوربا إلى المستعمرة الألمانية فى أفريقيا الشرقية . ولم يلق أية معارضة من الانجليز. وكان على ارتفاع بعيد حتى لم يسمع أحد بأزيز موطراته .

وقد كانت براعة الألمان فى القتال عظيمة ، ولكن إخفاقهم فى السياسة كان عظيما أيضاً ؛ إذ لم يستطيعوا أن يتوقوا إنضمام الأمريكيين إلى أعدائهم . ولذلك صحت كلمة لويد جورج رئيس الوزارة الانجليزية عند ما قال : « الألمان يكسبون المعارك الآن . ولكنا نحن سنكسب الحرب . »

وكان تشرشل بطل الحرب الكبرى الثانية بطلا أيضاً فى الحرب الكبرى الأولى . فقد كان يتهم الألمان بأنهم يصنعون الصابون من جثث القتلى أى يستخرجون الشحم من هذه الجثث ويصنعون منه الصابون . وقال أيضاً إن الألمان يبعثون جنودهم إلى المدن لتلقيح النسوة بلا زواج . . . وكانت هذه التهم بالطبع غير صحيحة . ومما قام به تشرشل فى تلك الحرب أنه زيف ملايين النقود الورقية وبعث

بها عن طريق سويسرا إلى ألمانيا حيث أفسد قيمة النقد الألمانى . وتشرشل أيضاً هو المسئول عن الحصار الذى ضربه الانجليز على ألمانيا أكثر من ستة أشهر بعد إعلان الهدنة. فلم يكن يدخل ألمانيا شئ من الأغذية التى يحتاج إليها السكان ، وكانوا قد بلغوا حالا بشعة من القحط . وقد عم الكساح أطفالهم لهذا الحصار.

وارتفعت الأسعار والأثمان إلى أربعة أضعاف بل خمسة أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب . ولكن الرخاء كان عاماً ، لأن الانجليز بعد أن كانوا قد حددوا أثمان القطن فى السنتين الأوليين من الحرب تركوها حتى وصلت إلى ٤٥٠٤٠ جنيهاً للقنطار . وكان أردب القمح يصل إلى ٧ أو ٨ جنيهات . وبقيت إيطاليا مدة طويلة وهى محايدة ، فكانت تموننا بكثير من المصنوعات . ولذلك لم يزد قط ثمن البذلة على ٨ أو ٩ جنيهات . وأحدثت أثمان القطن المرتفعة هوساً عاماً فى الريف حتى بلغ ثمن الفدان خمسمائة جنيه وإيجاره ٤٠ أو ٥٠ جنيهاً. وبدهى أنه فى مثل بلادنا حيث منع الانجليز تأسيس المصانع يجب أن ترتفع أثمان الأرض كلما زاد النقد المتداول ؛ إذ ليس هناك شئ آخر لاستغلال النقد الفائض . وأعرف اثنين شقيقين فى الريف كانا يتجران بالقطن فى ١٩١٩ . وقد عمهما الهوس بشأن الزيادة المستمرة فى أثمانه ، فصارا يجمعان منه ويكنزان حتى أصبحت ثروتهما كلها قطناً لا يملكان شيئاً غيره . وكان يعرض عليهما الثمن العالى فيرفضان إنتظاراً لارتفاع الثمن إلى خمسين أو مائة جنيه . وهما فى هذه الآمال والأحلام وإذا بالثمن يهوى إلى أقل من أربعة جنيهات . فجن

أحدهما ومات الآخر . وكثر الانتحار بين المضاربين على أثمان القطن فى بورصة الاسكندرية . وفى أثناء هذه الحمى كانت الثروات الضخمة تتكون فى أيام أو أسابيع ؛ فقد كان هناك تجار يشترون البيض أو الزبد أو يتجرون فى البهائم . فلما رأوا أن القطن يصعد إلى السماء أقبلوا عليه . فلم يكن يدور العام على أحدهم ، فيما بين ١٩١٨ ، و ١٩١٩ ، حتى كان يملك عشرين أو ثلاثين ألف جنيه مع أن كل ما كان يملك فى بداية تجارته لم يكن يزيد على مئتى جنيه . وكان بعض هؤلاء يتناسى قديمه ويزعم أنه أصيل عريق فى الثراء . وبعض آخر كان يتبجح بعصاميته وأنه جمع ثروته بذكائه ، أو كما كان يقول بذراعه . وكلاهما كان كاذباً ؛ لأن كل ما فى الأمر أن الحظ رفعهم كما خفض غيرهم .

وكانت الحرب تسير فى سلحفة بطيئة خالية من الاقتحامات ، حتى كاد الناس يعدونها شيئاً مألوفاً ليس هناك ما يدعو إلى أن يتغير . فقد حفرت الخنادق ، من الجانبين ، فى الاقليم الشمالى من فرنسا وجهزت بالأثاث والمصابيح الكهربائية ، ونظمت بينها المواصلات وحصنت بالأسمنت . وعم الجبهة الغربية ركود حتى صارت عبارة « كل شىء هادىء فى الميدان الغربى » من العبارات الرمزية نقولها عند ما لا نجد خبراً جديداً . وهنا الاختلاف بين الحرب الأولى والحرب الثانية فى ١٩٣٩ . فان الغارات الجوية التى وصلت إلى مدننا جعلت هذه الثانية متحركة نشيطة بالمقارنة إلى سكون الأولى فى الخنادق . وحاول الألمان أن يحركوا الجبهة الغربية بالهجوم الكبير على فردان .

ولكنهم لم ينجحوا إلا فى قتل عشرات الألوف من شباب الألمان والفرنسيين . والواقع أنه لم يكن فى أخبار الحرب الأولى ، بعد الهجوم البرق الألمانى الأول ، مما بقى أثره سوى ثلاثة أشياء هى دخول أمريكا فى الحرب ، ثم انفصال روسيا بنظامها الجديد . وأخيراً شروط ولسن التى أحسسنا بها كأننا نفتتح عصراً جديداً للسلام والعدل. وكان أهم ما فى هذه الشروط حق تقرير المصير للشعوب التى يستعبدها الاستعمار . وكانت عصبة الأمم إحدى الثمرات لجهاد ولسن للسلام العام .

وقد ظهر ولسن بمذهبه الجديد كما لو كان نبياً . فان العالم الذى كان يئن من الامبراطورية البريطانية استروح نسيماً منعشاً من هذه المبادئ الجديدة التى تقول بالمساواة والحرية وتقرير المصير . وعلقت هذه المبادئ بأذهاننا ، وصرنا نلهج بها ونفكر فيما نستطيع أن ننتفع به منها . وكان الساسة الانجليز يتململون من هذه المبادئ ولكنهم لم يستطيعوا منعها و إنكارها . وقد عادوا إلى مثل هذه الحال فى الحرب الكبرى الثانية عندما دعا الرئيس روزفلت إلى ميثاق الأطلنطى والحريات الأربع . فقد قبلوا مبادئ ولسن ثم مبادئ روزفلت بالقول مع نية نقضها بالفعل .

وكان ولسن يسير فى أوربا ويتنقل من عاصمة إلى أخرى والجماهير تحتشد له وتتلقاه فى خشوع دينى . حتى كان بعضهم يجثو على الركب على أرصفة المحطات . وكان الكاتب الفرنسى رومان رولان فى سويسرا وقد غادر فرنسا إحتجاجاً على الحرب .

وقد كتب له خطاباً مفتوحاً قال فيه :

« أنت وحدك ، أيها الرئيس ، بين جميع أولئك الذين يحملون الواجب الرهيب لقيادة الأمم ، أنت وحدك تستمتع بسلطة روحية عالمية . لأنك توحى الثقة العامة .

« أجب نداء هذه الآمال الحارة . وتناول هذه الأيدى التى بسطت إليك فاجعلها تصافح بعضها بعضاً . . . لأن الأمم إذا وجدت أنها خذلت فى هذه الوساطة فانها ستتفرق وتهيم فى فوضى ثم لا بد أن تتحطم فى الشطط . وعندئذ تنغمس الشعوب فى الدماء وتنكفئ الأحزاب القديمة إلى رجعية دموية . . . أيها الوارث لجورج واشنطون وإبراهام لنكولن هلم إلى الراية وهى ليست راية حزب أو راية أمة وإنما هى راية العالم كله . وادع نواب الشعوب إلى برلمان البشرية . وارأس أنت هذا البرلمان بالسلطة الكاملة التى هى حقك لمالك من وجدان روحى سام ، ولما لأمريكا من مستقبل عظيم . تكلم . تكلم إلى الجميع . لأن العالم متعطش إلى صوت يعلو ويغمر تخوم الأمم وطبقاتها . كن الحكم للأمم الحرة ، حتى يعرفك المستقبل بأنك كنت المصالح . »

وليس شك فى أن مبادئ ولسن الأربعة عشر كانت من أكبر العوامل لثورتنا فى ١٩١٩ . وكان ولسن يحاول تغيير العالم ، وكان يؤمن برسالته فى جد وشرف . ولكن الرجل فى شرفه وسذاجته لم يقدر عتو اللؤم والخسة فى الامبراطوريين : كليمنصو رئيس وزارة

فرنسا ، ولويد جورج رئيس وزارة بريطانيا . فقد سايره هذان الاثنان وأوهماه بالموافقة التامة على مبادئه كى يلقى بكل القوة الأمريكية فى كفة الحلفاء ضد ألمانيا ، حتى إذا تم الانتصار بفضل هذه القوة للانجليز والفرنسيين تنكر هذان الاثنان له . وكان من الفكاهات التى يتنادر بها الفرنسيون فى حمق ورعونة قول كليمنصو وقت المفاوضات : « إننى فى مأزق ، فعن يمينى نابليون وعن يسارى المسيح . » وهو يعنى بنابليون لويد جورج فى زعمه أنه بطل ، وبالمسيح ولسن فى زعمه أنه مصلح للعالم . ونحن الآن فى ١٩٤٧ عند ما نذكر هذه المفاوضات فى ١٩١٩ ندرك أن ولسن لم يكن فقط الرجل البار بالبشر بل كان أيضاً الرجل البصير . أما هذان الاثنان فكانا أحمقين قد طربا للانتصار ورضيا بالنظر القصير . ولو أن مبادئ ولسن عمت العالم لما وقعت الحرب الكبرى الثانية .

وعلى كل حال ربح العالم من ولسن « عصبة الأمم » . وصحيح أن الامبراطوريين من الانجليز والفرنسيين أفسدوها وأحالوها إلى هيئة ميتة عند ما أيقنوا أنها تعارض المذهب الامبراطورى . ولكن هذه العصبة نبهت الأذهان ، وبقيت ماثلة أمام العالم نحو عشرين سنة وهى تشهد ، حتى بضعفها وفشلها ، على ضرورة إقامة منظمة عالمية تشرف على مصالح البشر . وقد كانت هى الباعث بعد ذلك لايجاد « منظمة الأمم المتحدة » و « مجلس الأمن » .

والحق أن هاتين الحربين قد أنجبتا فى الميدان الديمقراطى الغربى بطلين عالميين فقط ، كلاهما أمريكى هما ولسن وروزفلت . وكلاهما

دعا دعوة عالمية فعبر عن أسمى الأمانى وأنضر الآمال فى السلام والعدل والشرف بين البشر .

وفى العالم الآن ثقافة عالمية بشرية جديدة تختمر . وعن قريب ستتبلور . ثم سوف تتجوهر مبادئ أو ديانة عامة نؤمن بها جميعاً ونقول بها إن هذا الكوكب هو وطننا ، هو قريتنا التى يجب أن نجوب شوارعها ونعرف أزقتها ، فى القطب الشمالى أو جبال هملايا فى الصيف ، وفى صحارى أفريقيا أو آسيا فى الشتاء . وطن عالمى جديد كبير يلغى هذا العالم المجزأ أو هذه الأوطان القديمة .

وكثير من الفضل فى هذا الاتجاه يعزى إلى ولسن وروزفلت .

ثورة ١٩١٩

فى ١٨٨٢ حكم علينا الانجليز ، بمعاونة المستبدين المصريين ، بالموت السياسى . وبقينا فى هذا الموت إلى ١٩١٩ حين بُعثنا وشرعنا نعود إلى التاريخ . وعدنا إليه بالثورة والدم والتدمير .

وكانت جميع طبقات الأمة فى ثورة . فان الفلاحين بعد أربع سنوات من خطف محصولاتهم ورجالهم كانوا حاقدين على الانجليز . وكانت الطبقة المتوسطة من الموظفين حاقدة أيضاً على الانجليز الذين منعوا الرياسة فى الوظائف عن المصرى وقصروها على الانجليزى . وعادوا بنا بذلك إلى أيام توفيق حين كانت الرياسة للأتراك والشركس دون المصريين .

فطبقات الأمة الفقيرة والطبقة المتوسطة أيضاً كانت فى تململ . ولذلك حين تولت الطبقة المتوسطة قيادة الثورة انقاد الفلاحون والعمال إليهم . ولكن يجب ألا ننسى أن الوجدان الوطنى لم يمت قط منذ ١٨٨٢ . ولكنه كان خامداً . وقد بعث فيه مصطفى كامل الحياة . ولكن هذا الزعيم جاء قبل أوانه ثم مات فى شبابه فى ١٩٠٧ . ثم كانت هناك فترة اختلاط فكرى هو تراث التاريخ : مصر أحد أقطار الدولة العثمانية ؟ أو مصر يجب أن تدعو إلى الجامعة الاسلامية ؟

وكان هذا الاختلاط الفكرى يفتت الوطنية المصرية . فلما كانت الحرب الكبرى الأولى رأينا الانجليز يتصرفون بحظوظنا كما لو كانوا آلهة فوق السحاب يعلنون على العالم « حماية » مصر . ثم يخلعون الخديوى. ثم يرتقى عرش مصر بدلاً منه السلطان حسين . ثم يمنعوننا من الاجتماع أو الكتابة و يراقبون جرائدنا حتى لا يكتب حرف إلا باذنهم ، ولكن بعد ذلك يصيح بنا ولسن : هبوا إن لكم حق تقرير المصير .

وكان أكثر الأمة وجداناً بأن سنة ١٩١٩ يجب أن تكون سنة فاصلة فى تاريخنا أولئك الذين عاشوا فى الثورة العرابية واشتركوا فيها . وكان سعد زغلول فى مقدمة هؤلاء . فان لوحة التاريخ المصرى من ١٨٨٠ إلى ١٩١٩ كانت واضحة الخطوط والصور فى ذهنه .

فما هو أن أعلنت الهدنة حتى قصد هو ، وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى باشا ، وكلاهما رأى الثورة العرابية وعاش فى سنى الخزى الوطنى التى أعقبتها أو فى العصر الجليدى للوطنية المصرية ، قصدوا إلى دار المندوب السامى البريطانى وطلبوا فى إلحاح الأذن لهم بالسفر إلى لندن كى يطلبوا استقلال مصر .

ولكن المندوب السامى كان يفكر فى تيار آخر هو استعمار مصر . ولذلك لم يسغ هذا الطلب . ورفضه . وشرع سعد يبعث فى الأمة وجداناً بالظروف الجديدة التى تجعل الاستقلال طلباً أساسياً لا نقبل دونه شيئاً آخر . وسرت فى البلاد موجة من السخط على الانجليز . واعتقل الانجليز سعد ورفاقه ونفوهم إلى مالطة فى مارس من ١٩١٩ .

وزاد السخط وكثرت الاضرابات من الطلبة والموظفين وقطعت السكك الحديدية وأسلاك التلفون والتلغراف . وعندئذ أذن الانجليز بسفر الوفد أى سعد ورفاقه إلى باريس كما أرسلوا لجنة انجليزية برياسة الاستعمارى القارح ملنر لتحطيم الحركة الوطنية باغراء عناصر أخرى ، غير أعضاء الوفد ، حتى يقبلوا الحكم ويضربوا الأمة بالحديد والنار كى تقبل الاستعمار البريطانى وتخضع له .

ووصلت لجنة ملنر إلى مصر فى ديسمبر من ١٩١٩ . وكان سعد ورفاقه أى الوفد المصرى ، فى باريس . فكان إرسال هذه اللجنة بمثابة التلصص على الحركة الوطنية أو الدخول إليها من الباب الخلفى للاتفاق مع العناصر التى ليست مع سعد . ولكن الشعب قاطع هذه اللجنة . بل إن محمد سعيد باشا رئيس الوزراء استقال احتجاجاً على ارسال هذه اللجنة مع وجود الوفد المصرى فى باريس .

واستطاعت لجنة ملنر وهى فى مصر أن تقنع عدلى باشا بالمفاوضة مع الانجليز . وكان سعد والوفد ، وهما فى باريس ، يطالبان باستقلال مصر باعتبار هذا الاستقلال جزءاً من مفاوضات الصلح العام فى ١٩١٩ . وسافر عدلى إلى سعد وأقنعه بضرورة السفر إلى لندن فى مايو من ١٩٢٠ للمفاوضة . وهنا تغير موقفنا . فقد كان سعد والوفد يطلبان الاستقلال باعتباره من القضايا التى تتجاوز حق الانجليز أو حق استئثارهم فى بحثه . وأن الدول المجتمعة فى باريس ، أى الولايات المتحدة وفرنسا وسائر الدول الصغرى ، لها حق البحث لهذا الموضوع إلى جنب بريطانيا . ولكن عدلى نقل هذه القضية من

هذا الموقف الرحب إلى موقف حرج هو المفاوضة مع الانجليز فقط .

وتقهقرت القضية المصرية خطوات إلى الوراء بهذا الموقف الجديد . وسافر الوفد المصرى إلى لندن . فطلبنا نحن الاستقلال وطالب الانجليز الاستعمار . وهذا هو ما كان ينتظر . وكان الانجليز يرمون إلى تضعضع الروح الوطنى بمرور الأشهر حين يجد المصريون ركوداً وعقما فتموت الحركة الوطنية .

وعاد سعد والوفد المصرى إلى مصر . وشرع سعد يبعث الحرارة والنشاط فى الأمة بالخطب والمنشورات . وكان عدلى قد فشل فى مفاوضاته مع الانجليز . وقد وصف سعد هذه المفاوضات بأن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس ، وكثرت الاضطرابات . فعمد الانجليز إلى العنف والعسف فألقوا القبض على سعد ورفاقه ونفوهم فى ١٩٢١ إلى سيشيل . واتبع الانجليز سياستهم وهى الاغراء . فأعلنوا «استقلال» مصر فى ٢٨ فبراير من ١٩٢٢ بشروط أربعة هى حق الانجليز فى :

١ — حماية المواصلات الامبراطورية فى مصر .
٢ — الدفاع عن مصر ضد أى اعتداء أجنبى .
٣ — حماية الأجانب والأقليات .
٤ — بقاء السودان على ما كان عليه .

وفى ١٩ أبريل من ١٩٢٣ اختارت الحكومة ثلاثين من الأشخاص البارزين فوضعوا الدستور المصرى . وكان سعد ورفاقه قد أعيدوا من المنفى وتولى هو أولى الوزارات الدستورية فى ١٩٢٤ .

وفى سنى الثورة هذه ، فى الوقت الذى كان يعمل فيه سعد ورفاقه ، ويهدم فيه خصومه ما يحاول أن يبنيه ، فى هذا الوقت كان الشعب يختمر ويبنى روحاً جديداً . فقد حفظت مبادىء ولسن وكان الطلبة والموظفون والتجار يتناقشون فيها ويجدون فيها إيحاء لمكافحة الانجليز وتحقيق الاستقلال . وكانت المظاهرات من الطلبة والنسوة بل كانت الغزوات من الريفيين على السكك الحديدية وأسلاك التلغراف . كل هذا ، على ما وقع فيه من شطط ، كان يبعث النشاط فى الأمة .

وكان خروج النسوة فى المظاهرات ليس ثورة على الانجليز وحدهم بل كان ثورة أيضاً على ألف سنة من ظلام الحجاب . فقد كن يخرجن مقنعات بالبراقع البيض فى المظاهرات الأولى . ولكن لم تمض أشهر حتى كن قد خلعن البراقع . وتألفت منهن لجان فى الوفد .

ومن القصائد التى نظمها حافظ ابراهيم قصيدة فى وصف المظاهرات الأولى للسيدات المصريات فى ١٩١٩ . وكان الانجليز لا يأنفون حتى من ضربهن كما كانوا يفعلون بمظاهرات الطلبة . قال حافظ :

خرج الغوانى يحتجج ... ن ورحت أرقب جمعهنه
فاذا بهن تخذن من ... سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب ... يسطعن فى وسط الدجنه
وأخذن يجتزن الطريـ ... ـق ودار «سعد» قصدهنه
يمشين فى كنف الوقا ... ر وقد أبن شعورهنه
وإذا بجيش مقبل ... والخيل مطلقة الأعنة

وإذا الجنود سيوفها قد صوّبت لنحورهنه
وإذا المدافع والبنا دق والصوارم والأسنه
والخيل والفرسان قد ضربت نطاقاً حولهنه
والورد والريحان فى ذاك النهار سلاحهنه
فتطاحن الجيشان سا عات تشيب لها الأجنه
فتضعضع النسوان والنسوان ليس لهن مُنّه
ثم انهزمن مشتتا ت الشمل نحو قصورهنه
فليهنأ الجيش الفخو ر بنصره وبكسرهنه
فكأنما الألمان قد لبسوا البراقع بينهنه
وأتوا بهندنبرج مخ تفياً بمصر يقودهنه
فلذاك خافوا بأسهن وأشفقوا من كيدهنه

وكنا فى تلك الأيام لا نستطيع السفر إلا باذن من موظف انجليزى ولو كان الانتقال لا يتجاوز ما بين القاهرة وبنها. وأذكر أنى حين أردت الحصول على هذا الاذن دخلت على الموظف الانجليزى فجابهنى بقوله : استكلال ؟ بلهجة التهكم .

وكان الأقباط يداً واحدة مع المسلمين ولم تنجح دسائس التفرقة . حتى كان الشبان المسلمون يخطبون من منابر الكنائس والشبان الأقباط يخطبون من منابر المساجد ، وقد عرفت بعد ذلك أنه كان فى الثورة العرابية فى ١٨٨٢ مثل هذا الاتفاق أيضاً إذ كان يرافق عبد الله نديم خطيب الثورة قسيس ينهض بعده ويخطب فى الدعوة

إلى الاتفاق بين العنصرين وحق الأمة فى الحكم النيابى التام .

وكان بديهاً أن يقتل بعض الانجليز من الأبرياء فى مثل هذا الاختلاط . لأن الانجليزى ، أيا كانت شخصيته ، كان رمزاً للاستعمار . ولكن الانجليز كانوا وحوشاً يهاجمون القرى ويصبون البنزين عليها ويحرقونها . وكانوا ، عقب تحطيم الترام ونزع قضبانه فى القاهرة ، يقبضون على الأفندية ويطرحونهم على الأرض ثم يجلدونهم . وبعد الجلد يجبرونهم على العمل فى ترميم القضبان المنزوعة . وحدث أن قطع الخط الحديدى للدلتا فيما بين الزقازيق وميت غمر . فقصد الجنود الانجليز إلى مكان القطع واحتشد الفلاحون المساكين نساء ورجالا وأطفالا ، فى سذاجة ، فى ذلك المكان . والأغلب أنهم لم يشتركوا فى قطع هذا الخط . ولكن الانجليز عند ما اقتربوا منهم صوبوا عليهم البنادق وقتلوا منهم عدداً كبيراً .

وكل هذا التقتيل فى المصريين نسيه الانجليز وذكروا فقط العدد القليل من قتلاهم . فأنشأوا المحاكم العسكرية لمحاكمة المصريين الذين اتهموا بقتلهم ، وكانت هذه المحاكم تحكم بالاعدام .

وما زلت أذكر نادرة مضحكة وقعت لى فى تلك الأيام . فقد ركبت حماراً من الزقازيق أقصد إلى العزبة . وبينا أنا فى الطريق خرج إلىّ أحد الفلاحين من حقل قريب وأخبرنى أن الانجليز يرممون الخط الحديدى على مسافة فهمت أنها تبلغ نحو كيلومتر . واقترح علىّ أن أختار طريقاً أخرى لأنهم ، إذا اجتزت بهم ، سيلقون القبض علىّ ويجبروننى على العمل معهم فى الخط الحديدى . وبينا هو يحدثنى خرج

علىّ صبى وعرض علىّ أن أشترى منه جرو ذئب . فنفحته بقرش وأخذت الجرو ، وسرت فى بطء أفكر فى طريق أخرى أتجنب بها الانجليز . ولكن الفلاح الذى أوهمنى أن بينى وبينهم نحو كيلومتر كان مخطئاً أو هو لم يحسن التعبير عن المسافة . لأنى وأنا لا أزال فى التفكير عن طريق أخرى خرج علىّ انجليزى من خلف جميزة غليظة وهجم علىّ وجرنى فى عنف إلى الأرض وطلب منى العمل مع سائر من قبض عليهم . وكان الجرو لا يزال بيدى . فقلت له : هل لك أن تأخذ هذا الذئب وتخلى عنى؟ فلم يصدق أنه ذئب . ولكنه بعد أن لوح بيده أمامه وكشر له الجرو عن أنيابه سلم بأنه ذئب وقبل الصفقة . بل زاد علينا ان حمل الجرو وأنا على الحمار وحرسنى من زملائه حتى اجتزت مكان الترميمات وسرت فى طريقى وأنا أتعجب من هذه المصادفة الحسنة وفضل هذا الجرو على .

وتبرز فى ذهنى ثلاثة أشياء من ثورة ١٩١٩ :

أولها الاكبار العظيم للموقف الوطنى الذى اتخذه الأقباط ورفضهم أية مساومة مع الانجليز بشأن حماية الأقليات . فان شباب المسلمين وكهولهم كانوا لا يزالون يذكرون موقف الحزب الوطنى وما كان يدعو إليه من الجامعة الاسلامية ونفور الأقباط من هذه الدعوة . ولذلك كانوا يتشككون فى موقفهم فى ١٩١٩ . ولكن الأقباط كانوا على الدوام فى المقدمة . بل كان منهم كاهن هو القسيس سرجيوس الذى كان لا يبالى أن يقول ويكرر القول بأنه إذا كان استقلال المصريين

يحتاج إلى التضحية بمليون قبطى فلا بأس من هذه التضحية . وعندما كانت لجنة الدستور تبحث قانون الانتخاب طلب توفيق دوس باشا أن تكفل حقوق الأقباط فى الانتخابات بالتعيين ، أى إذا لم ينتخب منهم العدد الذى يمثلهم فان الحكومة تعين هذه عدداً من الأقباط حتى لايكون هناك نقص فى التمثيل . فهببنا ، نحن الشبان فى ذلك الوقت، نزيف هذا الرأى ونقول بالاكتفاء بالانتخاب .

والشئ الثانى الذى يبرز فى ذاكرتى من هذه الثورة هو وثبة المرأة المصرية من الأنثوية والبيت إلى الانسانية والمجتمع . فقد مزق الحجاب وشرعنا جميعاً نعد المرأة المصرية إنساناً له حقوق الانسان بعد أن كنا نتكلم عنها باعتبارها ربة البيت أو الزوجة أو غير ذلك من الصفات التى كنا نصف بها « المخدرات » . وقد زالت هذه الكلمة الآن من لغتنا .

أما الشئ الثالث فهو النهضة الاقتصادية التى أثمرت بجهود طلعت حرب وغيره ، بنك مصر وسائر توابعه من الشركات الأخرى . وبهذا البنك مسحت عن جباهنا الوصمة التى كان يعيرنا بها المستشار المالى برونيات بقوله إنه ليس بين المصريين من يعرف أعمال البورصة .

هذا فى شئوننا الداخلية . أما فى شئوننا الخارجية فان ثورة ١٩١٩ علمتنا كيف ننظر إلى الدولة باعتبارنا أمة مستقلة لانجرى فى ذيل بريطانيا .

ولكن استطاع الانجليز بعد ذلك أن يحطموا استقلالنا ويزيفوا دستورنا على يد زيور واسماعيل صدقى وأمثالهما .

ولكنا نحن رجال الذهن المتصلين بالعقل العام فى أوربا وأمريكا كنا نتطلع إلى آفاق أخرى . ومن الحسن أن يعرف القارئ الشاب بعض اختباراتنا ومشاهداتنا فى أعقاب الحرب الكبرى الأولى ويقارنها بما رأى هو وشاهد فى أعقاب الحرب الكبرى الثانية .

ففى ١٩١٩ كانت مبادئ ولسن مذهباً جديداً يشبه الدين المدنى الجديد للبشر على كافة الأرض . وكانت حماستنا لهذه المبادئ أحرّ من الحماسة التى تلقى بها العالم مبادئ روزفلت فى ميثاق الأطلنطى والحريات الأربع . وظنى أن من أكبر الأسباب لخمود الحماسة هنا هو ما لقيه العالم من التزييف والتعويق لمبادئ ولسن فى ١٩١٩ .

وقد حدثت ثورتان فى الحرب الكبرى الأولى . الأولى فى ١٩١٧ فى روسيا حين تسلم الشيوعيون الحكم وألغوا الامتلاك الشخصى للعقارات . وهاج الامبراطوريون فى فرنسا و بريطانيا وبولونيا و إيطاليا وأنفذوا الجيوش إلى روسيا لقتل هؤلاء الشيوعيين . بل إنهم استخدموا الجيش الألمانى المقهور لهذه الغاية أيضاً .

ومما لا نزال نذكره أن أتلى وبيفن وهما من أعضاء الوزارة البريطانية الحاضرة (١٩٤٧) كانا يحرضان العمال على عصيان الحكومة فى شحن الذخائر والأسلحة إلى روسيا. ونجحا فى إيجاد إضراب فى الموانى الانجليزية . وفشل تشرشل فى تهيئة حملته على روسيا لهذا الاضراب . وأحدثت الثورة الروسية دهشة عامة . وكان الامبراطوريون ينشرون الدعاية ضدها بألوان مختلفة ، مثال ذلك أن الروس قد ألغوا الديانة والزواج . و إن هذا هو عاقبة الالغاء للامتلاك الشخصى .

ولكن أهم من الثورة الروسية فى نظر الجمهور المصرى تلك الثورة التركية التى قام بها مصطفى كمال حين ألغى عرش السلاطين كما قطع علاقة تركيا بالشرق . ذلك أننا منذ ١٨٨٢ كنا نتطلع إلى تركيا باعتبارها « دولة الخلافة » وكنا نأنس إلى خيال لم يتحقق قط هو أنها يجب أن تحمينا وأن ندخل فى حظيرتها ونكون معها سلطنة عثمانية كبرى . فلما جاء مصطفى كمال يهدم الأسس ويوجه الأتراك نحو الغرب بدلا من الشرق ويلغى الخط العربى ويستبدل به الخط اللاتينى ويفصل الدين من الدولة وينفض العرب والعربية عن تركيا الجديدة ، لما أحدث مصطفى كمال هذه الأحداث تنبه التقليديون فى مصر إلى احتمالات سياسية أخرى وانحازوا إلى الاستقلال المصرى باعتبار أنه كل شئ فى أهدافنا السياسية . وفرق عظيم بين هذه العقلية الجديدة وبين العقلية القديمة التى كان يتسم بها الشيخ على يوسف فى « المؤيد » حين دعا حوالى ١٩٠٧ إلى أن ترسل مصر مبعوثيها أى نوابها إلى مجلس المبعوثان فى الأستانة. بل كانت هذه عقلية مصطفى كامل أيضاً. أى أنهما كانا يفسران الاستقلال المصرى بأنه الانضواء إلى الراية العثمانية .

وبالطبع كان الاختلاف كبيراً بين الجمهور المصرى بشأن ثورة لنين وثورة مصطفى كمال . ولكن الشعور العام إزاء هاتين الثورتين أن العالم القديم يحطم الأغلال وينطلق فى حرية جديدة . ولا عبرة بأنه فى انطلاقه هذا يتعثر ويكبو ، لأنه سوف ينهض ويستقر

وقد بعثت فينا هاتان الثورتان تفاؤلا عظيما كما بعثتا تشاؤماً عظيما

أيضاً عند المستعمرين الانجليز . ومن هذا التفاؤل أنى أنا وبعض الاخوان ألفنا حزباً اشتراكياً فى ١٩٢٠ ، حاربتنا الحكومة بشأنه حتى قتلته .

أما حال ألمانيا فكانت شنيعة ، فانه عقب الهدنة منع الانجليز وصول الأقوات إليها أحد عشر شهراً حتى قيل إن جميع الأطفال هناك أصيبوا بالكساح . ثم هبت ثورة سبارتكوس لتحقيق الشيوعية فى يناير من ١٩١٩ . ولكن فشلها كان عاجلا وخاصة بعد قتل الزعيمين كارل ليبنخت وروزا لكسمبرج . ثم جاء بعد ذلك انهيار المارك الألمانى . وقد خسر فيه آلاف من المغامرين المضاربين فى مصر وغيرها حين أنزله الألمان إلى الصفر وأخرجوا نقداً جديداً . فكنا نرى فى مصر كيساً من الأوراق يحمله أحد هؤلاء المغامرين ويقول إنه كلفه ألفا أو خمسمئة جنيه وهو الآن لا يساوى مليما .

وقد جاءت هذه الأحداث عقب الحرب الكبرى الأولى فى تواتر فكانت مجالا للتأمل والتفكير والحديث : مبادئ ولسن ، الثورة الروسية ، الثورة المصرية ، الثورة الألمانية ، ثورة مصطفى كمال .

ولكن كل هذه الأحداث لم تكن شيئاً فى جنب القنبلة الذرية فى أغسطس من سنة ١٩٤٥ . لأن هذه القنبلة تلقى من الآن ضوءاً أو ظلا على مستقبل البشر بعد ألف بل آلاف السنين .

زوجة وأطفال

لم أكن طوال عزوبتى أفكر فى الزواج . ولكن كانت أمى تلح علىّ - كما هو الشأن فى جميع الأمهات . وكنت من وقت لآخر أستمع لندائها وأزور هذا البيت أو ذاك ، حتى إذا أوشكت أن أجد الفرصة وإن كل شئ مهيأ لاتمام الزواج ، كنت أفزع وأفر بالسفر أو أتمحل الأعذار الكاذبة . وماتت أمى فى ١٩١٦ وكنت فى الثامنة أو التاسعة والعشرين فلم أعد أجد الحافز إلى التفكير فى الزواج . وبقيت على ذلك إلى ١٩٢٣ .

وليس شك أنه كان للصدمة التى لقيتها أيام حبى لتلك الفتاة الأرلندية ، وأنا فى انجلترا ، أثر فى كامنتى لكراهتى أو تجنبى للزواج . فلم يكن يقترح على أحد الزواج بعد هذه الصدمة إلا وأتنهد فى حسرة وأسف . ثم أصد فى جمود وعزوف ، ولكن فى ١٩٢٣ زرت مع صديق لى بيتاً لبعض أصدقائه ، فوجدت هناك فتاة قد أينع شبابها . وكانت لا تزال بالمدرسة وقد قعدت إلى مكتبها وهى مشغولة بالكراسة والكتاب والقلم . وتحدثت إليها قليلا عن مشاغلها المدرسية . ونهضت وودعت وفى نفسى هواجس . وفى اليوم التالى وفى نفس الميعاد حملت صديقى على معاودة الزيارة . وأدرك هو مأربى واستجاب لرغبتى فى سرور ،

وبقيت معها فى هذه الزيارة الثانية أكثر من ساعتين . ثم تجرأت بعد ذلك على أن أزورها وحدى وتجرأ والداها على أن يتركانا معاً . وبقيت خطبتنا نحو خمسة أشهر لم أنقطع عن زيارتها يوماً واحداً . وأيام الخطبة تعد من أسعد الأيام لأن الخطيبين يحسان أنهما فى مؤامرة سرية يرتكبان فيها المخالفات للعرف والقواعد الاجتماعية . وفى الخطبة نحوم ولا نرد . ونحسو ولا نعب . فيزيدنا هــذا شوقا من يوم إلى يوم . وقد تعلمنا طرقاً فى التخلص من أحد الوالدين أو أحد الأخوة وكنا نجد لذة عظمى فى ممارسة هذه الطرق وخاصة حين كان أحدنا يلفق خبراً يؤدى إلى جلاء هذا القاعد الذى لا يريد أن يفهم أننا نرجو خلوة .

وعقب الزواج وجدت صعوبتين أولاهما أنى أحترف الأدب والصحافة وأتعلق بالقراءة وهوايتى هى الثقافة . والزوجة تعد الانفاق على الكتب إسرافاً . ثم هى أيضاً لا تطيق رؤية زوجها وهو غارق فى كتابه طوال الوقت أو معظمه فى البيت . وخاصة إذا كانت هى لم تتعود إدمان القراءة . والصعوبة الثانية هى التفاوت العظيم بين مستوينا الثقافيين . فان الانجليز كانوا قد حرموا التعليم الثانوى ، ولم يكن فى القطر المصرى كله مدرسة ثانوية للبنات تديرها وزارة المعارف إلى سنة ١٩٢٥ ، وكانت زوجتى قد تعلمت فى مدرسة فرنسية من تلك المدارس التى تديرها الراهبات ويتجه فيها معظم العناية إلى التعليم الدينى . ولذلك وجدت أنه للتغلب على هاتين الصعوبتين أن أشرع فى تعليمها من جديد . فصرت أشركها فيما أكتب وأناقشها فى جميع الموضوعات الثقافية التى أهتم بها . وبدهى أن كل زوجة تهتم

بحرفة زوجها . ولما كانت حرفتى هى الصحافة والأدب والعلم فانها اضطرت إلى تتبع نشاطى حتى ارتفعت على مستواها السابق كثيراً .

وبهذا صح الوفاق بيننا بل أكثر من ذلك إذ هى قد أصبحت صديقتى كما هى زوجتى . وظنى أن خير طريق إلى الصداقة الضرورية بين الزوجين فى مصر أن يرفع الزوج زوجته إلى مستواه الثقافى . إذ هو حين يقصر فى ذلك يجد أن التفاهم معدوم أو ملتبس . فلا يكون الحديث بينهما إلا فى الشئون التافهة ويعودان وكل منهما يعيش فى عالم منفصل من العالم الذى يعيش فيه الآخر . والصداقة التامة تحتاج إلى التكافؤ الثقافى بينهما أو ما يقاربها .

ومن عجب أنى ، مع الدكتور كامل لبيب ، ألفت كتاباً عن ضبط التناسل أنصح فيه بمنع الحمل إلا عن وجدان ودراية بما يتفق ومصلحة الوالدين والأطفال . ولكنى مع ذلك أجد عندى ثمانية من الأولاد حتى يصح أن أواجه بالبيت القائل فى إحدى شطرتيه :
هلا لنفسك كان ذا التعليم ؟

ولكن هناك ظروفاً جعلت المخالفة للكتاب الذى ألفته قهرية . فان الأطفال الأربعة الأولين كانوا أناثاً . فكان الشوق إلى ولد ذكر حتى أنجبنا به . أما من زادوا فكان سبب وجودهم نقصاً صيدلياً فى منع الحمل . وللرأى العام فى إيثار الذكور على الاناث قوة تجعل أم البنات تحس كأنها موصومة وتشتاق صوناً لكرامتها إلى أن تلد ذكراً . وهذه « غريزة » اجتماعية عامة . وقد عاش أولادنا جميعاً ولم يمرض أحد . وأنا أعزو هذا إلى أننا تعودنا من سنين أن نشرب اللبن نيئاً لا يوضع

على النار بتاتاً ، ولم يحدث قط أن احتجنا إلى أن نغير هذه العادة . وقد وجدت من نحو عام مقالا لأحد الانجليز يدعو فيه إلى تناول اللبن نيئاً ويقول بأن غليه على النار يفقده كل ميزاته تقريباً .

والأولاد فى البيت ، حين يرفرفون ويغردون ، يملأون الجو حياة بل يزيدون الحياة حيوية . وليس شئ أجمل وألذ من رؤية الذكاء ينبجس فى الطفل وهو فى سنيه الأولى حين يسأل ويستطلع . والأطفال أحياناً عذاب جهنمى عقب الغداء أو وقت القراءة أو الكتابة . ولكنه عذاب حلو سرعان ما ننسى آلامه . فان الابتسامة التى تشرق على وجه الطفل تفئ الجو وتقشع كل ما تكاثف فيه من غيوم . والآنسة الصغيرة التى اشترت فستاناً جديداً تسير به فى خيلاء وطرب كأنها فى عيد تملأنا سروراً وبهجة . ومنذ أن شببت عن الطفولة ، كانت تمر بى الأعياد فلا أعرفها إلا من الجرائد أو الأصدقاء إلى أن امتلأ البيت بالأولاد فعادت الأعياد مهرجانات. فيكون منها صداع قبل ميعادها بشهر ، ونحن فى مساومات بشأن البذلة الجديدة والحذاء الجديد والفستان الجديد ، حتى إذا كان يوم العيد زهى البيت بالأحمر والأخضر وامتلأت أرضه بقشور النقل وضج هواؤه بالصواريخ وتجاوبت جدرانه بصيحات الحماسة والسرور .

ولكن الأولاد مع كل هذه المسرات يحملون الآباء على النكوص بدلا من الأقدام وعلى البخل بدلا من السخاء . وقد يقال إنهم يزيدون مسئوليات الآباء ويجعلونهم اجتماعيين بعيدين عن الشذوذ أو الانحراف الأخلاقى أو الاجتماعى . وهذا القول صحيح ولكنه يحمل فى طياته

أيضاً معنى الجبن والخوف من الاقتحام . لأن الأب يفكر كثيراً ويقلق كثيراً بشأن المستقبل ، مستقبل أولاده ، وليس مستقبله. وهذا التفكير أو القلق يحيله من حيوان حر جرئ ينطلق فى مفاوز الحياة ويقتحم غاباتها إلى حيوان مدجن كأنه دجاجة لا ينشد غير السلامة . ولذلك من الشاق ، كل المشقة ، أن ينشد المجد ، الذى يحتاج الى ان نرقى اليه السموات ، رجل متزوج له أولاد .

وحين نحترف الأدب نحتاج إلى شجاعة قد تحملنا على ألا نبالى الرأى العام وعلى أن نجحد التقاليد ونخرج على السنن . لأن الأديب الحق يجد أنه محتاج فى بعض الأوقات إلى أن يغير القيم والأوزان الاجتماعية والأخلاقية وأن يجهر بما يجبن غيره عن الجهر به . ولكنه حين تحدثه نفسه بذلك ، يجد نداء العائلة أى الزوجة والأولاد صارخاً فى وجدانه : قف . ألا تتذكر ابنتك هذه التى ستتزوج بعد عام أو عامين ؟ فينكص فى جبن وذلة . وصوت الزوجة هنا هو صوت الضمير الاجتماعى الكامن. والزوجة فى البيت تمثل المجتمع بعاداته وعرفه وشعائره فاذا ثار الزوج وحاول أن ينفصل ويطير ويحلق غير آبه للمجتمع جرته هى إلى الأرض .

ولهذا السبب آثر كثيرون من المفكرين والأدباء العزوبة على الزواج . بل أحياناً وقفوا فيما يشبه منتصف الطريق بين العزوبة والزواج . كما فعل هافلوك أليس. فانه تزوج . ولكن ، بالاتفاق مع زوجته ، عاش كل منهما مستقلا فى منزله الخاص . كما أنهما امتنعا عن التناسل . وقد قرأت سيرتيهما كما كتبها كل منهما وكما كتبها ثالث

اتصل بهما فوجدت أنهما نجحا فى تحقيق الحرية التى ابتغياها . وعاش كل منهما فى استقلال فكرى وفنى وفلسفى . وهذا الانفصال بينهما فى العيش زاد رباط الحب والصداقة قوة بينهما . حتى لقد روى عنهما أن شخصاً لا يعرفهما رآهما فى القطار معاً . فظن أنهما خطيبان . وذلك لما رأى من سلوكهما الغرامى ووفرة الكلمات والايماءات التى كانت تدل على شوق مفرط وحب عميق . مع أنهما كانا قد مضت على زواجهما السنين . ولكن يجب أن أقول إنى أحسست عقب قراءة سيرتيهما أن الزوج استمتع بالاستقلال والعزلة. ولكن الزوجة تألمت منها كثيراً حتى أنها وقعت أو أوشكت أن تقع فى هاوية الشذوذ الجنسى مرة وفى هاوية الانتحار مرة أخرى . ولكن قد يعترض هنا بأن المركز الاجتماعى للمرأة فى الحضارة القائمة لا يتيح لها الاستمتاع باستقلالها . لأنه أى هذا الاستقلال كثيراً ما يكون غرماً لها بدلا من أن يكون غنما . إذ هى محرومة من كثير من الفرص التى تكسب الرجل كرامته الاقتصادية والاجتماعية . وأنا أسلم بكثير من هذه الحجة . ولكنى أكتب فى حدود الحضارة القائمة .

وشخصية الأديب الصميم هى ، سيكلوجياً ، شخصية سيكوباثية ، أى أنه والمجرم سواء . ولكن الفرق بينهما أن المجرم ينحرف إلى أسفل المجتمع . والأديب ينحرف إلى أعلى . كلاهما متقلقل متأفف نازع إلى الشذوذ لا يرضى بأوزان المجتمع وقيمه . وكلاهما مكروه من الرجل العادى . وكما أن العائلة من العوامل الكبرى التى تحول دون الاجرام كذلك هى أيضاً من العوامل الكبرى التى تحول دون الأدب

أو تعوق رسالته . أو بكلمة أخرى ، تعمل العائلة للاعتدال وتحول دون الشطط ، الاجرامى والعبقرى معاً .

وكل ارتباط هو ، فى معنى ما ، تقيد . فان الارتباط ، بالمذهب أو بالحزب السياسى ، يقيد الأديب ويحدّ من حريته . ومن هنا دعوة ألدوس هوكسلى الأديب الانجليزى وأندريه جيد الأديب الفرنسى إلى « الانفصال » أى يجب أن ينفصل الأديب من الأحزاب والمذاهب ويستقل فى فنه وتفكيره . والحق أن لهذا القول وجهاً بل وجوهاً من الصواب . وخاصة فى عصرنا هذا حيث نرى الأحزاب تستخدم الأديب لتأدية أغراضها بل أحياناً أغراضها السافلة. ولكن عصرنا هذا أيضاً يتسم بصراع روحى بين الحق والباطل. والأديب الذى تنفذ بصيرته إلى صميم هذا الصراع ويقف على البينات والمعارف إنما يكفر بحرفته وفنه إذا هو نكص عن الدفاع عن الحق . وإذن ليس هناك مجال فى عصرنا لهذا الاستقلال المزعوم . فللأديب المخلص حزب كما أن له عائلة وهو يرضى بشئ من القيود يتقيد بها فنه كى يبقى متصلا بالمجتمع يدرس ، عن اختبار ، مشكلاته ويجعلها أساس الفن ومحور الحرفة .

وقيود العائلة مع ذلك لها مايقابلها من الميزات بما تهئ للأديب من نظام فى المعيشة لا يحصل على مثله الأعزب الذى يتعود عادات التسكع . ثم إذا كانت مسئولية الأطفال تؤخر أو تنقص من الشجاعة والحرية فانها أيضاً تزيد الأحساس الاجتماعى وتصل بين الأديب وبين المجتمع بروابط قوية تجعله على قدرة لخدمته .

والانسان يتربى بعائلته ويزداد بها فهما للطبيعة البشرية . فالأولاد يربون الآباء كما يربى الآباء الأولاد . لأننا ونحن نربى أولادنا نبصر بالطبيعة البشرية فى سذاجتها واستطلاعها وتمردها . وكل بيت هو لذلك معهد للتجارب البشرية . وهذا المعهد يخرّج العبيد ، كما يخرّج الأحرار ، والمجرمين والعبقريين .

ولكنى إذا كنت قد وجدت من العائلة قيوداً من الحرير فانى وجدت من الحكومة المصرية ، بايعاز الانجليز وتسلطهم ، أغلالا من الحديد . فهى التى منعتنى خمسة عشر عاماً من أن أكتب حرفاً إلا بعد أن يقرأه رقيب حتى ولو كان فى اللغة أو التاريخ أو السيكلوجية . وهى التى حرمتنى ، الا فى فترات من حياتى ، من احتراف الصحافة التى أهواها .

شخصية عرفتها

حوالى ١٩١٥ كنت بالاسكندرية مع « الصحفى العجوز » توفيق حبيب . وبينا نحن نتنزه على الكورنيش إذ قابلنا أحد الشبان وسلم فى ألفة على المرحوم توفيق. وتعارفنا. فاذا به طبيب قد عاد من باريس وشرع يعمل ولكن فى غير نشاط ولذلك فهو فى قلة من الكسب .

وقص على توفيق قصته . فقال إنه من أسرة عريقة فى الصعيد وأنه ورث ثروة كانت تغل له نحو خمسين جنيهاً فى الشهر . ولكنه بددها فى باريس لأنه آثر أن يعيش باذخاً فى مدينة النور والجمال. وعاد من باريس وهو لا يملك غير مهنته التى مضى عليه وهو يمارسها بالاسكندرية نحو ثلاث سنوات .

وفى اليوم التالى تقابلنا ووجدنا فسحة من الوقت تحدثنا فيها فوجدت فيه اطلاعاً واسعاً وخاصة فى البيولوجية ، والتطور ، والنظريات الاجتماعية . كما وجدت فيه حرية فكرية لم أكن فى تلك السنين أجد لها مكاناً فى مصر ، ولذلك ائتنس كل منا بالآخر . فصرنا نعين المواعيد صباحاً ومساء نلتقى ونتنزه ونتحدث .

واتصلت معرفتى به بعد ذلك . فكنت أكتب إليه من القاهرة . وكان إذا زار العاصمة قضى كل وقته معي. وكان يعجبني منه ، خاصة ،

صراحة تكاد تكون طفلية إلى ولاء للبشرية يتجاوز الوطنية ، و إلى حب وتقدير للحرية والثقافة الحرة . وكان يكتب ، كما أكتب أنا أيضاً ، فى الجرائد والمجلات باسمه أو باسم مستعار عن شئون علمية أو إنسانية .

فلما كانت السنين الأخيرة للحرب الكبرى الأولى انقطعت عنى أخباره ، فظننت أن مرجع ذلك إلى وفرة عمله ، ولم أبال كثيراً ، وقلت فى نفسى إذا ذهبت إلى الاسكندرية فانى لابد واجده .

وذات يوم مشئوم من سنة ١٩٢٠ كنت فى الترام بالقاهرة . فرأيت شخصاً زرياً رث الملابس مشعث الشعر يواجهنى فى آخر العربة ويسلم على . فلم أرد السلام لأنى ظننت أنه لابد قد قصد غيرى . فتلفت حولى كى أجد أحداً آخر يرد عليه السلام فلم أجد . فعدت أحدق فيه ، وعاد هو يسلم على . وفى لحظة شعرت كأن قلبى قد استحال إلى كرة ثقيلة وأنه يسقط فى جوفى . فقد فزعت وارتعت ، أجل هو صديقى الطبيب . صديقى الحميم الذى أحببته وأحبنى ، صديقى الذى كنت أقعد معه وأنظر إلى عينيه فأكاد أعرف كل مافى ثنايا عقله من أفكار وأوهام وآمال. ونهضت إليه. وتكلمت وسألت وأنا فى لهفة عما حدث له . وعرفت شر مايعرف .

ونزلنا من الترام وقعدنا فى قهوة قريبة . وقص على قصته بل مأساته وهى أنه وقع ضحية للكوكئين . . . وأنه قد مضى عليه أعوام وهو يتناول هذا السم وأنه لم يعد يطيق تركه. وما أعجب ما تغيرنا الملابس ! فان هذا الطبيب الحبيب لم يتغير شئ فى وجهه

إذا استثنيت شحوباً وهزالا . فملامحه الحلوة ونغمة صوته و بريق عينيه بل إيماءة يده ، كل هذا كان كما عرفته منذ خمس سنوات .

ولكن ما قيمة كل هذا إلى جانب اللحية التى لم تحلق منذ عشرة أيام ؟ وما قيمته إلى جانب القميص الأبيض الذى فقد بياضه وحمل من العرق والتراب ما يدل على أنه بقى على جسمه أكثر من شهرين؟ وما قيمته إلى جانب الصدر الذى بان عنه القميص فبرزت عظامه ، و إلى جنب البنطلون الذى تمزق من خلفه الأعلى . . .

كنت إزاء شخصية هذا الصديق وأنا أحس أن الكوكئين قد فصل بيننا. كأننا من كوكبين مختلفين. فقد مضت عليه مدة طويلة انقطع فيها عن عمله وعن قراءة الصحف وعن الاختلاط بعائلته التى قاطعته. ومع أنى كنت أعرف أن المدمن لهذا السم يحتاج إلى معالجة طويلة فان أسفى عليه حملنى على أن أطلب منه أن يكف ويقلع . ولكن إجابته لهذا الطلب ردت إلى وجدانى وجعلتنى أدرك أنى إزاء مريض له منطق آخر . ولم نعد نتحدث عن العلم أو السياسة أو الأدب. لأن كل همه معى كان الحصول على ريال يشترى به جرعاً أخرى . وأخرجت له كل ما فى جيبى وأنا واثق أنه سينفقه فى هذا الشر .

و بهذه المقابلة « تجددت » صداقتى له . ولكنها كانت صداقة من نوع آخر . إذ كان همه الوحيد أن يحصل منى على الريال وكنت حين ألقاه أسلمه المبلغ وأنا أتوق ألا يرانى أحد لأن رثاثته كانت فى ازدياد حتى لقيته ذات مرة بلا حذاء . . .

وفى إحدى المرات لقيته وكان لا يكاد يستر جسمه إلا بخرق مهلهلة. فقدته إلى بيتى. وهناك سلمته بذلة كاملة ومعها الملابس الداخلية. ومع أنى أقصر منه فان البذلة كانت على كل حال حسنة لائقة .

وقابلته بعد ذلك . ولشد ماكانت دهشتى إذ وجدته لا يزال فى الخرق المهلهلة القديمة . وعرفت أنه باع بذلتى . . .

وساءت الحال حتى صرت أتجنبه ولكنى لم أفقد العطف والأسف عليه . وذات مرة كنت جالساً فى قهوة مع بعض المعارف ، ورأيته وهو يدخل من الباب فأدرت وجهى كى لا يرانى . ولكنه لمحنى ،ومر علينا وسلم على فتعاميت خجلا ممن كانوا معى . وخرج هو وظننت أن كل شئ قد انتهى وأنه فهم أنى لم ألحظه وهو يمر بمائدتنا .

ولكن لما انتهت قعدتنا وخرجت سرت قليلا ولم أبعد . فوجدت صوتاً خلفى يلعن ويسب . . . فالتفت ورائى فوجدت صديقى الطبيب الذى أخذ يعتب على بكلمات الهاوية التى تردى فيها لأنى تعاميت فى القهوة وهو يسلم على . فأوضحت له موقفى . وسلمته الريال الذى أعاد إليه الصفاء .

واشتغلت بعد ذلك فى تحرير مجلة «الهلال». وكان يزورنى من وقت لآخر . وفى ذات مرة جاءنى وهو فى اتزان لم أعهده فيه . وكان ذلك بعد غيبة استغرقت سنوات كدت أنساه فيها . فلما سألت عرفت أنه قد شفى من الكوكئين .

وكان شفاؤه بمصادفة عجيبة بل بمأساة . ذلك أنه أحس ذات يوم ألماً موجعاً فى بطنه يرافقه قىء . فلما قصد إلى الطبيب أخبره أنه

فى حاجة عاجلة إلى عملية لاخراج الزائدة الدودية التى التهبت . ولم تمض عليه ساعة حتى كان قد أجريت له العملية فى نجاح وهو غارق فى غيبوبة الكلوروفورم . والمعروف أننا لا نحس ألمين معاً . بل نحس الألم الشديد الذى ينسينا الألم الخفيف . ولذلك أنساه تعب العملية وتخدير الكلوروفورم آلام الحرمان من الكوكئين . ونهض من فراش المرض بعد ١٥ يوماً وهو برىء من الاثنين : إلتهاب الأمعاء من الزائدة الدودية والتهاب المخ من الحرمان من الكوكئين .

وفرحت بهذا الانقلاب . وأن كان الاتزان الجديد لم يثبت . فقد كان يتفزز من وقت لآخر ولا يكاد يطيق الجلوس على الكرسى أكثر من دقائق . ولكن صحته عادت إليه فعاد الدم يجرى فى وجنتيه .

وهنا انقدح فى ذهنى خاطر . قلت له يا دكتور ألا ترغب فى خمسة جنيهات كاملة . فأشرق وجهه وسأل فى لهفة : « كيف ذلك؟»

قلت : « أكتب لنا مقالا فى « الهلال » عن الهاوية كيف ترديت فيها وكيف نجوت منها وابدأ الآن إذا شئت . وهاك جنيهاً » .

فوقف فى احترام أو حماسة يتسلم الجنيه الذى مضى عليه بضع سنوات لم يلامس مثله كفه . وسلمته الورق والقلم . وشرع يكتب . ولكن أنا وهو كنا واهمين . فان اتزانه الذى لمحته فيه لم يكن يكفى للكتابة . لأنه ما كاد يكتب خمسة سطور حتى مزق الورقة . ثم مزق أخرى وأخرى . وأخيراً تركنى على وعد أن يعود ويكتب ما طلبته منه . وقضى نحو ثلاثة أشهر وهو يكتب هذا المقال الذى لم يزد على خمس أو ست صفحات .

ونشرنا المقال فى «الهلال». وكان مأساة. وقرأته السيدة الكريمة مدام فهمى ويصا. فاشترت نحو خمسمائة نسخة وزعتها على أعضاء البرلمان. وكان من أثر هذا المقال أن سن قانون جديد لمعاقبة المتجرين والمتعاطين للكوكئين.

وانتعشت رويداً صداقتنا القديمة بانتعاش صحته النفسية والجسمية فصرنا نتواعد ونقعد معاً على القهوة أو فى ناد. وعاد يحترف صناعته ويجد فيها شيئاً من الكسب الذى يكفى للوقار فى الملبس والمطعم. وهو لا يزال حياً إلى الآن أقعد إليه فأجد النور القديم فى عينيه كما أجد أثر العاصفة التى مرت به ولكن مع الانسانية والتفكير المنظم. وقد بلغ الخامسة والستين. وظنى أنه سيعيش كثيراً وسيذكر هذا الكابوس الذى جثم على عقله وأظلمه نحو خمس أو ست سنوات. ولكن ما أضيع هذه السنوات...

والآن بعد نحو ربع قرن من هذا الحادث المؤلم أعود بذاكراتى إلى تلك الأيام وأتعجب وأسائل: كيف كان الكوكئين يباع فى كل مكان ويشتريه الجمهور بالقرش والجنيه ولا يجد أى إنسان صعوبة فى الحصول عليه ثم مع ذلك كان بوليس القاهرة يعجز عن ضبط المتجرين به؟

أذكر أنى كنت قاعداً مع بعض الاخوان ذات مساء فى قهوة بباب الحديد. وشرع أحدهم يتشمم هذا المسحوق الأبيض. فدفعنى الاستطلاع إلى أن آخذ قليلا منه وأستنشقه. فأحسست انتعاشاً

أو يوفوريا . ولم أحس أى تخدر . ولما آويت إلى الفراش لم أحس أى ميل إلى النوم . فشرعت أقرأ ولا أدرى متى نمت . ولكنى استيقظت فى الصباح فى الساعة العاشرة فعرفت أن الكوكئين قد أرّقنى ، أى نبهنى ، إلى الساعة الثالثة أو الرابعة من الصباح . وتأخرى فى الاستيقاظ هو وحده الذى أذكرنى أنى تناولت قليلا من ذلك السم فى المساء السابق .

كفاحى الثقافى واختباراتى الصحفية

الثقافة إما أن تكون راكدة وإما مكافحة . وهى تركد حين تعالج موضوعات لا تثير المناقشة . وقد يرجع هذا إلى أن المجتمع نفسه مستقر يعيش فى بيئة زراعية مثلا ، أو أن حق الحكم منفصل منه إذ يتولى شئونه مستعمرون مثلا . وقد بقينا نحن على هذه الحال نحو أربعين سنة فيما بين ١٨٨٢ و١٩٢٢ كان مجتمعنا فيها منفصلا من الادارة الحكومية الى أن تقررت لنا حقوق بالدستور. وكان المتولون من الانجليز الذين لا تجدى المناقشة الصحفية معهم عن موضوع تعليمى أو صحى أو اقتصادى . وأذكر أن المرحوم عوض واصف حين أنشأ مجلة « المحيط » فى ١٩٠٣ قال فى العدد الأول إن مجلته ستعالج الشؤون السياسية والحكومية . فردت عليه « المقتطف » بأنه ليست هناك جدوى ؛ لأن المتولين لهذه الشئون إنجليز لا يقرأون العربية .

ولكن مجتمعنا أثار المناقشة وجعل الثقافة الدينية ، عن طريق محمد عبده ، ثم الثقافة الاجتماعية ، عن طريق قاسم أمين ، موضوعاً للمناقشة الحية . وكانت حالنا فى تلك السنين أشبه بحال روسيا أيام القيصر ؛ فقد كان المفكرون الروس ممنوعين من نقد السياسة ، فاتجهوا إلى الأدب . وكان علينا فى مصر حظر

عام بشأن السياسة وانتقاد الحكومة ، فاتجه النقد نحو المجتمع .

وفى أيامى الأولى ، فى بداية وجدانى الأدبى ، وجدت مجلات « المقتطف » و « الهلال » و « الجامعة » ، من الحركات الذهنية ، بل أكسبتنى هذه المجلات توجيهاً تجديدياً فى العلم والأدب . وكنت قانعاً بهذه الثقافة . ولولا حادثة دنشواى لما التفت إلى السياسة أدرس أصولها وأعنى بتفاصيلها فى السنين العشر الأولى من هذا القرن .

وكانت نظرية التطور التى فهمت مغزاها من « المقتطف » البذرة الخصبة فى ثقافتى . فقد أكسبتنى معرفة وأسلوباً ، وعينت لى أصدقائى وخصومى من المؤلفين والمفكرين . وغرست فى مزاج الكفاح لأنها تصدت للعقائد والتقاليد . وقد تشعع الكفاح من هذه البؤرة إلى موضوعات أخرى ؛ ولذلك لم أسعد قط بالبرج العاجى . كما أن مغزاها الخطير فى التفكير العلمى والاجتماعى جعلنى دائم الشك كبير الاستطلاع والمساءلة. وتغيرت الأوزان والقيم عندى ، وأخذت بقيم وأوزان جديدة ترى على نجاجتها فى « مقدمة السبرمان » التى ألفتها وسنى نحو ١٩ سنة .

ففى هذه الرسالة أجدنى أقول بالاشتراكية واليوجنية والتطور وتنظيم الدولة والمجتمع لايجاد السبرمان أى الانسان الأعلى الذى نكون نحن منه بمكان الغوريلا أو الشمبنزى منا . وقد كان التفكير عندى فى هذه الشئون أقرب الأشياء إلى مايمكن وصفه بأنه «غيبيات» علمية ، أخذت مكان الغيبيات الدينية وقتئذ . وفى السنة التى ألفت فيها هذه الرسالة (١٩٠٩) نشرت مقالا فى « المقتطف » بعنوان « نيتشه وابن الانسان » وفى « الهلال » مقالا عن الاشتراكية التى

أسميتها وقتئذ « الاجتماعية » ؛ وهذا الاسم الثانى أقرب إلى الكلمة الأوربية من كلمتنا الشائعة الآن « الاشتراكية » . وألفت رسالة فى هذه الموضوعات بعثت بها إلى مطبعة المقتطف كى تطبع . فردتها إلى المطبعة مع نحو ثمانى صفحات مجموعة ، وكنت فى لندن ، واعتذرت عن التوقف عن الطبع لأن القانون فى مصر يعاقب على نشر هذه الآراء ، ونزلت عن أجر الطبع للصفحات الثمان .

وقد كان هربرت سبنسر يقول إنه يستطيع أن يعرف المستوى الذهنى لأى إنسان بعد مدة قصيرة من التحدث معه . وهو يعنى بهذا أن لكل منا كلمات أو عبارات محورية تتكرر أو يلتفت إليها الذهن كثيراً وهى تدل على اهتمامات المتكلم أى تدل على ثقافته مادة واتجاهاً. وحين أرجع إلى نفسى أبحث عن الكلمات التى تتكرر فى مؤلفاتى ومقالاتى أجد أن أكثرها تكراراً : التطور ، العالمية ، حرية المرأة ، العلوم ، الحضارة الصناعية ، الرجعية ، المستقبل أى إنها كلمات تدعو إلى تغييرنا .

وأجد أن تفكيرى فى السياسة والثقافة كان على الدوام يسارياً ، وفى الأغلب ارتيادياً . ومما يلاحظ أن جميع الكتاب فى مصر بدأوا حياتهم الأدبية مذهبيين ارتياديين ، ثم انتهى كثير منهم إلى ملاذ التقاليد يدعون إلى الفعل الماضى بدلا من اقتحام المستقبل . كما أنى أجد أن لى استغراضاً ديمقراطياً فى جميع ما أكتب يحملنى على مكافحة الظلمات التى لا تزال حية فى الشرق العربى : فى الاجتماع والاقتصاد والعقائد . ولذلك لم يتغير موقفى من حيث إنى كاتب مذهبى يسارى

أكافح الرجعيين الذين يجدون الحكمة خلفنا لا أمامنا ، كما أكافح أيضاً الاقطاعيين الذين يعارضون الاتجاهات الديمقراطية فى الأمم العربية . وليس شك أن لوضعى الاقتصادى الاجتماعى من حيث أنى من الأقلية المسيحية أثراً فى إتجاهى الثقافى اليسارى. فان اليهود وهم أقلية فى أوربا كانوا ولا يزالون يحملون علم الثقافة اليسارية فى السياسة والاجتماع والاقتصاد .

وقد كانت حياتى الصحفية فى مصر ثقافية إلى أبعد حد . فقد أخرجت « المستقبل » فى ١٩١٤ وجعلته للكفاح الفكرى ، ولم ألتفت فيه إلى السياسة ، وأخرجت منه ١٦ عدداً . وكان شبلى شميل من محرريه ومؤيديه . ثم اشتغلت بالهلال ثم بالبلاغ . وفى هذه الجريدة الأخيرة اشتبكت بالسياسة . ولكن همى الأول واهتمامى الأكبر كانا بالصفحة الأدبية . وهناك ثلاثة كتب هى « نظرية التطور وأصل الانسان » و « مصر أصل الحضارة » و « التجديد فى الأدب الانجليزى الحديث» نشرتها كلها فصولا متتابعة فى « البلاغ » قبل أن تجمع فى كتب . ووجدت من عبد القادر حمزة ليس الصدر الرحب فقط بل التشجيع أيضاً على أن أمضى فى هذه البحوث .

أما «الهلال» فقد حررته من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٩ وكان من شروط عملى فيه أن أؤلف كل عام لقرائه كتاباً جديداً يقوم مقام العطلة حين كان ينقطع شهرين . وكان بعض هذه الكتب للتسلية مثل « أشهر قصص الحب التاريخية » وكنت أؤديها على سبيل الواجب الحرفى . ولم تكن تكلفنى مجهوداً . ولكن كان بعضها الآخر يحملنى على البحث

والدراسة ؛ فكنت أؤلف وأنا أتعلم ، مثل « حرية الفكر وتاريخ أبطالها » و « العقل الباطن » . والحق أن هذه المؤلفات التى ألفتها وأنا بالهلال ثم بالبلاغ كان كل منها بمثابة المدرسة التى علمتنى وأمدتنى بالغذاء الذهنى سنوات . بل حتى المقالات التى كنت أنشرها فى « الهلال » و « البلاغ » وجدت من الناشرين اهتماماً ، فطبع بعض منها مع تنوع موضوعاتها باسم « مختارات سلامه موسى » و « اليوم والغد » و « فى الحياة والأدب » .

وقد سعدت بهذه المؤلفات على قلة بل تفاهة ما كسبت منها مالياً. وذلك أنى كسبت تربيتى ، كما كسبت هذا التغير الذى وجدته فيمن قرأوها ، وهو تغير كان أحياناً يصل إلى التطور بل الانقلاب . وفيما بين ١٩٢٣ و ١٩٣٠ أثير غبار فى القاهرة بشأن التجديد فى الأدب، وكان كل أديب يفهم من معنى هذا التجديد غير مايفهمه الآخرون ، كل تبعاً لمزاجه واتجاهه وثقافته . وأستطيع أن أعين الاتجاهات التجديدية لتلك المناقشات الحامية كما أذكرها الآن فيما يلى :

١ — أن يكون لنا أدب مصرى عصرى لا يرتبكن إلى الأدب العربى القديم .

٢ — أن يكون لنا أسلوب عصرى فى التعبير لا يمت إلى الجاحظ أو غيره ، مع مداعبة مستحيية للغة العامية... وهى مداعبة لم تثمر .

٣ — أن نأخذ بالأوزان والقيم الأوربية فى النقد الأدبى دون وزان الناقدين القدماء وقيمهم كالجرجانى أو ابن الأثير أو ابن رشيق.

٤ — أن نجعل الأدب يتصل بالمجتمع ويعالج شئونه ويندغم فى مشكلاته .

٥ — أن نوجد القصة والدرامة المصريتين .

٦ — أن نجعل الأدب إنسانى الغاية عالمى المشكلات .

والمؤلف بالمقارنة إلى الصحفى يعد ناسكا . فان المؤلف ينزوى فى غرفته باحثاً منقباً ، ولكن الصحفى يخرج ويختلط بالمجتمع . ومع أن أكثر مجهودى فى الصحافة كان ثقافياً فى بحث العلوم والآداب فانى قد مسست السياسة أيضاً ، وأحياناً اقتحمت غبارها حتى عصفت بى فى كثير من الأوقات . ولكن أعظم مايعزينى أن ماعصف بى كان أيضاً يعصف بالأمة ، وأنى فى كفاحى الصحفى كنت أكافح للديمقراطية التى حاول المستبدون أن يحرمونا منها .

وأول اختبارى للصحافة كان فى « اللواء » فى ١٩٠٩ . فقد قضيت فيه نحو أربعة أشهر مع فرح أنطون . وكان يرأسنا رجل مهذب مستنير يدعى عثمان صبرى وكان صهر مصطفى كامل ، وكان قد تولى الرياسة بعد المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان قد أغضب الأقباط بكلمات نابية . وكنا نكتب فى المطالبة بالجلاء ، ولا مفاوضة إلا بعد الجلاء . وهذه عبارة كان يستنكرها بعض الساسة فى مصر؛ أما الآن فلا تستنكر . وقد عمل بها الهنود حين أصروا مدة الحرب الكبرى الثانية على شعار « اتركوا الهند » . وقد بقى فرح طوال عملى معه باللواء وهو يظن أنى مسلم ، لاشتباه اسمى ، ولأنه لم يكن

فى كل ما أكتب مايدل على وجهة طائفية خاصة . أما عثمان صبرى فكان يعرف أنى قبطى ، وكان كثيراً مايذكر مقالات الشيخ عبد العزيز جاويش بالاستنكار أمامى ويتفادى من نشر أى مقال يوهم الشقاق بين المسلمين والأقباط . وقد كسبت من « اللواء » مرانة صحفية حسنة ، وكنت أكتب الخبر والمقال فى السياسة الداخلية والسياسة الخارجية . ولم يكن للمخبر فى تلك الأيام قيمة كبيرة . وكانت الجرائد « مقالية » أكثر مما كانت خبرية . وذلك لأن الكفاح من أجل الاستقلال كان يستغرق كل اهتمامها تقريباً ، فكان جميع كتاب الجريدة تقريبا محررين .

وفى العقد الأول من هذا القرن كان طراز « اللواء » جريدة الحزب الوطنى يغلب على الصحافة . لأنه كان الجريدة الناجحة وكان أسلوبه خطابياً إذ كان مصطفى كامل يعتقد بحق أن الصحافة يجب أن تكون فى خدمة الوطنية وأن تثير حماسة الجمهور وتنبه وجدانه الوطنى . ولذلك لم تكن العناية بالأخبار الخارجية كبيرة بل لم تكن هناك أقل عناية بها . إذ كانت تختصر أو تقتضب فى نصف أو ربع عمود من التلغرافات . أما سائر الجريدة فكان معظمه يرصد للمقالات التى تندد بالانجليز المحتلين أو تثير الجمهور . وكان لذلك أول شرط للكاتب الصحفى أن يكتب فى أسلوب فصيح بعبارات صارخة . وبقيت هذه الحال تقليداً فى الصحافة إلى حوالى ١٩٣٠ حين شرعت جرائد « الخبر » بدلا من جرائد « المقالة » فى الظهور . وما زلنا إلى الآن (١٩٤٧) نجد من بقوا من الصحافة القديمة كبيرى العناية باللغة

قليلى العناية بالمعارف العامة عن المشكلات العالمية أو العلميـة أو الاجتماعية . بل نجد بين بعض القراء إساغة لهذه الكتابة الأسلوبية .

وكانت الجرائد فى ذلك الوقت « شخصية » فكنا نقرأ الجريدة لا لأنها حافلة بالأخبار أو الصور بل لأن فلاناً يكتب فيها مقالا . بل كانت المخاصمات أيضاً شخصية . فكان « المؤيد » يشنع على مصطفى كامل لأن الخديو صفعه كفاً . وكان «اللواء» يشنع على الشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » لأنه لم يكن كفئاً لزواج كريمة السادات السيدة صفية . بل كان « المقطم » يدخل فى هذه المخاصمات ويتكلم أيضاً عن زوجة الشيخ على يوسف .

وظهرت أولى المجلات الفكاهية حوالى ١٩٠٠ وكانت مادتها الأساسية تهزئة الامام العظيم محمد عبده . وكان يشاع أن الخديوى عباس باشا كان يحرضها على إتخاذ هذا الموقف لأنه كان يكره الروح العصرى الذى كان يدعو إليه الامام فى الأزهر . وظنى أنى أنا أول من أخرج مجلة أسبوعية جدية هى « المستقبل » فى ١٩١٤ .

ولما تركت « اللواء » وعدت إلى أوربا بقيت الصحافة خيالا ساحراً فى ذهنى . ورجعت إلى مصر واستطعت فى ١٩١٤ أن أحقق هذا الخيال بأن أصدرت مجلة « المستقبل » الأسبوعية . ولكن لم أصل إلى العدد السادس عشر حتى كانت الحرب الكبرى الأولى قد شبت، وارتفع سعر الورق نحو عشرة أضعاف سعره السابق . وكان لابد أن أعطلها . ولكن التعطيل جاءنى بطريق آخر . ففى ذات يوم وأنا أفكر فى مشكلة الورق طلبتنى إدارة المطبوعات . فقصدت إليها غير

عابئ بما يحدث . وكانت الاشاعات كثيرة بشأن تعطيل المجلات والجرائد . وهناك قعدت أمام أحد الموظفين السوريين الذى حيانى وطلب لى القهوة ، وجعل يلاطفنى بكلمات عذبة . ويسألنى عن المجلة وهل هى رائجة أم أنى أخسر فيها. ثم بعث فى طلب رجل انجليزى. وجاء هذا وقعد قبالتى يستمع دون أن يتكلم. ثم شرح لى هذا الموظف حرج الموقف وضرورة وقف (أى تعطيل) بعض المجلات . ومع أنى لم أكن أبالى التعطيل ، كما قلت ، فانى وجدت فتنة سيكلوجية فى متابعة البحث والمناقشة وخاصة أمام هذا الانجليزى . فأبديت أنى قادر على إصدار « المستقبل » مهما كانت الصعوبات . فتلاحظ الاثنان وأنا مفتون بالموقف . وأصررت على أنى سأصدرها إلى آخر الحرب ، وأنى سأدعو فيها إلى الاشتراكية . وعاد الموظف السورى يخاطبنى فى ملاطفة مسرفة ويقول إنى أستاذ وعاقل . . . الخ . وأصررت أنا على العناد.

وأخيراً صرح ، فى غير ملاطفة ، بأن إدارة المطبوعات تستطيع التعطيل. وأن المناوئين للحكم فى الظروف الحاضرة الشاذة يمكن نفيهم أو اعتقالهم . وكان هذا ما أردت أن أسمعه ، فنهضت وقلت إنى سأعطل المجلة ، وخرجت .

وليس عندى مجموعة من مجلة « المستقبل » . ولكن بعض القراء مازالوا يقتنونها مجلدة تحوى الأعداد الستة عشر التى صدرت . ومقالاتها تدل على تفكيرى وقتئذ ويعبر هذا التفكير عن اتجاهى الذهنى العصرى. فان فيها مقالات عن نيتشه . وبها مقال كله فجور إلحادى عنوانه «الله». وهذا غير قصائد ومقالات لشبلى شميل وكان يدعو إلى نظرية التطور

وإلى المذهب المادى . وأجد بها بحثاً عن « الضمد » عند العرب أى زواج المرأة لجملة رجال . والخلاصة كان المستقبل يدعو دعوة عصرية بل مستقبلية لمجة خاصة . وكنت أبيع منه نحو ستمائة نسخة فى الأسبوع . وهذا غير المشتركين المتحمسين . وظنى أنه كان يمكن أن ينجح ويؤدى رسالة الهدم والبناء التى كنا نحتاج إليها لولا ظروف الحرب فى ١٩١٤ . ولم تظهر بعد « المستقبل » مجلات من طرازه التحريرى. ولما عمدت إلى إخراج « المجلة الجديدة » فى أواخر ١٩٢٩ كنت قد تأثرت بالفن الصحفى كما أن الظروف المصرية كانت قد دجنتنى تدجيناً سيئاً فخبت النار وباخت الحماسة وأخذ الاعتدال مكان الغلو .

وأرسلت إلىّ مىّ عقب التعطيل خطاباً تطلب منى أن أحرر « المحروسة » وكانت جريدة يومية قليلة الانتشار يصدرها والدها ، فقبلت ، وبقيت أحررها جملة أشهر سئمت بعدها الكتابة مع المراقبة الصارمة التى كانت تفرضها إدارة المطبوعات على الصحف . ولم يكن يخفف من هذا السأم سوى زيارات مىّ ومؤانستها لنا من وقت لآخر ؛ فقد كانت حلاوتها تمتزج بظرف ورقة .

وبقيت طوال الحرب الكبرى الأولى وأنا معطل . وقد قضيت معظم سنى هذه الحرب فى الريف فى عزبتنا بالقرب من الزقازيق . . وكانت تلك الأيام بمثابة الحضانة . فقد أكببت على القراءة الجدية فى الآداب والعلوم واستوعبت منها كثيراً . وكنت من وقت لآخر أقصد إلى مأمور المركز فى الزقازيق كى أرجوه فى الافراج عن أحد الذين قبض عليهم من الفلاحين . وكانت الحكومة تنفذ شرطتها

إلى الأسواق الريفية العامة فتقبض على من تستطيع من هؤلاء المساكين وتربطهم بالحبال الغليظة كما لو كانوا أسرى حرب . ثم يبعثهم الانجليز إلى فلسطين وكانوا يموتون بالمئات والألوف . ولم أكن أنجح فى تخليصهم إلا بالرشوة .

وسئمت الركود الريفى ، فاشتغلت بالتعليم فترة . ثم هبت الثورة فى ١٩١٩ ورأيت أن أقصد إلى القاهرة حتى أكون على صلة بالحوادث وحتى أجد منفذاً جديداً إلى الصحافة . وتحقق لى ذلك ؛ فانى بعد أن اشتغلت بالتعليم فى مدرسة التوفيق قليلا اشتركت فى تحرير «الهلال»، واشتركت أيضاً فى تحرير «البلاغ» .

وانغمست فى السياسة مع المرحوم عبد القادر حمزة . وكنت أزور معه سعداً . وكان عبد القادر حمزة من الكتاب الأفذاذ إذا نشب فى موضوع لم يترك الجدل فيه حتى يستقصيه ويخرج منه منتصراً . وكان نزيهاً فى حكمه حتى حين كان يختلف . فانه بعد أن ترك الوفد فى ١٩٣١ بقى على صداقته السابقة مع كثير من الوفديين .

وأصدرت « المجلة الجديدة » فى أواخر ١٩٢٩ . وأصدرت « المصرى » فى السنة التالية . وكانت الأولى شهرية والثانى أسبوعياً. وكانت الدعوة فى كليهما تحريرية فى الثقافة والسياسة . وعصفت بنا فى ١٩٣٠ عاصفة سياسية فى وزارة إسماعيل صدقى باشا ، فألغى الدستور واستبدل به آخر بعيد عن الديمقراطية . وألغيت مجلتاى . وكان قد شرط فى قانون النشر الجديد أن من يطلب امتيازاً لجريدة أو مجلة جديدة يجب أن يؤدى تأميناً قدره ١٥٠ جنيهاً . فأديت التأمين نقداً.

ولكنه رفض . وبعد ثلاث سنوات أى فى ١٩٣٤ جاءت وزارة عبد الفتاح يحيى باشا ، فاستطعت أن أعيد إصدار « المجلة الجديدة » بضمان عامل فى المطبعة عندى . . . وهذه هى حالنا فى مصر : فى وزارة ما يرفض التأمين النقدى ، وفى وزارة أخرى يقبل ضمان العامل الذى لا يملك شيئاً .

وفى بداية الحرب الكبرى الثانية أنشئت وزارة الشئون الاجتماعية ، فاستدعتنى كى أحرر مجلتها . وقبلت لأنى وجدت أن الفرصة تتيح لى الارشاد العصرى والتوجيه الاجتماعى . وبقيت أكتب فى هذه المجلة نحو سنتين . وكانت مقالاتى يوقع عليها بامضائى أو تنشر بلا إمضاء. فاذا راقت المشرفين على المجلة وضع لها إمضاء غيرى حتى ولو لم تكن له علاقة بالوزارة . وقد كان هذا العمل مثاراً للسخرية أحياناً وللأسف أحياناً .

وكنت أتناول عشرين جنيهاً راتباً شهرياً على التحرير دون أى اشتراط على القدر الذى أكتب أو على مواظبة الحضور . فكان يمضى الشهر دون أن أحضر للوزارة ، وكنت أكتب أى قدر شئت من الصفحات . ولكن الوزارة ضنت علىّ بهذه الحرية مع صغر الراتب . فى نألغته وعينت أربعين قرشاً للصفحة الواحدة . ورأيت آخر الشهر بعد هذا النظام أن كل ماحصلت عليه هو جنيهان فقط ، فتركت التحرير .

وكنت طوال عملى بالوزارة أصدر « المجلة الجديدة » أيضاً . وبقيت على ذلك إلى ١٩٤٢ حين سلمتها لبعض الاخوان الأصدقاء كى يقوموا بنشرها وكى أختص أنا فى التحرير السياسى . ولكنهم نزعوا نزعة

ديمقــراطية مسرفة لم ترض الاستعمار ، فألغيت فى تلك السنة بأمر عسكرى

وفى السنة التالية اشتريت امتياز جريدة يومية . وقبلت إدارة المطبوعات نقل الامتياز الذى أثبت فيه أنها « يومية » وذكر فيه الضمان بأنه ٣٠٠ جنيه أى ضمان جريدة يومية . وبعد أن قبل كل هذا وبعد أن استعددت لاصدار هذه الجريدة اليومية أقيلت وزارة الوفد . وفى اليوم التالى للاقالة فى أكتوبر من ١٩٤٤ أبلغتنى إدارة المطبوعات أن الجريدة شهرية وأنه لا يجوز لى أن أصدرها يومية .

وعندما أقارن بين صحافة الجيل الماضى (من ١٩٠٠ إلى ١٩٢٠) وصحافة الجيل الحاضر ، أجد أننا قد تقدمنا وتأخرنا . أجل ! تقدمنا فى فن الطبع والاخراج تقدماً عظيما جداً . فان جرائدنا ومجلاتنا تدل على رقى فنى يضارع أعلى المستويات الصحفية فى أوربا . ولكننا من حيث التحرير تأخرنا ؛ إذ ليس عندنا الآن من المحررين من يضارعون مصطفى كامل أو على يوسف أو لطفى السيد . وقد مات عبد القادر حمزة وهو آخر هذا الجيل المنقرض .

ولكن هناك مع ذلك علامة حسنة فى الصحافة الحديثة ، هى عنايتها الكبيرة بالأخبار الخارجية . فان هذه العناية ، التى كان مبعثها الحربين الأخيرتين ، تنير القراء وتربيهم على النظر العالمى وبحث سياستنا من الزاوية السياسية العالمية الكبرى . وهذا حسن . ولكن انسياق الجرائد وراء الاعلانات قد حد من حريتها واهتماماتها . فان جرائدنا مثلا تعنى بالميدان السينمائى ، الذى يغل لها الاعلانات ،أكثر

مما تعنى بالزراعة المصرية التى يعمل فيها الملايين ولكن لا تنتفع منهم الصحف بالاعلانات .

وقد دلتنى اختباراتى فى السياسة والثقافة على أن بضع مقالات فى السياسة أحياناً تعود بمثل الربح المالى الذى يعود من تأليف كتاب كامل قد احتاج إلى دراسة السنين . ولذلك فان التأليف فى مصر تضحية كبيرة لا يرضاها إلا المهوسون بالثقافة . ولذلك أيضاً أصبح كثير من الأدباء الذين افتتحوا حياتهم بالتأليف صحفيين .

وذات مساء فى ١٢ يوليه من هذا العام ١٩٤٦ كنت نائماً على الأسفلت فى غرفة مظلمة فى سجن الأزبكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والضرب والفسق والقتل واحتياز المخدرات وغير ذلك . وكانت تهمتى أنى أفكر وأكتب عن الاشتراكية أو الشيوعية. وكانت خشونة الأسفلت تمنعنى من النوم وتؤلمنى فأرقت . وأخذت ذاكرتى تعرض فلم حياتى الماضية ، فذكرت الحرية التى كنت أتمتع بها فى ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات فى « المستقبل » لو أن بعضها نشر هذه الأيام لقاد إلى السجن . وذكرت العناء الذى لقيتـه فى الدراسة والتأليف ، وعددت نحو عشرين كتاباً ألفتها لأبناء وطنى أخلصت فيها النية وبذلت المجهود كى أنير وأعلم ، وكى أسمو بالشباب إلى مثليات القرن العشرين وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية . ثم تأملت حالى على الأسفلت الخشن ، وكيف أنى لم أجمع مالا ولم أحصل حتى على الكرامة التى يستحقها من يخدم ويخلص فى الخدمة . وكان إلى جنبى نصف رغيف هو عشائى الذى قررته لى الحكومة المصرية

جزاء هذا العمر الذى قضيته فى خدمة مصر . وأخذت أفكر وأجترّ التفكير وعقلى يتضور من الألم ، إلى أن أصبح الصباح ودخل علينا رجل بقفة بها خبز ، فناولنى رغيفاً للفطور وضعته فوق نصف الرغيف الذى تناولته فى المساء السابق . وهكذا يفعل بنا الاستعمار والاستبداد المتحالفان .

كفاحى السياسى

كنت طوال إقامتى فى أوربا أدرس السياسة من الجرائد اليومية الانجليزية والفرنسية وأستمع إلى المحاضرات الحزبية التى يلقيها الدعاة والبارزون من الأحزاب . ولكن التفاتى إلى السياسة كان بمثابة النشاط الموجى على السطح . أما فى الأعماق فكانت التيارات التى تحفزنى وتوجهنى اجتماعية ثقافية . فقد كنت مثابراً على الملاحظة المباشرة للمجتمع الأوربى أقابل بينه وبين المجتمع المصرى فى مركز المرأة ونظام العائلة بل نظام البيت وأحوال العمال فى المدينة والريف والحرية أو بالأحرى الحريات العامة فى البيت والمجتمع والصحافة والخطابة . ومن ذلك الوقت إلى الآن (أى من ١٩٠٧ إلى ١٩٤٧) وأنا أكافح فى جبهات متعددة سياسية واجتماعية واقتصادية . وأحياناً تتداخل هذه الجبهات أو تمتزج حتى تصير جبهة واحدة . كما حدث مثلا فى ١٩٣٠ حين كنت أقف إلى صف الوفد فى مكافحة الطغيان الذى حاول اسماعيل صدقى باشا أن يعممه بعد أن ألغى دستور ١٩٢٣ كما سبق أن ألغى الانجليز دستور عرابى فى ١٨٨٢ . ولكن حتى فى هذه المعمعة السياسية التى هبت فيها الأمة تقاتل المستبدين والمستعمرين معاً كنت أيضاً أكافح كفاحاً آخر من أجل الاستقلال الاقتصادى . فألفت جمعية

« المصرى للمصرى » لايجاد وجدان وطنى اقتصادى .

وكانت الأحزاب السياسية فى أوربا قد شرعت حوالى ١٩١٠ تتجه اتجاهاً اشتراكياً . وكان هذا الاتجاه على أقواه فى ألمانيا وفرنسا وعلى أضعفه فى بريطانيا . بل الحق انه لم يكن فى ١٩٠٩ فى مجلس العموم الانجليزى غير اشتراكى واحد (من نحو ٦٠٠ عضو) يدعى فكتور جرايسون وكان يجمع بين حماسة الشباب وحماسة المذهب . وقد حاول ذات مرة أن يقسر المجلس على المناقشة فى شأن العاطلين . فقرر المجلس إخراجه وكان يلقى الخطب فى الاجتماعات الشعبية ويفخر بأن المجلس طرده . والغريب أن هذا الشاب اختفى فجأة ولم يعرف إلى الآن كيف كانت نهايته .

ولكن كان بمجلس العموم فى ذلك الوقت حزب للعمال وحزب آخر يسمى « العمال المستقلين » يتزعمه كير هاردى . ولكن هؤلاء العمال جميعاً لم يكونوا اشتراكيين مذهبيين ولم تكن الدعوة بينهم إلى الاشتراكية بل كانت دعوة متواضعة قانعة بزيادة الأجور للعمال وترقية أحوالهم المعيشية . وقد زرت كير هاردى فى غرفته المتواضعة فى لندن فى ١٩٠٩ . وكان اسكوتلندياً فى وجهه سماحة وطيبة قد أرخى لحيته . وكان يصر على اتخاذ قبعة العمال المخصوفة من القش . وكانت سكرتيرته آنسة مثقفة جاءت بعد ذلك إلى مصر وتولت رياسة التحرير لجريدة « الاجبشيان جازيت » . وكان السبب لزيارتى لكير هاردى أنى قرأت له كتيباً عن الهند شرح فيه ما رآه فيها من المظالم البريطانية للهنود . ورأيت فى هذا الكتيب ما يثير وما يبعث على التفكير

فيما يفعله الانجليز فى مصر . ولما قابلته قال لى إنه اشتراكى وأن الاشتراكية سوف تعم أوربا ، ثم تنتقل إلى سائر القارات . وأن الاستعمار البريطانى يجب أن يزول من مصر والهند وأن واجبنا الوطنى الأول فى مصر هو إخراج الانجليز ثم إيجاد الاصلاحات الاجتماعية فى المجتمع المصرى .

وكانت الخطوط السياسية التى نراها الآن فى السياسة العالمية فى ١٩٤٧ واضحة فى أوربا فى ١٩١٤ . ولكن الخطوط اليمينية كانت وقتئذ أبرز من الخطوط اليسارية . أى أن أصوات الاستبداد والاحتكار والحرب والاستعمار كانت عالية تنطق بها دولة القياصرة فى روسيا ودولة السلاطين فى تركيا ، ثم دولتا الوسط فى أوربا . وأخيراً الامبراطورية البريطانية وفرنسا . أما فى ١٩٤٧ فان هذه الدول جميعها ، باستثناء بريطانيا ، قد زالت وأخذت الجمهوريات مكانها . كما أن الأكثرية السياسية للأحزاب قد أصبحت يسارية للاشتراكيين والشيوعيين فى جميع أوربا المتمدنة . وقولنا « المتمدنة » يستثنى بالطبع أسبانيا وبرتغال حيث الفاشية لا تزال حية . وهذا اتجاه واضح لا يخطئه إلا المغفلون أو المتغافلون .

وقد أصبحت من تلك السنين أتوسم الأحزاب وأرود المستقبل فى ضوء هذه الاتجاهات الاشتراكية العالمية . ولذلك لم تفاجئنى الأحداث الكبرى مثل حرب ١٩١٤ التى بعثتها المباراة الاقتصادية بين ألمانيا وبريطانيا ، أو مثل حرب ١٩٣٩ التى بعثها الصراع بين أحزاب اليمين من المحافظين وبين أحزاب اليسار من الاشتراكيين والشيوعيين .

وإن كانت هذه الحرب قد فقدت منذ بدايتها تقريباً روحها المذهبى واستحالت إلى النزاع الاقتصادى القديم بين بريطانيا وألمانيا كما دخلت فيها مركبات اقتصادية أخرى .

ولما عدت من أوربا وضعت رسالة صغيرة عن الاشتراكية . كما وضعت قبل ذلك رسالة أخرى عن « السبرمان » أى إنسان المستقبل . وكذلك لخصت كتاب جرانت الين عن « نشوء فكرة الله » . وترجمت نحو ١٢٠ صفحة من قصة « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى . وكل هذا النشاط قمت به فيما بين ١٩٠٩ و ١٩١٤ . وهو يدل على أن أفكارى العامة الحاضرة كانت تتبلور فى ذهنى : السياسة الاشتراكية والأدب الروسى والفلسفة الداروينية مع النفور من الغيبيات .

وفى ١٩٢٠ عقب الثورة هبت ريح الحرية فى الجو المصرى المكظوم فألفت أنا والمرحوم الدكتور العنانى والأستاذ محمد عبدالله عنان والأستاذ حسنى العرابى ، الحزب الاشتراكى . وأرخى لنا المستعمرون الحبل كى يعرفوا مدى نشاطنا والاستجابة التى نلقاها من الشعب . والحق أنها كانت استجابة حسنة . ويبدو أننا كنا نسير فى اعتدال ونتقى المصادمات . وترجمت فى ذلك الوقت « نداء إلى الشباب » لكوربتكين وهو الأمير الروسى الذى ترك إمارته أيام القيصر نقولا وانقلب كاتباً ومؤلفاً وداعية للاشتراكية . ولكن حدث فجأة أن أحدنا الأستاذ حسنى العرابى وجد فينا بطئاً لم يطق له صبراً . فقصد إلى الاسكندرية وأعلن « الحزب الاباحى » . وكلمة « إباحى » كان يقصد منها ما يفهمه الجمهور الآن من كلمة شيوعى . وانشق عنا

وانضم إليه كثير من الشبان الذين سرقوا دفاتر الحزب وقضوا عليه . وماتت حركتنا وقضت الحكومة على حسنى العرابى بحبسه ثم تشريده فى أوربا . فقد سافر إلى ألمانيا وما هو أن بلغها حتى صدر قرار من مجلس الوزراء بحرمانه من الرعوية المصرية كى يمنع من العودة إلى مصر . وكثيراً ما اشتقت أنا إلى السفر إلى أوربا ولكن خوفى من أن يلحقنى مثل هذا القرار كان يحملنى على الدوام على النكوص . وليس على هذا الكوكب أمة تحرم أبناءها من رعويتهم إذا كرهت منهم مذاهبهم السياسية غير مصر . وهذا الحرمان من الرعوية يشبه ، فى صيغة عصرية ، الحرمان من الكنيسة أيام القرون المظلمة . ولكنه الاستعمار البريطانى يحالف الاستبداد المصرى على مطاردة كل من كان يتوهمان فيه خطراً على مركزهما الممتاز فى مصر .

والاشتراكى المصرى يجد نفسه فى صف واحد مع الوفد . لأن الوفدية هى فى صميمها الدعوة إلى الاستقلال . ولا يمكن اشتراكياً أن يفكر فى أى برنامج اشتراكى ما لم يكن الاستقلال محققاً ناجزاً . ومن هنا الكراهة البريطانية لجميع الحركات الاشتراكية فى العالم وليس فى مصر وحدها .

والاشتراكية والاستعمار ضدان لا مصالحة بينهما ، فالأولى تعاون ومساواة وعدل والثانى استغلال وامتياز واحتكار وخطف . ولذلك أيضاً نجد أن جميع الاشتراكيين فى مصر هم قبل كل شئ وطنيون غالون فى وطنيتهم لا يطلبون الاستقلال لمصر وحدها بل للهند والجزائر والعراق ومراكش وغيرها .

وتحدث أحياناً مصادفات مشئومة . فقد كنت فى ١٩٢٥ أو حوالى ذلك أكتب للبلاغ . وكان زيور باشا قد قام بأولى المحاولات لرد الأمة إلى عصر توفيق أى إلى حكم أتوقراطى بلا دستور أو بدستور صورى . فكتبت مقالا قلت فيه إن زيور يشبه أبا الهدى فى حكومة عبد الحميد . وكان اسم أبى الهدى يزكم الجو بالدسائس والاستبداد . وكتب الأستاذ عبد القادر حمزة (باشا) ، دون أن يعرف مقالى ، مقالا آخر قال فيه إن مصر تحكم كما لوكانت تركيا أيام عبد الحميد. وقضت المصادفة بأن يخرج المقالان معاً كأن هناك مغزى مقصوداً . وقصدنا إلى بيت الأمة حيث قابلنا سعد باشا الذى أنذرنا بخطورة المقالين وبأن النيابة العامة سوف تقوم بالتحقيق معنا فى شأنهما . وكان سعد باشا فى سنيه الأخيرة حتى لقد لاحظت أن ساقه كانت ترتعش ولكنه كان يقظ الذهن دكتاتورى اللهجة .

وقد سبق أن قلت إن كفاحى السياسى كان يمتزج فى أحيان كثيرة بكفاحى الاجتماعى أو الاقتصادى . ولذلك ألفت فى ١٩٣٠ جمعية المصرى للمصرى كى أبعث الوجدان الاقتصادى للامة . وكنا نجد فى تلك السنة ، حين ثار إسماعيل صدقى باشا على الدستور وألغاه ، أن دعوتنا للمصرى للمصرى تتفق ومقاطعة البضائع الانجليزية . ووجدت هذه الحركة حماسة كبيرة بين الشبان . وكنا نحتم على أنفسنا اتخاذ جميع ملابسنا الخارجية والداخلية من الأقمشة المصرية باستثناء الطربوش . ولكن حتى هذا وجد من يصنعه من الصوف المصرى الأبيض . وقد أرسل إلى أحد المتحمسين مثالا منه هدية يطلب منى

اتخاذه بدلا من الطربوش الأحمر الذى كان يرد إلينا من أوربا . وقد كان الأستاذ أحمد حسين رئيس جماعة مصر الفتاة وكيلا لجمعية المصرى للمصرى فى كلية الحقوق حين كان طالباً بها . فلما كافحنا اسماعيل صدقى باشا ، وقتل من مجلاتنا التى كانت تنشر دعوتنا أكثر من عشر مجلات ووقفنا مضطرين عن الحركة ، عمد أحمد حسين إلى إحيائها أو بعثها ولكن بصورة قد يستنكرها البعض . والحق أنه كان فيها كثير مما يستنكر مثل الهجوم على الحانات أو مداعبة الآراء الفاشية ومدح موسولينى أو هتلر ونحو ذلك .

ولا بد أن أذكر أنه كان لاستقلال الهند مكانة كبيرة فى تفكيرى السياسى . وعندى أن مشكلة الهند بل مشكلة أى مستعمرة فى العالم هى أيضاً مشكلة لمصر . لأن استقلالنا يقتضى مكافحة الاستعمار أينما وجد . ولذلك ألفت كتابى عن «غاندى والحركة الهندية» . وأعجبنى من غاندى أنه كان ولا يزال يكافح فى جبهتين هما الانجليز المستعمرون والتقاليد الهندية التى فسدت وتقيحت فى جسم الأمة الهندية المريضة . كما أنه بعث نشاطاً اقتصادياً بتعميمه المغزل بين الريفيين . ولقد أرسلت إليه فى ١٩٣١ خطاباً أطلب منه المؤلفات الخاصة بحركة الغزل والنسج التى يقوم بها بين الفلاحين الهنود وأيضاً بعض أدوات الغزل التى تستعمل فى الهند . فأرسلها كلها إلىّ . ولكنا بعد الدرس لموضوع الغزل لم نجد أننا قادرون على إيجاد مثل هذه الحركة فى مصر . ذلك أن المغزل اليدوى قليل الانتاج لا يغل للغازل عيشاً كافياً فى مصر . وإن كان يغل هذا العيش الكافى للفلاحين الهنود لأن مستواهم الاقتصادى

دون مستوى فلاحينا . ولكن وزارة التجارة والصناعة تحاول الآن في ١٩٤٧ أن تجد مغزلا ريفياً يستحق عناية فلاحينا ويشغل فراغهم فى بعض أشهر الشتاء .

وهذا النشاط الاقتصادى أو الوطنية الاقتصادية التى قمنا بها فى ١٩٣١ قد بعثت روحاً جديداً من اليقظة والاحساس الوطنى . حتى لأذكر أن ضابطاً من البوليس حضر لتفتيش مكتبى فى إحدى الهجمات التى كانت تتوالى علينا لضبط مجلاتنا ومصادرتها . فلما شرع يقرأ الخطابات الواردة إلينا من أنحاء القطر بشأن الصناعة والتجارة المصرية تغير موقفه فصار يدعو لنا بالنجاح ويمزق بنفسه الأوراق الخطرة .

وهنا يجب أن أذكر شخصية نبيلة قد فارقتنا للأسف منذ أربع سنوات هى المرحوم محمد عبد الصمد مدير مدارس رقى المعارف فى شبرا . فانه كان وكيل جمعية المصرى للمصرى حين كنت أنا رئيساً لها . وكنت قد كتبت مقالا أدعو فيه إلى إنشاء متجر فى شارع فؤاد لا يبيع غير المصنوعات المصرية. وكانت البضائع المصرية لا تباع إلا فى الأزقة النائية فى السكة الجديدة فى أطراف شارع الموسكى . ولما قرأ المرحوم طلعت حرب هذا المقال بعث إلىّ وأخذ يناقشنى فى هذا الموضوع . وخرجت من عنده قاصداً إلى المرحوم محمد عبد الصمد حيث اتفقنا على أن يعرض ألف جنيه يساهم بها فى هذا المشروع . ونشرت هذا العرض مع صورة الشيك فى الصفحة الأولى من إحدى المجلات التى كنت أنشرها . وكان هذا العرض بذرة المتجر القائم الآن باسم « شركة مصر لبيع المصنوعات المصرية » فى شارع فؤاد .

ويجب ألا أنسى هنا أنى فى كفاحى السياسى ألتفت إلى موضوعين أحدهما هو بعث النخوة الوطنية عن سبيل الاكبار من شأن الفراعنة . وقد وجدت ما يزيدنى تأييداً لهذه الدعوة بما استفاض فى أوربا عامة وبريطانيا خاصة من أن مصر هى التى بعثت الموجات الأولى من الحضارة القديمة إلى أنحاء العالم وأخرجت الانسان من العصر الحجرى إلى عصر الزراعة . وكتابى « مصر أصل الحضارة » يقوم على هذه المعانى ويشرحها . أما الموضوع الثانى فهو الاكبار من شأن عرابى. فقد نشأنا على أن هذا الوطنى العظيم كان خائناً لمصر وأنه هو السبب لاحتلال الانجليز لوطننا . والحقيقة أن من يقرأ تاريخ هذه الشخصية المصرية المقدسة يتعجب للخسة التى بعثت خصومه على سبه والحط من شأنه . وليس فى تاريخ مصر منذ أكثر من ألف سنة من خدمها بروح الشرف والوطنية والنزاهة مثل عرابى . وقد كانت ترجمة كتاب بلنت « التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر » من الجهود السارة التى قمت بها لجريدة « البلاغ » . لأن المؤلف كان صديقاً لعرابى وكان واقفاً على أهدافه الوطنية السامية .

وكذلك لا أنسى أنى فى سبيل الكفاح السياسى ألفت كتابين أحدهما « حرية الفكر وتاريخ أبطالها » فى ١٩٢٧ سردت فيه أطوار الكفاح التاريخى من أجل الحرية سواء عند الأمم العربية أم فى أوربا . ثم عدت فى ١٩٤٦ فأخرجت كتيباً بعنوان « حرية العقل فى مصر » طلبت فيه إلغاء قوانين المطبوعات التى تحد من حرية الكتابة والصحافة وإلغاء إدارة المطبوعات التى تطلب استخراج « رخصة » عندما يرغب

أحدنا فى إصدار مجلة أو جريدة . والغريب أنه فى نفس هذه السنة (١٩٤٦) عاد حكم إسماعيل صدقى باشا المشئوم . فأصدر مشروع قانون لزيادة الحد من حرية الصحافة التى لا يطيقها هذا الرجل . وتقدم وزير سابق هو الأستاذ فؤاد سراج الدين باشا لطلب امتياز أى رخصة لجريدة يومية فرفض طلبه . ومثل هذه الجراة ليس لها نظير فى أية أمة متمدنة على هذا الكوكب . أعنى جراة رجل مثل إسماعيل صدقى باشا على أن يفكر فى زيادة القيود للصحافة المصرية وعلى أن يمنع وزيراً سابقاً من أن يصدر صحيفة .

وكلما فكرت فى كفاحنا السياسى أحس ألماً للعقم الذى لازمه إلا القليل من الثمر الذى حاول المستبدون والمستعمرون إفساده . فقد أثمر هذا الكفاح دستوراً غيره المستبدون مرة ثم عطلوه مرة ثم ألغوه واستبدلوا به آخر مرة . ونجحوا فى أن جعلوا ديمقراطيتنا كاريكاتورية . ولكن مما يبعث السرور إلى نفسى أنى لم أتضعضع ولم أترك المعسكر الوطنى لمكافحة المستبدين والمستعمرين كما فعل كثير ممن طمسوا النور الذى كان فى قلوبهم وأطفأوا وهج نفوسهم كى يصلوا إلى حياة أو مال فانحازوا إلى الاستعمار الأجنبى أو الاستبداد الوطنى .

فى خدمة الشباب

منذ أن تأسست جمعية الشبان المسيحية فى القاهرة حوالى ١٩٢٢ وأنا عضو فيها . ولكن عضويتى كانت شكلية إذ كنت قليل الزيارة لها . وبقيت على ذلك نحو ست أو سبع سنوات حين طلب منى سكرتيرها الأستاذ نجيب قلادة أن أقبل المناظرة مع الأستاذ توفيق دياب بشأن الأدب المكشوف والأدب المستور . وكنت أنا فى موقف الدفاع عن الأدب المكشوف باعتبار أن الأدب يجب أن يكون حراً طليقاً لا يتقيد بأى قيد سوى ضمير الكاتب . وكان الأستاذ توفيق دياب يرى أنه يجب أن تكون هناك قيود وحدود اجتماعية لا يجوز للكاتب أن يتجاوزها .

وأحدثت هذه المناظرة اهتماماً بين الشبان ولغطاً غير مثير فى المجلات . وحوالى ١٩٢٩ زاد اتصالى بالجمعية وعرفت سكرتيريها الأمريكيين والمصريين ، ثم حوالى ١٩٣٣ رغب إلى الأستاذ نجيب قلادة كى أكون مستشاراً للمكتبة . ومنذ تلك السنة إلى الآن وأنا أزور الجمعية نحو ثلاثة أو أربعة أيام كل أسبوع تقريباً .

ورأيت فى اتصالى بالشبان فائدة كبيرة لى ولهم . فقد كانت مهمتى الأولى أن أوجههم إلى القراءة وأعين لهم الكتب التى يستطيعون

الانتفاع بها سواء أكانت عربية أم انجليزية أم فرنسية . وكنا نعقد اجتماعاً كل يوم اثنين نتحدث فيه حديثاً « عائلياً » وكنا قعود بعضنا يشرب الشاى أو يدخن على مقاعد مريحة . وكانت أحاديثنا تتناول بالطبع مشكلات الشباب سواء أكانت ثقافية أم جنسية أم عائلية . ولذلك كان الاتجاه الجنسى يزداد بروزاً فى هذه الأحاديث . ومن هنا الفائدة التى وجدتها لنفسى من هذه الأحاديث . فان هؤلاء الشبان كانوا « المواد الخامة » التى استطعت أن أدرس بها الطبيعة البشرية .

ذلك أن هؤلاء الشبان كانت تترجح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين . ولذلك كانت المشكلة الجنسية بارزة عندهم جميعاً . وهذه المشكلة الأصلية تحرك مشكلات عائلية واقتصادية واجتماعية أخرى. وكثيراً ما وجدت أن أحد الشبان كان مثقلا أو مرهقاً بالعاطفة الجنسية التى كان يتخلص منها بالعادة السرية . وكثيراً ما كنت أجد أن الخيبة فى الامتحانات المدرسية تعود إلى الانغماس فى هذه العادة التى يزيد خطرها فداحة أن الجنسين لا يختلطان. فان اعتزال كل جنس للآخر يحمله على الاستسلام للخيال ثم يلتزم هذا الخيال حتى يعود وكأنه فى « شيزوفرنيا » أى هذا الجنون الذى يتسم بالاستسلام التام للخيال والانفصال التام من الواقع ومن المجتمع .

وكثيراً ما فكرت فى هذا الموضوع المعقد أى كيف يرفه الشاب الأعزب المرهق بالعاطفة الجنسية عن نفسه فى مجتمعنا المصرى الانفصالى. وما زلت أذكر شاباً كان حوالى العشرين جاء إلىّ فى ذل وصغار يلمح أحياناً ويصرح أحياناً بأنه لا يطيق حالته وأن يوشك على عمل خطير

إن لم يتخلص من العادة السرية . وكان قد أمعن فيها حتى صار يحلم أحلاماً جنونية وكان يبقى طوال النهار التالى وهو مكتئب بسببها لأن هذه الأحلام كانت تبدو له حقيقية ، وبكلمة أخرى شرع عقله يختلط .

ورأيت أن أنصح له بالرقص مع إحدى الفتيات . ونفر هو من هذا الاقتراح كما كان ينتظر لأن المستسلم لهذه العادة يؤثر الانفراد والخيال ويكره الاختلاط والواقع . ولكنى بعد جهد استطعت أن أقنعه بأن يحاول هذه التجربة ، إذ لعلها تنجح . وكان له أصدقاء يرقصون فرافقهم ، وبعد المحاولات الأولى الفاشلة تم التعارف بينه وبين بضع فتيات وحذق بعض الرقصات وصار يزور المراقص .

ورأيته بعد نحو شهرين فخلوت به وسألته عن حاله فأخبرنى ، وأنا فى دهشة عظيمة ، أنه منذ أن رقص كفّ عن العادة السرية . وكان تعليله عجيباً . فقد قال إن فى الرقص من الشهامة والذوق والجمال ، وهى صفات تلازم الرقص ، ما يناقض الذلة والصغار والحقارة التى فى العادة السرية . وتأملت الشاب وهو يصرح بهذه الكلمات فوجدت فى وجهه وإيماءته مصداق ما يقول ، فقد ذهب عن وجهه التردد والخوف وازدان بجرأة وشهامة .

وكان فى هذا الكلام نور لى . وبالطبع كانت الحالات تختلف . فهناك من كان ينجع فيه النصح بالاهتمام بالكتب والثقافة . وهناك من كان يجد فى النجاح المدرسى ما يشغله عن هذه العادة . ولكن الرقص كان من أعظم الوسائل الشفائية وخاصة للحالات الخطيرة .

وهذه المشكلات اضطرتنى إلى أن ألقى أحاديث عديدة للشبان

عن السيكلوجية . وكتابي الأخير في هذا الموضوع « عقلى وعقلك » قد ناقشت فصوله قبل كتابتها معهم في قاعة المكتبة . وكثير من مؤلفاتي قد ألقيت فصولها أحاديث عائلية وطرحت للمناقشة مع الشبان، مثل « البلاغة العصرية واللغة العربية » و « الشخصية الناجعة » و « التثقيف الذاتي أو كيف نربي أنفسنا » و « فن الحياة » وهذه الكتب على ما يبدو من أسمائها تختلف في الموضوعات ولكنها تتفق في أن وجهتها جميعاً سيكلوجية .

وكثير من أفراد الجمهور يعتقد أن جمعية الشبان « المسيحية » خاصة بالمسيحيين مع أن الحقيقة أن بها نحو ٣٠٠ أو ٤٠٠ عضو مسلم وبها عدد كبير من اليهود . وقد حدث أن أحد الطلبة من الأزهر جاءني في ذات يوم وطلب إلى أن أدله على المكان الذي يستطيع أن يشترى منه الكتاب الذي ألفته أو طبعته الجمعية عن الاسلام . وكان يعتقد أن هذه الجمعية تبشيرية وأنها لا هدف لها سوى التبشير بالمسيحية . فلما أخبرته أني لا أعرف هذا الكتاب وأن بالجمعية نحو ٤٠٠ عضو مسلم لايعرفون أيضاً دهش وتركني وهو لا يكاد يصدق . والتبشير هو أبعد الأهداف عن هذه الجمعية . وفي ١٩٣٧ ثم في ١٩٣٨ كان للجمعية مصيف قرب العريش وكان المصطافون من الأعضاء المسلمين والمسيحيين واليهود . وكانت العادة أن نبدأ الفطور بصلاة قصيرة يتناوب فيها مسلم بقرآنه أو يهودى بتوراته أو مسيحى بانجيله .

ومما تمتاز به هذه الجمعية أنها دائبة في التطور وهي تتكيف بالبيئة . ففي العالم نحو مليوني شاب وفتاة في فروع هذه الجمعية . ولكن نظامها

فى الهند غير نظامها فى مصر أو فى برازيل أو فى الصين . وإليك بعض مراحل التطور فى جمعية القاهرة :

١ — حوالى ١٩٢٦ أنشأت الجمعية قسما للصبيان الذى تترجح أعمارهم بين ١٠ و ١٦ سنة . ويرأس هذا القسم الأستاذ يعقوب فام الذى تعلم فى جامعة ييل بالولايات المتحدة قيادة الصبيان وإرشادهم وتكوين شخصياتهم وتقويم أخلاقهم . ولا يزال هذا القسم يربى وينشئ الصبيان وهو مفخرة للجمعية .

٢ — حوالى ١٩٣٣ أنشأت الجمعية نادى كوبرى الليمون للصبيان المحرومين الذين يجمعون من الأحياء الفقيرة ويعلمون كيف يقضون وقتهم فى أعمال وألعاب تعاونية اجتماعية تبعدهم عن التسكع فى الشوارع . وهذا النادى هو أولى الحركات الارتيادية لتعليم الصبيان الفقراء فى مصر .

٣ — حوالى ١٩٣٩ شرعت الجمعية تجيز التحاق الفتيات كى يختلطن بالشبان . وقد سارت على حذر فى هذا المشروع فكان الاختلاط يحدث أولا مع عائلة الفتاة حتى إذا ألفت الفتاة هذا الاختلاط صار لها أن تحضر وحدها . وقد أدى هذا الاختلاط بين الشبان والفتيات ، تحت أعين المشرفين اليقظة ، إلى مظهر جديد من الشخصية للفتيات وإلى لباقة ورشاقة فى الحديث والايماءة بين الشبان . فان من المناظر السارة أن نجد فى الحديقة جماعة من الشبان والآنسات ، أكثرهم بل ربما جميعهم من الطلبة والطالبات ، يقعدون إلى المائدة يشربون

الشاى ويتحدثون فى أنسة وصراحة لم نكن نحلم بمثلهما فى شبابنا . ويرأس هذا القسم الأستاذ حنا قام الذى تعلم أيضاً فى الولايات المتحدة ودرس هناك شئون « الواى » أى جمعية الشبان المسيحية .

وقد عاون قسم المكتبة فى الجمعية على هذا الاختلاط بما أسماه « يوم العائلة » حيث يعقد اجتماع مسائى يوماً فى الشهر من عائلات الأعضاء الذين يتناولون الشاى ويستمعون إلى حديث قصير من إحدى السيدات أو الآنسات المشتغلات بالشئون الاجتماعية أو الثقافية . وفى خلال الاجتماع تعزف الموسيقا أو تجرى ألعاب للتسلية ، والفضل فى ذلك للأستاذ غالى أمين الذى تعزى إليه أفضال كثيرة أخرى فى تنظيم المحاضرات والاجتماعات بالمكتبة . وهو الآن فى امريكا .

وفى الحرب الكبرى الثانية نشط البوليس السياسى فى القاهرة ومنعنى من إلقاء محاضرات فى الجمعية إلا بعد أن تعرض على وزارة الداخلية التى توافق على إلقائها أو ترفضها . فكنت أكتب المحاضرة أو كما نسميها فى الجمعية « الحديث » ، ثم أرسل هذا إلى المحافظة فيبقى أحياناً عشرين يوماً قبل أن يرد إلى مع عبارات قد ضرب عليها حتى لا أقولها . ثم يحضر عضو من البوليس معه نسخة من الحديث . فأقرأ أنا الحديث أمام الأعضاء ويراجع هو علىّ حتى لا أخالف ما هو مكتوب . وبعد نحو شهرين من هذه الحال رأيت أن الكف عن إلقاء الأحاديث أسلم ، وكففت . وكتابى « التثقيف الذاتى أو كيف نربى أنفسنا » قد روجع معظمه فى وزارة الداخلية على هذا الأساس . فقد كنت ألقيه أحاديث تقرأ وتراقب قبل الالقاء . . .

وقد تأسست « جمعية الشبان المسلمين » على غرار جمعية الشبان المسيحية . ولكن العضوية قصرت فيها على المسلمين دون المسيحيين واليهود . وهذا عيب كبير لأن جمعيات الشبان المسيحية هى منظمات عالمية يراد بها الاخاء البشرى الذى يتجاوز الاختلافات المذهبية والدينية والعنصرية .

وأحب أن أذكر شيئاً عن سكرتيرى هذه الجمعية فى القاهرة . فقد مر ذكر الصديقين يعقوب فام مدير قسم الصبيان وحنا فام مدير قسم الطلبة . وكلاهما كما قلت قد تعلم فى الولايات المتحدة على نفقة الجمعية تعليما إخصائياً للعمل الذى يقوم به . وقسم الصبيان هو دار الشفاء للصبيان الذين ينتئسون بالبيت أو يفسدون بالشارع أو هو دار وقاية أكثر مما هو دار شفاء . وقسم الطلبة من التجديدات الرائعة فى الجمعية. والاتجاه نحو الاختلاط بين الجنسين فى هذا القسم قد أثمر خير الثمرات ولم يحدث قط ما يدعو إلى الأسف .

وهناك الأستاذ مراد عصفور مدير القسم الرياضى . وهو أيضاً قد أرسلته الجمعية إلى الولايات المتحدة كى يتعلم ويعود للقاهرة لادارة الرياضة فى الجمعية ، وأخيراً هناك السكرتير العام وهو الأستاذ نجيب قلادة . وهو شخصية محببة قد اندغمت حياته فى حياة الجمعية حتى لأظن أنه يحلم بها فى نومه . وهو رجل متبصر يحسب للمستقبل كثيراً ولا يتهور .

أما الشخصيات الأمريكية التى عرفتها بالجمعية فكثيرة ، اقتصر منها على ذكر اثنتين فقط . الأولى شخصية السكرتير العام للجمعيات فى

الشرق الأوسط وكان يدعى ولبر سمث . وكان أعرج قد قطعت ساقه إلى الفخذ منذ الشباب لأن الدرن كان قد ضرب فى عظمها . وكان مع عرجه يسوق الأتوبيل ويلعب التنس ويخطف درجات السلم . وكان نشاطه عجيباً حتى بعد الثانية والستين . يقرأ ويلعب ويختلط بالأعضاء . وكثيراً ما كنت أتعجب لوفرة ثقافته مع وفرة اهتماماته بشئون الجمعية . وإنى أذكر أنى ناقشته أكثر من ساعة عن فولتير وقيمته فى حركة التحرير والتنوير فى أوربا . وكان يقتنى الكتب وينفق عليها فى سخاء. ولم تكن المناقشة معه محدودة أو مقيدة فى أى موضوع . وهذا هو روح المناقشة فى قاعة المكتبة على الدوام . وهذا هو بالطبع ما أدى إلى هواجس وزارة الداخلية وتدخلها للرقابة أيام الحرب .

وهناك شخصية أخرى هى جيمس كواى . وهو أمريكى بقامته ووجهه وأخلاقه وميوله . فقد كان معنا حين كنا نصطاف بالعريش فكان ينزل البحر عريان كما ولدته أمه فى حين كنا نحن نعجز عن التخلص من رواسب الحجاب فكنا لا ننزل البحر إلا بعد أن نتخذ الكلسونات . ومما يدل القارئ على أسلوب المعاملة الذى يتبعه هذا الأمريكى مع خادمه أنه ، حين كان يمنح إجازته وهى سنة كاملة يقضيها فى الولايات المتحدة إزاء كل أربع سنوات يقضيها فى القاهرة ، كان خادمه يقضى هذه السنة بلا عمل ينتظر رجوعه . ومن الشعائر التى كان كواى يتبعها أيضاً مع خادمه هذا أنه كان يدعوه هو وعائلته ، عائلة الخادم ، إلى مائدته وتقوم المسز كواى بتهيئة الطعام وتقديمه لهم باعتبارهم ضيوفاً . وفى هذه المجاملة مغزى إخائى لا يستهان به .

وفى أثناء الحرب الكبرى الأخيرة تبرعت حكومة الولايات المتحدة بنحو ألف جنيه للمكتبة لشراء كتب أمريكية . وقد انتفعنا كثيراً بهذه الهبة .

وأخيراً أقول إنه إذا كانت الجمعية قد انتفعت بى باعتبارى مرشداً ثقافياً فانى أنا أيضاً قد انتفعت بها بالوقوف على اتجاهات الشبان ومشاكلهم . وعندما أذكر بعض هذه المشاكل وإنه كان لى بعض الفضل فى إزالتها يغمرنى سرور عظيم .

وقبل نحو أربعين سنة كنا لا نعرف غير القهوة مكاناً نقعد فيه وننفر من البيت إليه . وكانت بيوتنا خالية من وسائل الراحة ولا نقول الرفاهية . سيئة الطراز فى البناء سيئة الجوار سيئة الأثاث . وقد تحسنت هذه الحال شيئاً بين الطبقة المتوسطة ولكنها ازدادت سوءاً بين الطبقات الفقيرة . ومثل جمعيات الشبان المسيحية وأيضاً نادى كوبرى الليمون ملاذ يلجأ إليه الشاب أو الصبى ويتعود فيه المطالعة والمناقشة والحديث وألعاب التسلية النظيفة . بل يتعلم فيه الاختلاط المهذب مع الجنس الآخر . وهذا ما لم نكن نحلم به فى شبابنا . ولذلك نجد أن للشاب الذى قضى سنتين أو ثلاثاً فى عضوية الجمعية سمات لا تخطأ . فهو لبق متحدث أنيس لا يعرف القعود على القهوة يدرس السياسة ويقتنى الكتب ولا يخجل ذلك الخجل المربك من الحديث إلى الجنس الآخر . وكل هذه العادات قد تعودها من الجمعية .

من الأفلام الماضية

نستطيع أن نجمع الضوء بالعدسة فتتلاقى أشعته المتفرقة فى بؤرة هى أضوأ نوراً وأكثف أشعة . وليست هناك عدسة للزمن حتى تجمع فيها ساعاته ودقائقه فى ثانية أو ثوان . . . ولكن وجداننا يقوم أحياناً ، فى المآزق والضائقات مقام العدسة ، بحيث نعيش فى لحظة خاطفة سنين طويلة ، كما يحدث مثلا عند ما نوشك على الغرق ويغشانا الماء ونتعلق بين الحياة والموت . فى هذه الحال ينبسط أمامنا « فلم » من الذكريات التى مضت عليها السنين . . .

كنت مرة على جزيرة وايت حوالى سنة ١٩٠٨ ، فى جنوب انجلترا ، وكنت أسير على شاطئ صخرى هاو يرتفع أكثر من مائة متر . . . وبينا أنا فى سيرى أتأمل البحر إذا بقطيع من الغنم تتقدمها كباش قد برزت قرونها فى وحشية مروعة تتجه نحوى فى هرولة طار لها عقلى فوثبت كى أتجنبها . ولكنى فى وثبتى رأيتنى على حرف الهاوية أكاد أسقط . وفى تلك اللحظة الحرجة رأيت فلماً من أفلام طفولتى يمر بذاكرتى فى سرعة برقية .

فهنا مأزق من مآزق الحياة قل إن خلا أحد من تجربته أو مايشبهه : خطر داهم يجمع ذكرياتنا فى بؤرة تسطع منيرة فى وجداننا . . . ولذلك نذكرها طوال حياتنا . ولكن هناك تجارب أخرى يتكاثف

فيها الزمن ويتجمع فى وجداننا . وهى أيضاً نتيجة المأزق الحرج الذى لا يبلغ الموت ولكنه يدانيه فى عمق الاحساس وتنبه الوجدان .

وليس من الضرورى أن يكون هناك خطر متوقع ، ولكن لابد أن يكون هناك ألم يحز كأنه الموت . كنت ذات مرة فى باريس أجلس على قهوة ومعى إخوان نتحدث عن السياسة . فتطور الحديث إلى نقاش حام . فاحتد أحد الشبان الفرنسيين علىّ لأنى خالفته وقال لى : « لا تناقش . . . ليس لك هذا الحق. الانجليز أسيادكم ! »

وتبالهت . وتضاحكت . . . ولكنى شعرت كأنى شربت سما ، وأن أمعائى تتمزق . ونهضت وقصدت إلى غرفتى ، وانبطحت على السرير وأنا أبكى . وبعد ذلك لم أكن أصطدم فى أى مدينة فى أوربا بأى شخص أقل مصادمة إلا ويهتف بى صوت داخلى : « الانجليز أسيادكم ! » فأذل وأتمزق .

وفى الحرب الكبرى الأولى كان شباننا يؤخذون قسراً من القرى فيربطون بالحبال وينقلون إلى فلسطين . وكان الكثيرون منهم يموتون أو يعودون وهم حطامات بشرية ، قد فقدوا أنفع أعضائهم . وذات يوم كنت على محطة الزقازيق فاذا بى أرى شاباً لم يبلغ العشرين ، وإلى جانبه شيخ هرم كأنه أب أو عم لهذا الشاب . وكان الشيخ دائب الكلام فى حرارة وعطف ، حتى كاد رأسه أن يمس وجه الشاب ، فاقتربت منهما . ولكنى فزعت من هول ما رأيت . ومازلت

أفزع من هذه الذكرى . . . فقد كان الشاب فاقد البصر من غبار فلسطين وسينا ، وعاد أعمى لا يرى نور النهار . . . وكان الشيخ يواسيه بكلمات كاذبة ، والشاب ينصت فى جمود وصمت كأنه لا يسمع .

وأحسست ، وبينى وبينهما أقل من مترين ، كأنى مجرم . وكأنى مسئول عن هذه الكارثة التى نزلت بهذا الشاب . وجف حلقى ووددت أن أقول للشيخ شيئاً . ولكن جمود الشاب جمدنى . وبقينا ثلاثتنا على هذه الحال . إلى أن جاء القطار الذى حملهما إلى قريتهما . . .

وقد مضى على هذه الحادثة نحو ٢٨ سنة . ولكنى عند ما أخلو لنفسى ، يعود « الفلم » فينبسط أمامى وأستعيد كل كلمة وأرى كل حركة من حركات الشيخ المواسى والشاب الأعمى . ثم تتمزق أمعائى عندما أفكر فى دخوله قريته واستقبال أمه أو أخته له واستقباله لهم .

وكنت حوالى سنة ١٩١٧ فى المنصورة . وسئمت من جلسة طالت على إحدى القهوات التى تشرف على النيل ، فنهضت عند الغروب وصرت أجول على غير هدى فى الشوارع والأزقة . فلما عتم المساء أخذت طريقى إلى القهوة . . .

فبينا أنا أسير الهوينا إذا بى أسمع صوتاً خافتاً ظننت أنه يصدر من أحد المنازل ولكن الصوت كان مع خفوته قريباً . فتلفت حولى فرأيت شيئاً ضئيل الجسم حسبته كلباً أو قطاً . فاقتربت منه فسمعت صوتاً يقول فى خلط واضطراب : « ملوخية . . . ملوخية

باللحمة . . . عيش وملوخية . . . بدى آكل . . . أنا جعانة : عيش وملوخية . . . »

ودنوت من هذه الأشلاء المكومة الملفوفة فى الخرق . فوجدتها امرأة قد استحالت من الفاقة والبؤس إلى حطام لا يعقل . ووقفت إلى جانبها أسمع أنين الجوع وبكاء المعدة . . . ثم قصدت من فورى إلى مطعم فاشتريت لها طلبتها وعدت مع صبى المطعم إليها ، وأخذنا نحن الاثنين نعرض عليها ما أحضرناه من الملوخية واللحم وأكلت المسكينة فى ضعف وارتباك . . . ولكنها لم تأت على ربع الرغيف ، وظنى أنها كانت فى أيامها الأخيرة . . .

وكلما جاءت العتمة عقب الغروب وضاقت نفسى لسبب ما عادت هذه الذكرى تفئ فى ذهنى فأتنهد أسفاً على ذلك الحطام البشرى الذى ظننته أول الأمر كلباً أو قطاً .

وفى صرخة الموت عذوبة تفتن النفس ، وفى الموت نفسه فتنة كأنها صحوة الوجدان ، حتى لنحس أن يقظتنا إنما هى حلم نصحو منه عند ما نقف إزاء من نحب وهو فى النزع الأخير .

وقفت إلى جانبها ، وهى أختى . وكانت فى عذاب الذبحة الصدرية تصرخ صرخات الموت . ولم أكن مخدوعاً أو واهماً فى المصير المحتوم الوشيك ! وعاد « الفلم » ينبسط أمامى مبتدئاً بما حدث منذ أكثر من ٥٠ سنة وأخذت صوره تتعاقب الواحدة بعد الأخرى فى لحظات خاطفة ، وفى نصوع ووضوح ، حتى كأنى أسمع كلماتها وهى تشترى لى الحلوى ،

وتغسل لى وجهى أيام الطفولة . . . ثم أنتبه من هذه الذكريات إلى صرختها العذبة الأليمة . وكانت فى عذوبتها تجعلنى أنتفض كأنى فى لذة أليمة ، أو كأنى فى طرب حزين ثم جاءت النهاية وساد السكون . . .

وخرجت وإذا بى أنظر إلى السماء فلم أترك سحابة إلا وأنا أتأملها كأنها شأن خطير يجب ألا أنسى شيئاً من تفاصيله . أو كأنى أقرأ حروفها الفضية وأطلع من ورائها على سر خطير. فلما انطبعت هذه السحب فى نفسى ، نظرت إلى الأرض . ولكنى عدت فى لهفة أنظر إلى هذه السحب كأن شيئاً يوشك أن يفلت منى . ثم ترن فجأة تلك الصرخات العذبة الأليمة نأرتاح إليها وأسكن وأستكين . . .

وهذه الذكريات ، أو هذه « الأفلام » على إيلامها ، هى الحياة . هى كنز يجمع المر والحلو واللذة والألم . وحياة تخلو منها هى حياة تخلو من كنوزها . . . وحين أعود إلى اللحظات الخاطفة التى تجمع فيها الاحساس والوجدان ، أحس حناناً لذيذاً جارفاً ، يبدأ حرقة والتهاباً ثم يتميع خيالا ينساب هنا وهناك فى أفكار وخواطر شتى عن الموت ، وعن الدنيا ، وعن المصير ، وعن الحاضر والمستقبل ، بل وعن العلم والأدب والفلسفة والسياسة . . . فتتغير القيم والأوزان ، فأرفع من بعضها وأبخس من بعضها الآخر . وعندئذ أحس أن هذه المآزق ، وهذه الكوارث ، هى المجال الذى أتغير فيه وأتطور . وأن هذه الكوارث ، إنما هى حوافز تنبه الوجدان وتبدل الذهول بالاحساس الملتهب ،

والتفكير المركز . . . حتى أنى لا أحسد أولئك الذين حرموا من هذه الكوارث فتبلدوا وتجمدوا وعاشوا كما لو كانوا سمكا لايحزنون ولا يلتهبون . . . أجل ! لم يعرفوا طرب الحزن الذى يسمو فى لذته وتأثيره على طرب الفرح ، ولم يصدموا بتلك الصدمات المنبهة التى توقفهم فى الطريق حتى يتأملوا ما قطعوا منه فى الماضى وما سوف يقطعون فى المستقبل . أجل ! لم يجمعوا الزمن فى بؤرة إنسانية تتكاثف فيها الأشعة فيزداد ضوء الوجدان .

بعض الأدباء الذين عرفتهم

عرفت جرجي زيدان مؤسس «الهلال» قبل أن يموت بسنتين أو ثلاث ، بل عرفته منذ ١٩٠٩ حين كنت بانجلترا ، وكنت قد ألفت رسالة « مقدمة السبرمان » وبعثت بها إلى مطبعة الهلال كي تطبع ، فأحالتها المطبعة إليه ليقرأها . وبعث هو إلى بخطاب مسهب يشرح لى فيه وجوه النقد التى يأخذها على الرسالة ، ويقترح حذف بعض الفصول والسطور مما عده مخالفاً للعقيدة العامة . وأذكر من خطابه هذا قوله : « إنه لا بأس بان ننتقد المسيحية ؛ لأن المسيحيين قد ألفوا نقد دياناتهم ، أما المسلمون فيجب أن نتوقاهم ؛ لأنهم لم يألفوا النقد » . وقد خرجت هذه الرسالة مشوهة مبتورة لكثرة ما حذف منها .

ولما عدت إلى مصر زرته واتصلت معرفتى به إلى وفاته ، وكنت بين مشيعيه إلى قبره . وكان جرجي زيدان عصامياً فى ثقافته وثروته . وهو أول من أرصد حياته فى عصرنا لدراسة التاريخ الاسلامى ، وألف فى ذلك قصصه الكثيرة كما ألف تاريخ التمدن الاسلامى . وهذه الكتب تعد من الطلائع لهذه الدراسات التى استفاضت فى العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة . ولم يكن لجرجي زيدان أى اتجاه علمى . حتى لقد كتبت ذات مرة أعزو الحجاب عند العرب إلى أسباب بيولوجية هى

أن البنات فى الأقطار الحارة يبلغن سن النضج الجنسى فى الحادية عشرة أو حوالى ذلك أى قبل اكتمال سن النضج الذهنى . ولذلك لم تكن لهن من عقولهن رقابة على غريزتهن الجنسية أو ضبط لها ، وأن هذا هو السبب للحجاب بين العرب . فتعجب لهذا التعليل وقال لى إن « الأسلوب يعجبنى » ، ولكن الحقائق تكذبه . وكانت هذه « الحقائق » عنده تاريخية . وأنا الآن أعرف أنى كنت مخطئاً فى هذا التعليل البيولوجى ؛ إذ ليس هناك أى فرق فى سن النضج الجنسى بين أبناء المناطق الحارة والمناطق الباردة ، والتعليل الصحيح للحجاب اجتماعى .

وكان جرجى زيدان انبساطياً بديناً بشوشاً كثير الأصدقاء . ومات عقب انتهائه من أحد مؤلفاته . فما هو أن أتم الصفحة الأخيرة حتى وضع القلم وانسطح ، فانفجر شريان أحدث له « النقطة » . وفى اليوم التالى شيعناه إلى الجبانة ، وكان هناك عدد غير صغير من الأدباء الذين استعدوا لتأبينه . ووضع النعش وكشف عن الوجه ونهض أحد المؤبنين . ولكن ما إن شرع فى إلقاء كلماته حتى صاح شقيق للمتوفى يقول : إنه رأى شقيقه يرمش وإنه لا يزال حياً . وكانت المسألة لا تزيد على أن عاطفته قد تغلبت على عقله . ولكن كانت النتيجة أن المشيعين عادوا ولم يسمعوا تأبيناً ، وترك حارس للجثة إلى الصباح . . .

ومؤلفات جرجى زيدان لا تزال حية وهى أقرب إلى التلخيص منها إلى الاسهاب ؛ لأنه عالج موضوعات لم يعالجها أحد من قبل . فكان يستوعب أكثر مايستطيع فيضطر إلى الاقتضاب . ولما أنشئت

الجامعة المصرية كلف إلقاء محاضرات عن التاريخ الاسلامى . ثم عادت إدارة الجامعة ، فألغت هذا التكليف بدعوى أنه مسيحى . وقد تركت هذه الحادثة فى نفسه مرارة ، فكان لا يفتأ يذكرها فى حزن وألم .

وكان فرح أنطون يصدر « الجامعة » ، وكان من وقت لآخر ينتقد « الهلال » . وكانت مجلة « الهلال » شرقية ومجلة « الجامعة » غربية . فلم يكن هناك نقطة للتعارف أو التصادق بين صاحبيهما . واتصلت صداقتى بفرح حين شاركته فى تحرير « اللواء » لفترة قصيرة حوالى ١٩٠٩ . وكنا نقضى السهرة فى إحدى القهوات المطلة على ميدان الأوبرا أو مايقاربها . وكان فرح « مفكراً حراً » بالمعنى الفرنسى لهذه العبارة . وكان يعرف نيتشه وروسو . وقد اندمج بعد ذلك فى الحركة الوطنية المصرية . وكان حلبى الأصل ، ولذلك شق عليه اتخاذ اللهجة المصرية العامية . وكان انبساطياً مفراحاً يشرب الخمر ، بل كان يشرب الأبسنت ، وهو مشروب منع بيعه بعد ذلك لفتكه بالصحة .

وقد ترك كل من جرجى زيدان ، وفرح أنطون ، أثره فى النهضة المصرية . فان الأول فتح أبواب الدراسة لتاريخ الاسلام والعرب وآدابهم وعقائدهم وحضارتهم ، كما فتح الثانى أبواب الدراسة للنهضة الأوربية. ومات الأول حوالى الخمسين ، ومات الثانى حوالى الأربعين .

وفى تلك السنوات عرفت يعقوب صروف محرر « المقتطف » ، وكان قد جاوز الستين . وأذكر أنه لأول مقابلة لى شرع يسألنى عن أصلى هل أنا مصرى قح أم بى عرق أجنبى ؟ وكان قد قرأ رسالتى « مقدمة السبرمان » . وبعد حديث طال فى العلوم عاد فجزم بأنى أجنبى ،

وأن تفكيرى يدل على هذا ! وكانت نزعته العلمية قد طغت عليه ، فلم يكن يحسن التقدير للأدب أو الفلسفة ؛ ودار بينى وبينه نقاش ذات مرة عن هربرت سبنسر وشوبنهور . فأبرزت أنا القيمة العظمى للفيلسوف الألمانى الذى نظر النظرة الكونية الشاملة . أما هو فكان يرى أن سبنسر أعظم المفكرين فى العالم ، وأن شوبنهور لا قيمة له بتاتاً إلا فى « ملاطفات » أدبية أو مجازفات فلسفية . وكان « المقتطف » فى أيامه من المجلات القوية التى وجهت القراء العرب الوجهة العلمية وأنارت بصيرتهم . ولم يكن جافا فى إيراده للبحوث العلمية ، كما أنه كان من وقت لآخر يترجم إلى العربية مقالات جدية من المجلات الأوربية .

وفى إدارة المقتطف وجدت أمين المعلوف ، وكان لغويا علمى الذهن . وقد وضع معجما بعد ذلك للحيوان لا يزال أحسن مايعتمد عليه فى هذا الموضوع . واتصلت بينى وبين أمين المعلوف صداقة إلى وفاته . وكان يكثر من الشراب . وقبيل وفاته بعامين أو ثلاثة أصيب ببحة كانت تجعل الحديث معه شاقا ، ولكنه احتفظ ببشاشته وذكائه . وقد عاش أمين المعلوف ملء حياته . فاشتغل فى السودان ووصل إلى أقاصيه العليا حيث أفريقيا السوداء ، كما اشتغل فى مصر والعراق . وهو ، مثل فرح أنطون ، لم يتزوج .

ويجب أن أذكر هنا أن جميع هؤلاء الأربعة كانوا سوريين ، أو ، كما نقول الآن بعد التجزئة التى أعقبت انهيار الدولة العثمانية ، لبنانيين . وكانوا جميعهم كارهين للحكم العثمانى لا يطيقون ذكره . وإذا شرع

أحدهم فى الحديث عنه لم يتمالك من الغيظ. ولم يكن وجدانهم وطنياً ؛ لأن رؤيا الاستقلال للعرب لم تكن قد تجسمت . وكان اليأس أغلب عليهم . وحتى بعد انهيار الدولة العثمانية ، عقب الحرب الكبرى الأولى ، بقوا على شك من حقيقة الاستقلال المزعوم لهذه الدول العربية. وأظن أنهم كانوا على حق فى هذا .

ومن الشخصيات الفذة التى عرفتها قبل الحرب الكبرى الأولى شخصية الأديبة الكبيرة مى . وقد بقينا صديقين ، إلى يوم وفاتها عقب عودتها من مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان . ولم تكن مى جميلة ولكنها كانت « حلوة » . وكانت تعرف الآداب الانجليزية والفرنسية ، وتقرأ كثيراً وتقف على الاتجاهات العصرية فى أوربا وأمريكا والشرق . وكانت أيضاً متمدنة من حيث اكتمال وسائل التمدن فى المعيشة . وكان تمدنها وثقافتها يكسوان وجهها وتعبيرها ظرفاً ورقة. وقد استطاعت مى أن تجعل احتراف الأدب عند الفتاة المصرية والسورية زينة أنثوية لا استرجالا كريهاً. وكانت ، فى حياة أبويها تعقد بمنزلها اجتماعات « صالونية » حيث يكون السياسى والأديب والوجيه بعض ضيوفها . وكانت تشترك فى جميع المناقشات بل كانت أحياناً تديرها . وقد تنبه ذكاؤها كثيراً لاختلاطها بهؤلاء الضيوف . ولم يكن هناك موضوع تعجز عن الاشتراك فى معالجته . وتفعل كل ذلك فى رقة وجمال وتمدن . ومات أبوها فلم يتأثر « الصالون » ، ولكن عقب وفاة والدتها تزعزعت مى . ولم يكن ذلك ، فى ظنى ، لحزنها على والدتها التى ماتت بعد أن أسنت وبعد أن كان موتها

منتظراً . وإن كانت الفرقة بين الأم وابنتها قد تركت أثرها ، وخاصة عندما نعرف أن مى لم تتزوج ، وأن رفقتها لأمها كانت تعزيها . وليس من السهل على فتاة أن تجد نفسها يوماً ما وهى منفردة مقطوعة فى منزلها ، وخاصة فى وسط ، مهما قلنا إنه متمدن ، لا يزال شرقياً .

على أنى أظن أن السبب للتزعزع النفسى الذى أصاب مى كان انتقالها الفسيولوجى من الشباب إلى الكهولة . وهذا الانتقال كثيراً ما يخل بالاتزان الفسيولوجى عند بعض النسوة ، وقد ماتت مى منذ أكثر من سنتين بعد سنوات قضتها فى مستشفى الأمراض العقلية فى لبنان . ولما عادت زرتها مع صديقى الأستاذ أسعد حسنى ، وفتحت هى لنا الباب . فرأيت شخصاً لا أعرفه ، رأيت سيدة بيضاء الشعر كأنها فى السبعين . فسدرت عينى . فغمزنى أسعد وهمس : الآنسة مى ! الآنسة مى ! فسلمت وتضاحكت. ولكنها هى أدركت كل شئ واستولى على اكتئاب وخجل وجمود وارتسمت فى ذهنى صورة لعذاب النفس الذى لقيته هذه المسكينة فى مرضها . ولكن سرعان ما زال عنى الاكتئاب والخجل والجمود ، إذ شملنى أسف . فان مى قعدت إلينا وشرعت تقص علينا ما قاسته فى المستشفى وكيف ألبسوها « الجاكتة » التى تمنع العربدة عند المجانين ، وكيف أضربت هى عن الطعام ، ثم ، وهنا الأسف والحزن ، كانت وهى تروى لنا ما وقع لها وكيف أن أدباء مصر نسوها وتركوها ولم يسألوا عنها ، كانت تضحك مرة وتبكى أخرى . وتكرر هذا منها كثيراً . وأدركت أنها لا تزال فى حاجة إلى المستشفى .

وزاد اعتقادى هذا عند ما أصرت على أنه كان لها أقرباء ينوون خطفها من القاهرة ، وكانت تذكر أسماءهم وأنهم كانوا يتربصون بها فى مكان تعينه ، وكانت هى مضطرة إلى المرور بهذا المكان .

وخرجنا نحن الاثنين ونحن فى أسف وغم لهذه الحال التى كانت عليها مى . ولكن أسفى أنا كان مزدوجاً ؛ فانى بقيت طوال المساء وأنا أفكر فى جمودى وكيف أنى لم أتنبه عندما رأيتها بالباب نأحييها تحية اشتياق وتقدير وأنها لا بد قد عرفت من جمودى أنها قد تغيرت ، وأن جمالها وحلاوتها وظرفها ورقتها قد زالت . وملأتنى هذه الخواطر مرارة بل كراهة لنفسى .

فلما كان اليوم التالى قصدت إلى منزلها وأنا طوال الطريق أستعد للقاء أرجو أن أقشع به غمامة الأمس . وهو مع ذلك لقاء لفتاة مريضة مزعزعة . فلما فتحت لى الباب عانقتها فى حنان صادق وحب مصطنع . وتراجعت هى وتأملت وجهى فى ابتسام وانشراح واضحين وهى تقول : « مرسى . مرسى يا أستاذ ! »

وشعرت أنى كفرت عن جمودى بالأمس . وقعدت معها وأنا أتحدث فى نشاط ومرح . ولكنها عادت إلى البكاء والضحك . فكانت دموعها تنهمر بالبكاء ثم بعد لحظات تتشنج بالضحك . وبعد أسابيع ماتت . إذ لم تطق هذه الدنيا التى رافقتها أكثر من ثلاثين سنة وهى تتلألأ فيها بالشباب والجمال ، ثم عادت فتركتها منفردة فى شيخوختها بلا جمال وبلا تلألؤ .

ومخلفات مى الأدبية كثيرة ، ولكنها كانت فى حديثها أبرع وأذكى

مما كانت فى جميع ما كتبت . وكنت أقول لها إن السبب لتفوق حديثها على مقالاتها ومؤلفاتها أنها شرقية تخاف فى الكتابة أن تبوح بكل ما تفكر فيه ولكن هذا الخوف يزول عنها فى الحديث. وقد صدمتنى ذات مرة بملحوظة جعلتنى أفكر ، هى قولها : « إن مبالغتك فى التفاؤل هى فى صميمها وأصلها مبالغة فى التشاؤم » . وأحياناً أظن أنها كانت صادقة ، كما أنها هى أيضاً كانت متفائلة ذلك التفاؤل الذى يخفى التشاؤم ويضمره .

وقد يسائل القارئ هنا : لِمَ لم تتزوج مى مع جمالها وثقافتها ؟ فالجواب أنها كانت تعيش فى وسط شرقى . ولو كانت مى قد نشأت فى برلين أو باريس أو لندن لوجدت الكثيرين ممن ينشدون الشرف والسعادة بالزواج منها ، والفخر والمجد بالتصاق تاريخهم بتاريخها . ولكن إخواننا اللبنانيين ، على الرغم من عصريتهم ، لا يزالون شرقيين ولم يستطيعوا أن يسيغوا زوجة تستقبل ضيوفها فى صالون أدبى له حرية الصالونات الأوربية فى المناقشة والاختلاط . وبكلمة أخرى نقول : إن مى عاشت عمرها قبل ميعادها بخمسين سنة .

وقبل الحرب الكبرى الأولى عرفت عبد الرحمن البرقوقى صاحب مجلة « البيان » . وكانت هذه المجلة الشهرية تحاول أن تحيى الأسلوب العربى القديم على نحو ما فعلت جريدة « مصباح الشرق » للمويلحى أو كما تفعل الآن مجلة « الرسالة » . وكان البرقوقى نقيضى فى أهدافه الأدبية ؛ فقد كان يجد لذة عجيبة فى التعبير عن معنى ما بكلمة مماتة . ويقول إننا يجب أن نحيى هذه الكلمة . ولم يكن يجد احتجاجى عليه

بأن الكلمة إنما أميتت لأسباب قوية استدعت موتها ، وأن إحياءها الآن خطأ ؛ لأن مركزها الاجتماعي قد انعدم . وكان صهره مصطفى صادق الرافعي أكثر إمعاناً منه في خطة الاحياء للكلمات المائتة . وعرفت محمد السباعي وكان الكاتب الأول في مجلة « البيان » . أما الكاتب الثاني فكان عباس حافظ . وكلاهما كان يعنى أكبر العناية بالأسلوب العربي القديم . ولم يكن بمجلة « البيان » لا كثير ولا قليل من الفن الصحفي ، ولذلك لم تعش طويلا .

وكان عبد الرحمن البرقوق من أطيب الناس . وكان غربي الذهن قضت المصادفات بأن يكون شرقي التربية والثقافة . وكنا أحياناً نمشي في الأسكندرية فيأخذ في المقارنة بين الشوارع التي أقيمت إليها مساكن الأجانب وبين تلك الأخرى التي أقيمت إليها مساكن المصريين . ويستنتج من هذه المقارنة ما يحمله على القول بأن الشرق كله مفلس . وكان قد عرف الشيخ محمد عبده وأدرك المغزى في اتجاهاته وإصلاحاته .

وإذا كان حقاً أن الخمر تكشف عن خبايا الصدور ، وتفكك الضوابط التي تحول دون الصراحة ، فاني أروى الحادث التالي الذي يدل على النفس الزكية التي كان يتسم بها البرقوق . فقد كنا على قهوة في الأسكندرية حوالى ١٩١٤ وقد قعدنا إلى الموائد الخارجية والنسيم يهب علينا كأنه البلسم في رقته ورخامته ، وأمامنا أكواب من البيرة (أو غيرها) نشربها في اشتهاء ولذة . ثم طلبنا رطلين من الكباب ، فجاء بهما الخادم وبخار الكباب يتصاعد ورائحة الشواء تسكر . وما إن شرعنا نتنقل على هذا الطبق حتى طرأ علينا متسول .

وكان غاية فى الرثاثة والجوع والعفن . فطلب إحساناً . فتأمله البرقوق ثم نظر إلىّ كأنه يستفهم . ثم دفع الطبق إلى طرف المائدة وقال للرجل : كل . فأكل الطبق كله برطليه من الكباب وهو واقف .

وكان البرقوق يسكن ، هو ومجلته ، بالقرب من باب الخلق ، وكانت « الجريدة » قريبة منه . وقد دعوته قبيل الحرب الكبرى الأولى أن نزور معاً لطفى السيد (باشا) رئيس تحريرها . ولم أكن أعرفه قبل ذلك إلا من مقالاته مع إعجابى العظيم بها . فلما دخلنا عليه وجدت غرفته كأنها غرفة وزير فى سعتها وأثاثها . وتحدثنا عن نيتشه والتصوف . ولا أدرى إلى الآن كيف جمع بينهما لطفى السيد . ولكنى خرجت من هذه المقابلة الأولى وفى اعتقادى أن لطفى السيد أديب كما هو فيلسوف .

وحوالى تلك السنين ، أو قبل ذلك بقليل ، بزغ طه حسين ، وكان أزهرياً معمما ، يكره الأزهر ، ويعربد على صفحات « الجريدة » . والتحق بالجامعة المصرية ونال دكتورية الأدب . وكان الفرح عاماً بين الشباب الجديد لهذا الأزهرى الناجح . وكنت أصدر مجلة « المستقبل » الأسبوعية فى الدعوة إلى القرن العشرين وما بعده . فنشرت صورته وهو بالجبة والقفطان . وراج العدد بين القراء الذين رغبوا فى اقتناء الصورة . وكان لنجاح طه حسين قيمة رمزية هى أن مصر العتيقة تستطيع أن تتجدد . وقد وجد طه حسين من لطفى السيد المراعاة بل أحياناً المحاباة ، حتى كانت مقالاته تتحيز المكان الأول فى « الجريدة » على الدوام . والواقع أن انتقال طه حسين من الأزهر

إلى الجامعة المصرية ثم إلى السوربون، مع أنه ضرير، هو معجزة. ولكن ثم معجزة أخرى هى أنه اتخذ مكاناً أساسيًّا ثوريًّا مستقبليًّا فى الأدب. مع أن الانسان كان يتوقع، بعد اعتبار ماضيه، أن يتخذ مكاناً تقليديًّا حيث يراعى « قواعد النحو والصرف » فى الأدب والاجتماع والسياسة. وقد يقال إن المعرى قد أثر فيه وبعث فى نفسه كراهة لقواعد « النحو والصرف » فى أسلوب الحياة. ولكن يبقى عندئذ سؤال هو: لماذا اختار طه حسين المعرى كى يكتب عنه ويسهب فى الكشف عن عقله وقلبه؟ ولا عبرة بأن يقال إن الاشتراك فى العاهة باعث مقنع للقوة الجذبية التى وجدها طه حسين فى المعرى. لأن هناك أدباء وشعراء كثيرين بهم هذه العاهة ولكنهم لم يجذبوه. وظنى أن عاهة العمى لم يكن لها إلا أقل الأثر فى التفات الأديب المصرى إلى أديب المعرة. وإنما الأثر الأكبر أنهما يشتركان فى الثورة، وخاصة الثورة على المشايخ. فقد رأى طه حسين فى الأزهر ما بعث سخطه وحركه إلى الكفاح، ثم رأى عند المعرى مثل هذا السخط ومثل هذا الكفاح. فارتبطت بين الأديبين أواصر الحب والفهم وتعارفا وتفاهما. وقد انتقلت عند طه حسين بعد ذلك، بؤرة المعركة من ميدان الأزهر إلى ميدان السياسة المصرية ولكن اتجاهه الأول لم ينحرف.

وهناك من يزعم أن السياسة قد أفسدت أدباءنا وشغلتهم عن مهمتهم الأصلية. وهذه المهمة إنما هى عند هؤلاء الزاعمين أدب البرج العاجى الذى لا يتصل بالمشكلات العصرية. ولكنهم مخطئون. لأن الأديب فى عصرنا يخون عصره إذا لم يكن سياسياً. وأعنى بالطبع

السياسة العليا العالمية والقطرية ولا أعنى أن يستأجر أحد الأحزاب كاتباً فيرصد قلمه للدفاع عنه ظالماً أو مظلوماً فى مهاترات مزرية. ونحن نعيش فى عصر انفجارى يحفل بالانقلابات الاجتماعية والأدبية والعلمية. وذلك الأديب الذاهل الذى يعيش فى البرج العاجى إنما يبتعد عن أهم الشئون البشرية حين يبتعد عن السياسة. وكل أديب له وجدان بتطور العالم فى عصرنا يحس أن واجبه الأول أن يكون هو نفسه عنصراً من عناصر هذا التطور. ولذلك يستحيل أدبه إلى أدب كفاحى سياسى.

ولذلك لا يستحق أدباؤنا اللوم على أنهم أخضعوا أدبهم للسياسة، بل الحق أنهم يستحقون الثناء والحمد. وحين أتأمل الصدود الذى نلاقيه أحياناً فى بعض الأفراد أو عند الجميع عن شوقى، على الرغم من شاعريته الرائعة، أعتقد أن مرجعه أن شوقى لم يمارس الأدب الكفاحى. ولم يطابق بين فنه وبين أمانى الشعب، إلا فى فترات نادرة. وأن إعجاب الشعب بحافظ ابراهيم، على الرغم من شاعريته التى لا تسمو إلى مستوى شوقى، إنما يرجع إلى أنه طابق بين فنه وبين أمانينا السياسية. وحتى فى المستقبل بعد مائة سنة مثلا سوف يدرس حافظ ويستدل بشعره على عواطف الأمة المصرية واتجاهاتها ومستواها الفنى أكثر مما يدرس شوقى الذى عاش، زمناً غير قصير من حياته، فى البرج العاجى.

ولم أعرف شوقى إلا فى السنوات الأخيرة من حياته. وكان له مكتب بالقرب من دار الكاتب المصرى كنت أزوره فيه. وقد فهمت

مقداراً كبيراً من سيكلوجيته حين شرع ذات مرة يوضح لى فى إسهاب لماذا ألف درامة «كليوبطرة» . فقد زعم أنه أراد أن يزكى هذه المرأة باعتبارها ملكة مصرية قد أسئ إليها فى سمعتها . ودهش أكبر الدهشة منى عندما ناقضته وقلت إنها لم تكن مصرية . وكان فى ثقافته يصبو إلى كل قديم ، حتى إنه لم يدرك شيئاً من التيارات الكاسحة التى اتسم بها الثلث الأول للقرن العشرين . وقد ولد شوقى فى أواخر القرن التاسع عشر فى مصر ، فى بيئة الباشوات والبكوات التى كانت تكره عرابى ، ولم يقطع الحبل السرى الذى كان يربطه بالقرن التاسع عشر إلى يوم وفاته .

أما حافظ ابراهيم فكان من الجواهر التى لا تزال تلمع وتسطع فى ذكريات جميع الذين عرفوه . وكان يمتاز أو يتسم بوجه كالح متجهم يصدم بل يخيف لأول نظرة ، حتى إذا قضى معه الانسان نصف ساعة ودّ لو ينهض ليقبله ويعانقه . فقد كان أنيساً يحدثك بنكات ، بالمعنى العربى القديم لهذه الكلمة . وكان وطنياً يطابق بين أمانيه وأمانى الدهماء من الفلاحين والعمال والمتوسطين . وأذكر من نكاته أنى سألته ذات مرة عن رأيه فى أحد الشعراء ، فكانت إجابته العجيبة : «إن أشعاره يجب أن تنسى عن ظهر قلب» . وهو عندى ذكرى تترنم بها نفسى .

وليس هناك مفر من المقارنة بين شوقى وحافظ ومطران ؛ فان دراسة هؤلاء الثلاثة تدل على التيارات المتناسقة والمتناقضة فى المجتمع المصرى فى الخمسين من السنين الأخيرة . فاننا نحس أحياناً فى قصائد

شوق ومقطوعاته جو الترف المصرى الذى أوشك على الزوال : السجاجيد الايرانية وصينية القهوة الفاخرة يحملها عبد أسود ، والمقاعد الناعمة والحجاب ، حجاب المادة والروح . أما أشعار حافظ فصرخات المتألم ، وأحياناً مهاترات العاجز. ونحن نقرؤها فنصرخ معه أونهاتر فى ألم وعجز ؛ لأنه منا ونحن منه : شاعر مصرى بلدى يقرأ أخبار المظاهرات ويفرح بها ويؤلف القصائد عنها وكأنه يريد أن ينتظم فيها مع الطلبة . أما مطران فيشبه أحياناً تلك الحدائق الأنيقة التى يجمع فيها أصحابها الأثرياء أصص النباتات الأجنبية التى نسأل عن أسمائها ونعجب بروائها ، ولكن ليس لها فى قلوبنا ذلك الحنين الذى نحسه حين نذكر حقولنا المألوفة بفلاحيها وجداولها وأشجارها من الجميز والتوت .

ومن الشخصيات الذهبية التى تبرز فى وجدانى وأفتأ أذكرها كلما عنّ حديث عن الأدب أو القلم أو الشرق أو الحضارة ، شخصية شبلى شميل . وكان رجلا قصيراً متكتل الجسم كأنه مصارع ، عرفته فى ١٩١٢ وبقينا على اتصال بل تحاب إلى وفاته فى أواخر الحرب الكبرى الأولى . وكان فى تلك السنوات يقارب السبعين ولكنه كان على صحة وشباب نادرين وكان روحه الكفاحى للغيبيات يسم ، وقد يقول غيرى ، يصم ، كل كتاباته . ذلك أنه كان يدعو إلى الحرية الفكرية فى كلمات جريئة وأحياناً فى وقاحة جريئة ، كما كان يدعو إلى نظرية « النشوء والارتقاء » أى التطور . وقد نقل إلى لغتنا كتاب بوخز فى هذا الموضوع . وكان يسخر من الغيبيات فى كلمات لا يجرؤ غيره على استعمالها . ولما أصدرت مجلة «المستقبل» فى ١٩١٤ أيدنى وكان

يكتب فيها بتوقيعه أو بلا توقيع ، وقد كتب فيها قصيدة فلسفية لم أفهم غايته منها ، وإلى الآن لا أفهمها .

وكان شبلى شميل مفكراً أكثر مما كان عالماً . وكان يقنع القارئ بعقله وليس بمعارفه . ولذلك عند ما نقرأ مخلفاته الآن نجد التفكير الرصين والأسلوب الرصين . وكان كثير من المعجبين به يستهويهم أسلوبه وكان هو يرد على ذلك بأن رصانة الأسلوب هى ثمرة الرصانة فى التفكير . وهذا حق . ولكنى مع ذلك كنت عند زيارتى له فى منزله أجد التوراة أمامه وأجد أثار التقليب فيها . وكنت حين أداعبه بأن مكافحته للغيبيات لا تتفق وهذا الغرام بالتوراة كان يجيب بأنه يحب بلاغة التوراة وأن اهتمامه بها لغوى أثرى .

وكان من حيث المزاج والتفكير بل المعيشة أوربياً متمدناً . وكان يحمل على عادات الشرق وتقاليده فى لهجة غاضبة . وكان متديناً شديد التدين بل متعصباً فى تدينه بالديانة البشرية . وظهر هذا التدين عند إعلان الحرب الكبرى الأولى فانه بقى أسابيع وهو هائج كما لو كان قد استولى عليه نيوروز . وظنى أنه لو كان فى سن الشباب لتطوع لمحاربة ألمانيا لأنه عد هجومها هجوماً على المبادئ البشرية .

وهذه الديانة البشرية التى ذكرتها كانت أيضاً ديانة جميل صدقى الزهاوى . ولكن الزهاوى كان يعمل فى بغداد ، فى السر والظلام . فى حين كان شبلى شميل يجاهر ويعلن ولا يبالى . وحوالى ١٩٢٥ زار الزهاوى القاهرة مع السيدة زوجته . وسارع إلى السؤال عنى . وقضينا أياماً ونحن نلتقى ونتحادث فى كل شأن . وكان رجلا

ضئيلا قد بلغ السبعين أو تجاوزها وكان يسير على ساقين ركيكتين تكادان تعجزان عن حمله . وكان أيضاً غربى الذهن على ذكاء خارق ولكن على معارف ناقصة فى العلوم العصرية . وقبل أن يغادر القاهرة سلم إلى مخطوطة هى ديوان يجمع عدداً من قصائده التى لو طبع بعضها لأدى إلى السجن . لأنها طعن وقح فى كثير من العقائد التى اصطلح الناس على تقديسها . وهذا الديوان ، بعد أن بقى عندى سنوات ، طلبه منى زكى أبو شادى ولا يزال عنده إلى الآن . ولا أظن أن الظروف الحاضرة أو القادمة ، فى القريب ، ستؤذن بطبعه .

وقد تركنا زكى أبو شادى كى يعيش فى الولايات المتحدة لأنه يعتقد أن الرجعية الفكرية قد خيمت على مصر فى هذه السنوات الأخيرة . وأن الأحرار ، لهذا السبب ، لا يستطيعون أن يتنفسوا فى الجو الخانق الذى سعى الانجليز لايجاده فى جميع أقطار الشرق العربى . ونحن نخسر كثيراً بغيابه عنا . فانه أديب عالم وقد أخرج مجلة وألف كتباً خدمت مصر وبسطت لنا آفاقاً للتفكير العصرى . وهو يجيد الكتابة بالانجليزية كما يجيدها بالعربية . وله عندى مؤلف باللغة الانجليزية فى الديانة البشرية جدير بأن يوضع فى صف مع المؤلفات التى من نوعه فى أية أمة أوربية متمدنة .

وحين أراجع المعاكسات التى لقيها زكى أبو شادى والتى أدت أو أدى بعضها إلى تركه لمصر، زيادة على موجة الرجعية التى اكتسحتنا هذه السنوات الأخيرة ، أجد أنها تعود إلى أنه متمدن . وأنه فى سلوكه فضلا عن لغته ، لا يبالى أن يكون عصرياً . وهذه العصرية تنعى

على بعض الأشخاص المتمدنين . والناعون هم على الدوام شرقيـون تقليـديون كارهون للحضارة العصرية . ولكنهم فى كراهتهم لا يتشوفون إلى حضارة مستقبلية راقية أو أرقى مما نجد فى حاضرنا ، بل يرجعون إلى تقاليـد وعادات تنافى العصر الديمقراطى وتنكر مبادئه. ومن هنا فرار زكى إلى الولايات المتحدة وكراهته لجونا الحاضر . وهذا هو ما يجب أن نأسف عليه جميعاً وأن نتأمل فى مغزاه كثيراً .

ومن الأحرار الذين عرفتهم محمود عزمى ، وهو الآن فى كهولته « معتدل » . ولكنه كان فى شبابه جريئاً واسع الآفاق بعيد الأمداء وكان يجرى فى غلواء الشباب . دعوته ذات مرة فى أواخر ١٩٣٠ إلى أن يكتب للمجلة الجديدة مقالا فشرط على أن يكتبه بالحروف اللاتينية . وكان هذا قبل أن يناضل عبد العزيز فهمى باشا لأجل الخط اللاتينى بنحو خمس عشرة سنة . ولم ينزل عن رأيه إلا بعد مناقشات متكررة. وكان يدعو إلى القبعة ويعتمر بها فى شوارع القاهرة. وقل أن نجد كاتباً مثل محمود عزمى فى نصاعة تفكيره وصحة منطقه . وهو هنا يشبه كثيراً عبد القادر حمزة . ومن الملذات الذهنية أن يقرأ له الانسان مقالا يناقش فيه الموضوعات السياسية مناقشة موضوعية فى تعقل بعيد عن الزخارف اللفظية أو الأوهام البلاغية .

وعندما أرجع بذاكرتى إلى كثيرين من الأدباء ، وبعضهم لا أحب أن أذكرهم ، وأتأمل المجهودات العظيمة التى بذلوها والنزعات النبيلة التى نزعوا إليها فى أول عهدهم بالكفاح الأدبى ،

ثم كيف انتكسوا منهزمين راضين بالماضى بدلا من أن يقتحموا المستقبل ، عند ما أتأملهم ، أجد أن العيب لم يكن فيهم وحدهم وإنما هو أيضاً فى هذا القدر الذى حاطنا بظروف سياسية ، استعمارية أجنبية أو استبدادية داخلية ، تعاقبنا نحن الأدباء ، على التقدم والرقى وتكافئنا على التأخر والانحطاط . أجل ، هذا القدر القاسى الذى يهيئ قوات الظلام فى مصر وفى أقطار الشرق العربى كى تخيم على دعاة النور وتطمس نورهم ، وقد انطمس كثير من النور .

التدابير الانجليزية لفقرنا وجهلنا ومرضنا

لم يكتب تاريخ الجناية التى جنتها بريطانيا على مصر إلى الآن . لم يكتب لا تفصيلا ولا إجمالا . وهو حين يكتب سوف يقف الجمهور فى مصر كما تقف شعوب العالم خارج مصر على جنايات تتجاوز حدود الخيال . فقد هبت الأمة فى ١٨٨٢ بقيادة عرابى تطلب من الخديوى توفيق طلباً متواضعاً ، بالمقارنة إلى سائر الأمم ، هو الحكم البرلمانى . وبعد أن سلم الخديوى بهذا الطلب عاد فماحك فيه وانتهى إلى القول بأن مجلس النواب يستطيع أن يفعل ما يشاء إلا النظر فى الميزانية . ومعنى هذا أنه لا يستطيع شيئاً بتاتاً . لأن كل مشروع يحتاج إلى مال يدخل فى الميزانية وإذن يستطاع إلغاؤه ويعود البرلمان كما لو كان جمعية يتمرن أعضاؤها على الخطابة العقيمة الثرثارة . وإذا كان جائزاً لملك أو أمير أن يطلب مثل هذا الطلب من أمته لكان يجب فى ظروفنا فى ١٨٨٢ ألا يجوز مثل هذا الطلب من الخديوى فى مصر . لأننا فى تلك السنين كنا خارجين من سنوات الافلاس للحكومة المصرية ، وهو الافلاس الذى كان يرجع سببه إلى تصرف الخديوى السابق اسماعيل . وما زلنا نحن إلى ١٩٤٧ نؤدى أقساط هذا الدين الأبدى .

وكان الخديوى توفيق يصر على منع النواب من النظر فى الميزانية

بتحريض الماليين أى الساسة ، لأن السياسة هى المال ، من الانجليز والفرنسيين . فان هؤلاء كانوا يوقنون بأن الدين المصرى ظلم فاحش واحتيال سافل . وكانوا يتوقعون من النواب المصريين عرقلة فى دفع الأقساط . فكان لذلك خوفهم من الحركة الوطنية المصرية وتأييدهم لاستبداد الخديوى توفيق فى اصطدامه بعرابى .

وشخصية عرابى هى شخصية مقدسة فى تاريخنا ، شخصية الفلاح الناهض الذى لم يطق رؤية أبناء الأتراك والشركس والأرمن يمتازون على أبناء المصريين فى الجيش والادارة . فثار على هذا النظام . ثم رأى أن النواب فى ثورة أخرى لأجل الحكم البرلمانى الصحيح . فاندغمت الثورتان ضد الخديوى توفيق وضد طبقة الأتراك والشركس .

ورأى الانجليز الخطر على ديونهم التى أوقعوا فيها اسماعيل كما رأوا الفرصة سانحة كى يحتلوا مصر . ثم يحيلوها بعد ذلك إلى مزرعة للقطن تغنيهم عن الواردات الأمريكية من القطن ويقفون أيضاً على قناة السويس وهى باب البحر المتوسط إلى آسيا . فكانت الحرب بين الانجليز المستعمرين ، أى الساسة التجاريين والصناعيين ، وبين الفلاحين المصريين .

وكان يعاون الانجليز فى هذه الحرب الغادرة عرب الصحراء والأتراك والشركس . ولم يكن يعاون الفلاحين أحد .

وانتهت الحرب بهزيمتنا أى هزيمة الفلاحين المصريين ودخلت مصر ، سياسياً ، فى العصر الجليدى ومحى اسمها من التاريخ وأوقف تطورها نحو خمسين سنة . وأعاد الانجليز إلى الخديوى سلطته الاستبدادية وألغوا

البرلمان . وأيضاً أعادوا حكم الأتراك والشركس والأرمن . كما نرى مثلا أن رياسة الوزراء لم تسلم إلى مصرى من أبناء الفلاحين منذ ١٨٨٢ إلى ١٩٠٨ أى مدة ٢٦ سنة تولى فيها هذه الرياسة أبناء الأرمن والشركس والأتراك وحدهم . وبقى الانجليز بعد ذلك على هذه القاعدة كلما رأوا نهضة من الفلاحين . فانهم كانوا يعمدون فوراً إلى أحد أبناء الأتراك أو الشركس فيولونه رياسة الوزراء كى يحطموا به نهضة الفلاحين أى الحركة الوطنية .

ثم شرع الانجليز فى مهمتين سلبيتين إحداهما منع التعليم فأقفلوا المدارس . وثانيتهما منع الصناعة فلم يأذنوا باقامة مصنع . بل لقد أقمنا مصنعاً لنسيج القطن فى بولاق حوالى ١٩٠٠ اشتغل وأنتج الأقمشة فتعقبوه بالمعاكسات حتى أقفلوه وعينوا مديره الأرلندى فى وظيفة حكومية. ولا تزال أسسه قائمة . وقد حصلت من كامل صدقى باشا على أحد الأسهم التأسيسية لهذا المصنع الذى عمل الانجليز على إفلاسه . ثم حددوا التعليم وصرحوا بأن المقصود منه إيجاد موظفين فقط للحكومة . وكانت مدرسة الطب محدودة العدد حتى أن خريجيها فى بعض السنين لم يكونوا يزيدون على ٦ أو ٧ أطباء فى العام كله . وكان أطباء الجيش المصرى يجلبون من لبنان من خريجى الكلية الأمريكية فى بيروت . وكانت حالنا مع ذلك أفضل من حال الهنود ، فان هؤلاء كانوا محرومين من مدرسة للطب إلى ١٩٢٠ فلم يكونوا يتعالجون وهم ٤٠٠ مليون ، من أمراضهم إلا على أيدى الدجالين أو على أيدى الأطباء القليلين جداً الذين تعلموا فى أمريكا أو أوربا .

فتعقل هذا أيها القارئ ، تعقل وتدبر فى هذه القسوة وكيف كنا محرومين من الأطباء قبل ١٩١٩ إلا خمسة أو ستة تخرجهم مدرسة الطب كل سنة .

وكيف حرم الهنود حرماناً تاماً من مدرسة للطب إلى ١٩٢٠ .

وإنى أذكر فيما بين ١٩٠٠ و ١٩١٥ أنى لم أزر طبيباً مصرياً . لا أنا ولا واحد من أعضاء عائلتى . ولم أكن أسمع بطبيب مصرى . إذ كان كل الأطباء الممارسين بالقطر المصرى أجانب من اليونانيين أو الايطاليين أو الانجليز أو الفرنسيين . بل أكثر من هذا . ففى ١٩٢٧ كان على ماهر باشا وزيراً للمعارف ، وسنحت له فرصة فى إحالة الجامعة الشعبية إلى جامعة حكومية وكانت هذه الفرصة هى غياب المندوب السامى البريطانى جورج لويد . وجمع المختصين وصرح لهم « بأننا يجب أن نبادر وأن نؤسس الجامعة المصرية على أساس ثابت فى غياب اللورد لويد لأنه إذا جاء قبل أن ننتهى من هذا العمل فانه سيعارض ويمنعنا من إيجادها » . وتلك كانت خطة الانجليز لتبوير العقول المصرية .

وتم تأسيس الجامعة فى غياب اللورد لويد ، ولما عاد إلى مصر ووجدها قائمة كان ينتفض غيظاً وجزعاً .

وكانت همة الانجليز المشئومة فى منع التعليم تتجه إلى البنات كما تتجه إلى الغلمان فانهم منعوا التعليم الثانوى للبنات ولم نستطع إيجاد مدرسة ثانوية للبنات إلا فى ١٩٢٥ . وكانت وزارة المعارف ترسل بعثات إلى أوربا وتشترط على أعضائها ألا يلتحقوا بأية جامعة ، وإذا فعلوا فصلوا من البعثة وحرموا من الاعانة المالية .

هذا من ناحية التعليم من حيث المنع أى من حيث تحديد الكم؛ ولكن حملتهم المشئومة كانت تتجه أيضاً نحو الكيف . فكانوا مثلا يصرون على ألا تدخل بنت فى المدرسة السنية الابتدائية (أكرر كلمة ابتدائية) إلا وهى مبرقعة كما كانوا يصرون على أن يكون معلم اللغة العربية معما ، غيرة على التقاليد . حتى نبقى من دعاة الفعل الماضى نعيش فى الأسس .

أما من ناحية الصناعة فقد عرّفوا المصنع فى عام ١٩٠٤ بأنه : « محل مقلق بالراحة أو مضر بالصحة أو خطر » ولا يزال هذا التعريف قائماً إلى الآن . وهو يكفى لاقفال أى مصنع فى العالم . ولذلك لم يجرؤ واحد على إنشاء مصنع إلى ١٩١٩ بل إنى أنظر فى جدول الصادرات والواردات فى ١٩١٣ فأجد أن الواردات إلى مصر كلها من السلع الانتاجية أى الآلات لا يزيد ثمنها على ١٨٠٠ جنيه أى أقل مما يحتاج إليه مصنع صغير فى سنة واحدة .

واتجه الانجليز إلى إحالة القطر المصرى كله إلى عزبة للقطن وانبعثت همتهم إلى زيادة محصوله بايجاد المشروعات للرى حتى يتوافر فيشترونه رخيصاً ولا يخشون المزاحمة الأمريكية فى الأسواق العالمية . ولم يكن الانجليز قط أمة زراعية فكان من العجب أن يفتونا هم فى الزراعة ويتسلطوا على حظوظنا فيها . والمتأمل لتاريخ وزارة الأشغال ووزارة الزراعة يجد أنهما كانتا تعملان وتشتركان لهدف واحد .

هدف واحد ليس له ثان هو زراعة القطن . الأولى تقيم القناطر

وتخزن المياه وتشق القنوات والثانية تقوم بالتجارب لايجاد سلالات جديدة من القطن تمتاز بها صناعات لنكشير فى انجلترا .

أما كيف نصنع قطعة من الجبن أو كيف نزرع التفاح أو كيف نربى الدجاج أو كيف نزيد ثروة الفلاح ، فكل هذا لم يخطر قط بالأذهان المالية السياسية البريطانية . وقد أدى بنا هذا إلى أننا ، ونحن أمة زراعية كما زعموا ، كنا نشترى أقة التفاح بجنيه ونصف جنيه مدة الحرب الأخيرة .

والانجليز فى جنونهم بزراعة القطن لم يبالوا قط بما سوف يؤدى إليه خزن المياه فى النيل ، وتوفيرها فى قنوات الريف ، من الأمراض. لم يبالوا أية مبالاة سواء بصحة التربة أو صحة الفلاحين أو الماشية أو النبات . فان أى إنسان ، مهما يكن جاهلا ، كان يستطيع أن يفهم فى ١٩٠٠ مثلا أنه إذا استشبعت التربة بالمياه الوفيرة فانها ستملح وتقل خصوبتها . كما أن الحشرات والديدان ستعيش فيها وتتكاثر . ولابد أن تفشو ديدان البلهارسيا والانكلستوما والاسكاريس

وقد فشت كل هذه الديدان التى لم نكن نعرفها فى ١٩٠٠ إلا قليلا جداً . إذ لم يكن بين الفلاحين ممن يحملون هذه الديدان فى أجسامهم تأكل لحومهم وتشرب دماءهم من ١٨٩٠ إلى ١٩٠٠ سوى ٢ أو ٣ فى المائة فأصبحوا الآن ، بفضل جنون الساسة التجاريين من الانجليز ، نحو ٨٠ أو ٩٠ فى المائة وأصبحنا أمة مريضة نحاول الآن أن نشفى فلاحينا من هذه الديدان .

ومحاولتنا إلى حد بعيد عقيمة لأن أساس الرى الذى وضعه الانجليز

فى جنوبهم بزراعة القطن وهم أمة غير زراعية ، هذا الأساس ، لايزال قائماً . ومياه الرى تعلو على مستوى التربة .

وإنى أذكر حين كنت صبياً بين ١٨٩٥ و ١٩٠٠ إنى كنت ألعب مع الصبيان الفلاحين فى الريف فكنا نجد الأرض أيام الجفاف مشققة يبلغ عرض الشق فيها نحو ربع متر وقد يطول إلى خمسة أمتار أو أكثر ولا يقل عمقه عن نصف متر أو متر . وكانت الحشرات والديدان تموت فى هذا الجفاف . وكان الفلاحون يستمتعون بصحة عجيبة وكان الفدان يغل عشرة قناطير أو اثنى عشر قنطاراً من القطن . وهذا كلام يكاد الفلاحون أنفسهم لا يصدقونه . ولكنى رأيته بعينى . وخصوبة الأرض متصلة ، كما يعرف جميع الذين مارسوا الزراعة وفطنوا إلى الأمراض الريفية ، بصحة الفلاح بل بصحة النبات والحيوان . ولكن طرق الرى التى أنشاها الانجليز فى ريفنا أفسدتنا جميعاً ، ناساً وحيواناً ونباتاً وتربة .

تبوير العقول المصرية بمنع التعليم .

وأفقار الأمة بمنع الصناعة .

وتعميم الأمراض الدودية بالرى الوفير لزرع القطن .

هذه هى الخطط الأساسية الثلاث التى سار عليها الانجليز فيما بين ١٨٨٢ و ١٩١٩ . وكانوا يدبرونها فى عناية مع التبصر للمستقبل . فانهم كانوا يمنعون تعليم البنات مثلا فى ١٩٠٠ كى لا تكون لنا عائلات متعلمة فى ١٩١٠ أو ١٩٢٠ . وكانوا يمنعوننا من إيجاد مصنع للقطن مهما صغر ، كى لا نستغنى عن أقمشة لنكشير بعد

عشر سنوات . وكانوا يعارضون فى إنشاء جامعة كى لا تتفشى العلوم بيننا فتوقظ عقولنا الخ ...

وبهذا استطاع الانجليز أن ينزلوا بنا إلى الحضيض جهلا وفقراً وعجزاً . ومع أنهم هم السبب الأصلى للجهل والفقر والعجز فانهم كانوا يحتجون علينا بهذه النكبات الثلاث عندما كنا نطلب الاستقلال . فكانوا فى ١٩١٩ ، يذيعون فى أنحاء العالم أن القارئين فى مصر لا يزيدون على ٢ أو ٣ فى المئة وسائر الشعب غارق فى غياهب الجهل. وكان أحد مستشاريهم فى ١٩١٩ أيضاً يلوم علينا جهلنا وأنه ليس بين المصريين من يدرى عمليات البورصة .

ومما زاد فداحة الاحتلال الانجليزى لوطننا فيما بين ١٨٨٢ و ١٩١٩ أن تلك الفترة كانت فترة الاستعجال والترويج للانقلاب الصناعى التاريخى ليس فى أوربا وحدها بل فى العالم كله . ونعنى فى العالم الذى لم ينكب بالاستعمار البريطانى . ولذلك كان تخلفنا عظيما جداً فى نتائجه . حتى أن ثورة ١٩١٩ ثم ما تلاها من تطور اجتماعى أو اقتصادى تكاد تعد من المعجزات ، أجل من المعجزات على الرغم من جميع العراقيل التى وضعها الانجليز لمنع تطورنا .

ولو أن تطورنا سار سيرته الطبيعية من ١٨٨٢ إلى الآن بلا تدخل أو احتلال الانجليز ، ولو أن الخديوى توفيق نزل على رأى مجلس النواب ، لكانت مصر الآن فى مقدمة الأمم المتمدنة . مائة فى المائة من أبنائها يقرأون ويكتبون ويتعلمون فى نحو عشرين جامعة ونحو خمسين ألف مدرسة ابتدائية وثانوية . وكان أجر العامل فيها لا يقل عن جنيه

فى اليوم حيث كان يعمل فى نحو خمسين ألف مصنع مصرى وكنا عندئذ نكون أمة قوية فى زاوية البحر المتوسط لا تجرؤ بريطانيا على أن تنطق بكلمة فى شأن قناة السويس .

وكنا نكون أمة متمدنة لنا ريف متمدن لا تخلو قرية من قرانا من نحو مصنعين أو ثلاثة مصانع تحيل المواد الخامة الريفية إلى مصنوعات عصرية .

كل هذا كان ممكناً لو أن أحداً لم يقف ضد مجلس النواب ويصر على أنه لا يجوز للنواب بحث الميزانية .

ولو أن الانجليز لم يحتلوا مصر فى ١٨٨٢ .

وحتى بعد أن حصلت الأمة على الدستور فى ١٩٢٢ بقى الانجليز على خطتهم القديمة وهى مكافحة الحكم النيابى . فكانوا يتحينون الفرص لتزييفه ويختارون الرجال لتحطيمه . ولذلك بقى طراز الصراع الذى كان بينهم وبين الأمة فى ١٩٢٢ كما كان فى ١٨٨٢ بينهم وبين عرابى . وكانوا يبحثون عمن بقى من الأتراك والشركس كى يجعلوهم رؤساء للوزارات التى تناهض الحركة الوطنية الممثلة فى الوفد . فرأينا زيور يجمع البرلمان فى الصباح ويطرد أعضاءه فى المساء فى ١٩٢٥ كأن نواب الأمة غوغاء لا أقل ولا أكثر .

وأرجو القارئ أن يفهم أنى لست أشك فى وطنية أبناء الأتراك والشركس فى مصر الآن . فقد اندغموا فى الأمة ونسوا الصراع القديم أيام عرابى كما نسوا لغتهم الأصلية . ولكن الانجليز يحسون هذا الصراع القديم أكثر مما نحسه نحن ثم يسيئون فهمه أيضاً . وإن

كان مثال زيور يدل على أنهم لم يسيئوا الفهم . فقد حاول هذا المخلوق أن يحطم الحياة النيابية فى مصر ونجح فى تحطيمها سنين طويلة .

أخشى بعد أن سردت الكوارث التى أنزلها الاستعماريون الانجليز بشعبنا أن يعتقد القارئ أنى أكره الانجليز أو أن يؤدى ماذكرته إلى أن يكره هو الشعب الانجليزى . فان هذا الشعب من أنبل الشعوب فى العالم . وما أستمتع به أنا من ثقافة أو قيم بشرية سامية يعزى معظمه إليه . وإنما أنا أكره الاستعماريين الانجليز فقط . وهؤلاء الاستعماريون ينهبون الشعب البريطانى ويذلونه بالفقر والجهل كما كانوا ينهبوننا ويذلوننا . وليس الشعب البريطانى ثرياً إلى الحد الذى يتخيله وينتظره الانسان حين يتأمل هذه الامبراطورية الشاسعة . وصحيح أنه انتفع بموارد الامبراطورية التى حركت الصناعة . ولكن معظم المنفعة يعود إلى الاستعماريين والاستغلاليين . وهم طبقة واحدة . أى أن الذين يستغلون العمال فى منشستر وجلاسجو و برمنجهام هم أنفسهم الذين كانوا يستغلون المصريين والهنود والجاويين . وفى بريطانيا من الفقر ماليس فى أمة لا تملك أية مستعمرات مثل سويسرا أونروج أو سويد . وقد ذكر هيوليت جونسون أن الصبيان الفقراء فى يوركشير (فى انجلترا) عندما عرض عليهم الموز رفضوا تناوله ولم يعرفوا كيف يؤكل لأنهم لم يأكلوه قبل ذلك . وكذلك فعلوا بالبيض . وذكر السر جيمس أور أن الذين يحصلون على الغذاء الكافى فى

انجلترا لا يزيدون على النصف وأن سدس الأمة الانجليزية مريض للنقص الغذائى .

ومرتب الكناس فى المجلس البلدى (من إحصاء فى ١٩٣٨) فى سويسرا هو ٢٢٣ جنيهاً فى السنة . وفى سويد ٢١٠ وفى دنمركا ١٥٠ . وليس لهذه الأمم مستعمرات . أما مرتب الكناس فى المجلس البلدى فى لندن فهو ١٤٠ جنيهاً فى السنة فقط . وأنى أقصد من ذكر هذه التفاصيل أن أبين للقارئ أن الشعب الانجليزى برىء من الجرائم الاستعمارية التى يرتكبها دعاة الاستعمار والاستغلال وأن البرهان على ذلك هو فقر هذه الطبقات الدنيا فى انجلترا ، هذه الطبقات التى تعيش فيما يقارب الحرمان والمرض اللذين تقاسيهما نحن المصريين والهنود والجاويين من التسلط الامبراطورى البريطانى مع تفاوت فى الدرجة.

الشعب الانجليزى شعب متمدن نبيل . ولكن الاستعماريين من الانجليز أشرار بل أبالسة يجب ألا نذكرهم إلا باللعنات .

فلسفة وديانة

نعيش فى ضوضاء تلهينا عن الفلسفة ، أى تلهينا عن الدين . لأن الفلسفة هى الدين . والرجل العصرى الذى يدرس الفلسفات والأديان بروح المتعلم يجد بينهما اختلاطاً يشبه الاندغام . وذلك لأن قضية الدين هى نفسها قضية الفلسفة ، وهى : كيف نفكر التفكير السليم ونعيش العيشة الطيبة ؟ ومقاييس الدين هى فى النهاية مقاييس الفلسفة ، كما نرى مثلا فى كلمة برنارد شو : إن الرجل الطيب هو الذى يعطى الدنيا أكثر مما يأخذ منها . أى إن الدنيا تجد بعد انقضاء عمره أنها كسبت به ولم تخسر ، وأنفقت عليه أقل مما ترك لها . وهذا الذى تركه لها قد يكون حكمة أو قدرة أو علما أو اختراعاً أو زيادة فى الثروة أو الخير أو السلام .

وهذا المقياس فلسفى دينى . ولذلك حين أتحدث عن فلسفة الحياة التى أعيش بها هذه الأيام وأنا فى الستين أو حواليها ، أجد أنها مزيج من الفلسفات والأديان . وصحيح أن الدين يطالبنا بالتسليم ،والفلسفة تطالبنا بالمنطق . ولكن ليست هذه الحال دائمة أو واضحة الحدود ؛ فان فى الدين منطقاً كما أن فى الفلسفة تسليما فى بعض الأحوال .

وقد يقال أيضاً إن فى الدين غيبيات وليس فى الفلسفة غيبيات.

ولكن هل هذا صحيح ؟ ألسنا نقف مع أينشتين أو غيره إزاءغيبيات علمية حين يتحدثون عن الكون المتمدد الذى يدأب فى الاتساع فى الخواء ؟

إنى أذكر أنى ، حين كنت فى حمى المراهقة ، شرعت أسائل وأشك فى الغيبيات المألوفة . ولم تزدنى السنون من ذلك الوقت إلا يقيناً بالانكار . ثم تطورت الفكرة الدينية عندى أو انتقلت من التسليم بالغيبيات إلى الايمان بالقيمة الاجتماعية للدين أو الفلسفة و إلى تربية الضمير ، حتى تتغلب ، فى اللغة السيكلوجية ، الذات العليا على الذاتين الاجتماعية والحيوانية ، أى تتغلب القيم البشرية على القيم الاجتماعية والمادية .

وليس من السهل أن يكشف الانسان عن ضميره الدينى كيف تكون ثم نما ثم تبلور فى قليل من الاتجاهات الأخلاقية الرئيسة ثم تجوهر فى اتجاه مفرد يجذب إليه كل ما فى الشخصية من نشاط روحى . ولكنى أذكر أنى ، وأنا دون العشرين ، أحسست أن نظرية التطور تأخذ مكاناً دينياً فى نفسى وأنها قد حملتنى واجباً روحياً . وقد نما هذا الواجب فى نفسى إلى واجبات . ذلك أن افاق الحياة لم تتسع فقط بنظرية التطور ، بل زادت فى العدد واللون ، كما شسع بها تاريخ البشرية شسوعاً عظيماً . ذلك أننا قد فهمنا من هذه النظرية أن كل حى على هذه الأرض لا يقل عمره عن ألف مليون سنة . لأن كل إنسان قد كان فى وقت ما طينة نبضت بالحياة ، فاذا به فيروس ثم أميبة مفردة ، ثم أميبات متصلة متعاونة ، ثم حيوان رخو بلا رأس ، ثم

سمك ، ثم زاحفة ، ثم حيوان لبون ، ثم قرد ، ثم إنسان . ثم هذا الانسان سوف يكون سبرماناً .

فهنا قرابة تطورية بيننا وبين الحيوان . وفي هذا معنى ديني جليل لأننا والأسود والكلاب والقياطس والسمك أبناء عمومة . وكلنا قد قطعنا على هذا الكوكب نحو ألف مليون سنة . وقد انقرض بعضنا وبقى بعضنا الآخر . ولكن مع هذا الانقراض والبقاء يتجه التطور في مجموعه نحو ما نفهم من الرقى البشرى : وجدان موضوعى يأخذ مكان العواطف الذاتية ، أى عقل يسمو على الغرائز . وإذن نجد أن للرقى البشرى أساساً طبيعياً . بل إن هذا الرقى مفروض علينا وواجب حتم بل واجب دينى بحيث يتطور الفرد وتتطور الأمة وتتطور الدنيا . ومن يعارض التطور ويدعو إلى الجمود يكفر لأنه يعارض الدين . وليس التطور كله منطقاً نستطيع أن نقيم عليه البرهان الناصع لأن فيه كثيراً من التسليم . ومن هنا كانت المشابهة بينه وبين العقائد الدينية . وليس من الضرورى ، كى يكون لنا دين أو ضمير دينى ، أن نؤمن بالغيبيات ؛ لأن المعارف العلمية فى أيامنا تكسبنا نزعات دينية . فهناك رجال الثورة الفرنسية مثلا . فقد اشتطوا وألغوا الديانة المسيحية ، وأسسوا ما أسموه « ديانة العقل » . والانسان العادى حين يقرأ تاريخهم ويصفهم الوصف المألوف يقول إنهم « كفرة » . ولكنا عند ما نتأمل سلوكهم نجد أنهم كانوا مسوقين بروح دينى ، بل أكثر من هذا بعقائد دينية . وهنا تعجبنى كلمة قالها ماتزينى الوطنى الايطالى : « ليس هناك انتصار للروح البشرى أو خطوة

ارتقائية للمجتمع البشرى إلا ومرجعهما عقيدة دينية راسخة . »

وفى سنى أجد أن مصادر ديانتى ، أو بالأحرى ضميرى الدينى ، إلى جنب البوذية والاسلام والمسيحية واليهودية والهندوكية ، تعود فى كثير من النور الذى أهتدى به إلى السيكلوجية والبيولوجية والأنثربولوجية والتاريخ . فان هذه العلوم قد أفدت منها مغزى المأساة البشرية ، مأساة ماضينا وحاضرنا وآمالنا فى المستقبل . ولذلك كانت ديانتى موضوعية منطقية لا ذاتية عقيدية فقط .

ومع أنى نشأت فى المسيحية واحتضنتنى الكنيسة أيام طفولتى وصباى فانها كانت فى تلك السنين الأولى من عمرى فى جمود لايحمل على الحماسة أو يبعث الولاء أو يربى الضمير . وليس شك أن الكنيسة القبطية قد نهضت هذه الأيام ، وهى الآن غير ما كانت عليه قبل خمسين سنة .

وقد تغير إحساسى نحوها تغيرات مختلفة ؛ فقد عزفت عنها أيام الشباب لأن وطأة العلوم العصرية كانت شديدة على نفسى . ثم عدت إليها فى حنان فوجدت فيها تاريخنا المعذب الممزق ، ووجدت صوت الفراعنة ينطق عالياً من منابرها . فأصبحت الكنيسة القبطية عندى كنيسة قومية مصرية . ولكن لم يكن هنا دين إذ كان كل هذا إحساساً تاريخياً .

أجل ! قد يقال هذا القول ، وأنا أسلم بصحته إلى حد ما . ولكن الاحساس التاريخى ينطوى أيضاً على إحساس دينى . ولست أشك أنى حين انكببت على دراسة الفراعنة ، إنما كنت أنبعث بروح دينى

قومى . والدراسة الصحيحة للتاريخ يجب أن تكون موضوعية علمية كما يدرس أى علم . ولكن قلما نستطيع ذلك إذا كنا ندرس تاريخنا القومى .

وقد عرفت حوالى ١٩٣٥ المرحوم كامل غبريال باشا ، وكان قد درس اللغتين القبطية والفرعونية ، وحاول أن يحملنى على درسهما . ولكن سنى المتقدمة حالت دون ذلك . وقد نهضت هذه اللغة فى بعض الأوساط القبطية ، ولكنها لم تبلغ المكانة التى بلغتها اللغة العبرية بين اليهود ، أى أن تصير لغة التخاطب والتفاهم بل التأليف . فان اليهود الصهيونيين قد انقلبوا إلى عبرانيين وأحيوا لغتهم التى كانت قد انقرضت حتى فى أيام المسيح . وظنى أنهم يخسرون بذلك ؛ لأن هذه اللغة لن تتسع للثقافة العصرية . كما أن الأرلنديين الوطنيين قد خسروا أيضاً باحياء لغتهم القديمة ؛ لأن اللغة الانجليزية خير لهم، ولو أنها لغة الفاتحين الغاصبين ، من لغتهم التى لن تتسع للثقافة العصرية .

وما زلت أذكر الأثر السيكلوجى فى صديقى كامل غبريال باشا ؛ فانه لتعلقه بلغة الفراعنة صدّ عن المسيحية باعتبارها ديانة أجنبية قد طردت الديانة المصرية القومية . وكان كثيراً ما يعقد المقارنات بين عقائد الكتاب المقدس (التوراة والانجيل) وبين عقائد الفراعنة، كى يقنعنى بأفضلية الثانية على الأولى من حيث الأخلاق السامية والقيم البشرية العالية .

وقد كان أثر العقليين كبيراً جداً فى نفسى ؛ حتى إنى لخصت

أحد الكتب التى كانوا ينشرونها وهى « نشوء فكرة الله » لجرانت ألين . وأصدرت هذا التلخيص فى نحو ثلاثين أو أربعين صفحة فى مصر حوالى ١٩١٢ . ويرى القراء هذا الكتيب ضمن كتابى «اليوم والغد» . وقد كان هدف المؤلف أن يثبت تسلسل الأديان ، وأن التوحيد الحاضر يرجع إلى الأديان القديمة . ولم يكن جرانت ألين مصيباً فى جميع افتراضاته ، ولكنه استهوانى فى تلك السنين للنظر المادى الذى اتبعه فى تفسير الغيبيات . وبعد ذلك عرفت « الغصن الذهبى » لفريزر وهو موسوعة رائعة للعقائد القديمة وتسلسلها إلى أيامنا تحت أستار مختلفة . ثم زادنى نوراً تلك البحوث المتشعبة التى قام بها أليوت سمث وزملاؤه فى إيضاح الأثر الذى تركته العقائد المصرية القديمة . وهذه المؤلفات لفريزر وأليوت سمث ، مع تناقضها ، هى تربية خصبة وتثقيف سام لكل من يدرسها . ولا يستطيع إنسان أن يصف نفسه بأنه مثقف إلا إذا عرفها . ولكن اهتماماتى بهذه الدراسات وقتئذ لم تكن دينية بل كانت تاريخية .

على أن اهتمامى بالدين بدأ وأنا حوالى الأربعين . ذلك لأن النضج الدينى ، مثل النضج الجنسى ، لا يأتى إلا فى ميعاد . فقد شرعت أقرأ الكتب المقدسة جميعها فى عناية ، وأشغل نفسى بالمشكلات الدينية الهندوكية . وكنت أجد فتنة فى أنبياء التوراة بل فى أسلوب التوراة . كما أنى وجدت أن القوة الجاذبة فى شخصية المسيح كبيرة جداً . وقد مضى على نحو عشرين سنة وأنا أحلم بتأليف كتاب عن شخصية المسيح بحيث أكتب فى حرية الضمير مع إيمانى به وحبى له . ولكنى

كلما كنت أفكر فى الالتباسات ، التى سوف تنشأ بينى وبين بعض القراء ، كنت أنكص وأنا فى أسف ومرارة . لأنى أكره أن أؤلم المطمئنين المستقرين الذين قد لا يجدون الطمأنينة واليقين فى السيرة التى أرويها مخلصاً أنشد الحقائق ولا أبالى غيرها . وموقفى هنا هو موقف تولستوى وريتان .

ومن الأخطاء الصغيرة الخطيرة التى ارتكبها المترجمون للانجيل إنهم يذكرون الله على لسان المسيح بكلمة «أبى» . ولكن الحقيقة أن المسيح كان يسمى الله باسم أبّا أى « بابا » وهى كلمة التحبب والأدلال ، كلمة الأطفال . وذلك لاحساسه العميق الحميم بأبوة الله أبوة حقيقية . ومن هذه البؤرة العاطفية تشع سائر عواطفه فى التحيز للفقراء والمساكين وفى الاحساس بأن البشر جميعهم عائلته لأن «بابا» لا ينسى واحداً منهم .

وشخصية المسيح هى بعد كل ذلك شخصية متلقة . فان كل أمثولة من أماثيله تبعث على التفكير المتلق المثمر . إذ هو يثير بها المشكلات البشرية العديدة التى تنزعنا من القيم الاجتماعية الزائفة إلى القيم البشرية الصميمة . وحياته الرائعة ، ثم مأساته المؤلمة ، كلتاهما دعوة إلى البر والشجاعة والشرف والتضحية . ولا يتمالك المتأمل للانجيل من الوجدان بأن الضمير المسيحى يقتضى النظام الاشتراكى . لأن هذا النظام هو التطبيق العملى للأخلاق المسيحية . والمسيحية تعد ، فى هذا المعنى ، ديانة الكفاح وليست كما يتوهم البعض ديانة الركود .

ولست أشك أن الرجل المسيحي فى دنيانا هذه وفى عصرنا هذا هو المثال الأسمى فى الأخلاق . وهناك كثيرون يعيشون الحياة الطيبة ، أى الحياة المسيحية كما أرادها المسيح الذى دعانا من ناحية إلى أن نكون كالأطفال فى السذاجة والاستطلاع والبعد عن الشر، أى أن تكون القيم التى نعمل بها قيما بشرية ، نحب الأشياء التى يحبها الأطفال : نحب اللعب ونحب الزهر ونحب كل شئ حسن يرجع حسنه إلى قيمته الأصلية لا إلى القيمة التى يفرضها المجتمع . ثم دعانا من ناحية أخرى إلى أن نخشى مديح الناس . بل قال : ويل لكم إذا أثنى عليكم الناس ! وهنا دعوة إلى الاستقلال الفكرى أو الروحى، استقلال الضمير ، حتى نعمل مايوحيه إلينا الشرف دون مبالاة لاعتبارات المجتمع . وقد يكون هؤلاء مع ذلك غير مؤمنين الايمان الرسمى بالمسيحية . إذ ليس من الضرورى ، كى يكون للانسان ضمير دينى ، أن يؤمن بدين معين . فان جميع الأديان سواء من حيث إنها تنشد الحياة الطيبة .

وأذكر هنا أن نحو ستين عضواً من جمعية الشبان المسيحية كانوا يصطافون فى صحراء العريش فى سنة ١٩٣٧ ، وكان بيننا المسلم والمسيحى واليهودى والبهائى . فكنا فى الصباح نقرأ قطعة من القرآن أو الانجيل أو التوراة مناوبة . وكان البهائى يجد فى كل واحد من هذه الكتب كتاباً مقدساً له . وكنا نجد نحن فى جميع ما يقرأ لنا من أى كتاب منها دعوة صالحة توحى الخير والشرف والحياة الطيبة والحب . وقد وجدت أن الجمع بين هذه الكتب والاختيار منها

على مبدأ المساواة قد بعث على التفكير الديني البار بين الأعضاء وربط بينهم برباط ديني محايد أي غير متحيز . حتى لقد انتحى بي بعض الأعضاء وسألوني : لم لا يفعل جميع البشر مثلما نفعل نحن هنا في العريش ؟ أي يضعون جميع الكتب المقدسة في جميع المعابد .

وأذكر أني نصحت لهم بأن يقرءوا حياة السلطان أكبر الهندي الذي تولى الحكم في القرن السادس عشر ؛ فانه عقد مؤتمراً من الأئمة والكهنة من المسلمين والمسيحيين واليهود والهندوكيين وطلب منهم أن يتفقوا على ديانة جديدة موحدة من هذه الديانات الأربع . وقد أخفق المؤتمر لأن الأعضاء ، كما ينتظر ، لم يتفقوا . ولو أنه كان قد اختار أعضاء هذا المؤتمر من المدنيين دون الدينيين لكان هناك مجال للظن بالنجاح . بل لقد قيل إن السلطان أكبر هذا قد تزوج أربع نسوة إحداهن مسلمة والثانية هندوكية والثالثة مسيحية والرابعة يهودية . وذلك كي ينشأ أبناؤه على أساس من الحب الذي يدعمه التقارب الديني . وقد عاشت أسرته جملة قرون وهي لا تعرف معنى للتعصب في الهند بين المسلمين والهندوكيين . فكان الصليب يعانق في الغرفة التي يأتي إليها القارئ في الصباح كي يقرأ إحدى سور القرآن ، وكان المبشرون من اليسوعيين يقعدون في حضرته إلى جنب كهنة اليهود . وقصة أكبر هي إحدى قصص القداسة الهندية التي نرى لها صورة أخرى في عصرنا في غاندي .

وجميع الكتب المقدسة سواء عندي . ولكني أضيف إليها عشرات من المؤلفات الأخرى في الفلسفة والأدب . ولذلك أقول إن بعض

دياني يرجع أيضاً إلى « جمهورية أفلاطون » وإلى « الانسان والسبرمان » لبرنارد شو ، وإلى مؤلفات جان جاك روسو وتولستوى ودستويفسكى وإلى أخناتون . فقد زودنى هؤلاء جميعاً بهورمونات دينية . وقبل نحو خمس عشرة سنة شاعت دعوة فى أمريكا وأوربا إلى ما يسمى « البشرية » . وهى ديانة تستبعد الغيبيات ، وتؤمن بالرق البشرى القائم على التطور . وهى تعتمد على الكتب المقدسة وكتب الأدب والتاريخ والفلسفة . وقد وجدت فيها إغراء كبيراً .

ولكن ما أحب أن أوضحه للقارئ هو أن الدين عندى كان تربية بطيئة لم أصل بعد إلى نهايتها ولكنى فى سبيلها . والدين كالفلسفة أو الأدب نأخذ منها بمقدار ما ورثنا من كفايات وامتزنا به من أوساط تعلم وتربى وتوجه . وهنا يغير كالفين هذا التعبير فيقول : إننا إنما نفهم من الدين بمقدار ما وُهبنا من نعمة الله .

وقد كان نفورى أيام شبابى من الغيبيات علمياً منطقياً ، ولكنى أنفر من الغيبيات الآن لأسباب اجتماعية . لأنها ، أى الغيبيات ، جبرية ليست فيها حرية الماديات . أى إن التفكير المادى حر متطور ، أما التفكير الغيبى فتقيد جامد : ونحن نتحرر بالأول ونتقيد بالثانى .

ولكن الفلسفة ، أى الديانة ، ضرورية لكل إنسان . والرجل إذ يقول إنه ليس له ديانة هو ، كما يقول برنارد شو ، إنما يقول إنه ليس له شرف . ونحن حين نستقطر العلم أو الأدب أو الفلسفة أو الفن كى نجد لها كلها غاية ، إنما ننشد بهذه الغاية ديانة نعيش بها أى دستوراً روحياً وأخلاقياً يعين علاقتنا بالطبيعة والكون والانسان

والمستقبل . ونحن نحس الحاجة إلى هـذا الدستور وهو ليس دستوراً جامداً إذ هو يتغير ويتطور كلما تقدمنا فى السن وازدادت بصيرتنا نوراً .

ولما شرعت أدرس السيكلوجية وجدت ناحية من الدين لم أكن قد التفت إليها ، هى سلام النفس . فانه ليس شك فى أن المتدين يحس سلاماً ويجد ابتهاجاً يحرم منهما غير المتدين . ذلك أن المتدين يثق بالكون ، وكأنه يحس أنه ، أى الكون ، لن يخونه حتى حين يصطدم بالمصاعب . أو قل إنه يعيش فى وسط أوسع كما أن آفاقه تمتد إلى آماد أبعد . ونستطيع أن نزن هذا الموقف حين نتخيل غاندى إزاء الجبال من المصاعب التى يلاقيها . فانه فى كل حياته أكثر اطمئناناً وأعمق ابتهاجاً من أى إنسان آخر ، مع أنه يواجه من المصاعب أكثر مما يواجه كل إنسان آخر . وليس غريباً بعد هذا أن تكون للدين ، أى الفلسفة ، قيمة سيكلوجية عظيمة ؛ لأنه يؤدى إلى استقرار النفس ويحول دون التزعزع الذى قد ينتهى بالتحطم . وعند ما نتأمل مرضى النفس نجد أنهم لم يترددوا فى الهوة الا لأنهم استسلموا إلى قيم وأوزان مخطأة . هى فى الأغلب قيم وأوزان اجتماعية انساقوا فيها وأرهقوا بها حتى حطمتهم . وأنهم لو كانوا على فلسفة حسنة ، وعاشوا العيشة الطيبة التى يوحيها كل دين فى العالم ، لكانوا قد أخذوا بقيم وأوزان دينية تتيح لهم سلام النفس الذى فقدوه .

ولا بد أن القارئ سيسائل : أليس هناك فرق بين الدين والفلسفة ؟ وهل أنا محق فى التحدث عنهما باعتبارهما وحدة ؟

وجوابى أنى لا أعرف أمصيب أنا أم مخطئ ، ولكنى هنا أذكر

إحساسى ، وإذا شئت التمييز بينهما فانى أقول إن الاحساس الدينى هو طرب الحب ، حب الطبيعة وحب الحيوان وحب الانسان بل حب الحياة والكون . أما الاحساس الفلسفى فهو تأمل الفكر . ولكن الحقيقة أنهما يندغمان عندى ، وإن كان أحدهما قد يتغلب على الآخر فى بعض الظروف ، وأظن أن هذا هو إحساس غاندى : تأمل فكرى وطرب عاطفى معاً .

وكثير من كفاحى الثقافى ، بل أحياناً السياسى ، قد سرت فيه بتأمل الفكر وطرب الدين . والتأمل يطلب السكون فى حين يستفزنا الطرب إلى الحركة . فاذا مزجنا الدين بالفلسفة وجدنا الكفاح . ولذلك لم أعرف قط ذلك البرج العاجى حيث أستسلم للتفكير بعيداً عن المعركة . إذ أنى لا أكاد أنتهى إلى فكرة بالتأمل حتى يعمنى الطرب فأنشط إلى الكفاح .

وقد قلت إن ديانتنا أو فلسفتنا تتكون أولا ثم تتبلور ثم تتجوهر . وعندى أن هذه النهاية ، هذا التجوهر ، هو الحب . وقد انتهت جميع الأديان إلى هذا الموقف ، كما انتهت السيكلوجية إليه أيضاً . والحب هو اتجاه وسلوك ، هو الاستطلاع الدائم للكون والرغبة النهمة فى المعرفة ، ثم هو التعاون والتسامح . وهذا الحب هو أيضاً ما انتهى إليه الصوفيون المسلمون مثل محيي الدين بن عربى حين يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي   إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبي قابلا كل صـــورة   فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبــة طائف — وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت — ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وفى هذه الأبيات الأربعة قد استقطر ابن عربى روح الدين .

ومن الحسن أن تذاع مثل هذه الأبيات الذهبية وتعلق فى بيوتنا إلى الجدران ، وخاصة فى هذا الشرق العربى الذى يجب أن تتعانق فيه الأديان الثلاثة عناق الحب . ومثل هذه الأفكار الانسانية نجدها أيضاً فى المعرى حيث يقول وإن يكن موقفه سلبياً :

إذا الانســان كف الشر عنى — فسقياً فى الحياة له ورعيــا
ويدرس ، إن أراد ، كتاب موسى — ويضمر ، إن أحب ، ولاء شعيا

ما الدين صوم يذوب الصائمون له — ولا صلاة ولا صوف على جسد
وإنما هو ترك الشر مطرحــــاً — ونفضك الصدر من غل ومن حسد

ولكن يجب أن أقول إن ديانتى ، من الناحية الغيبية ، تشبه بل تطابق ديانة سبينوزا . أى إن المادة والقوة شئ واحد ليس بينهما انفصال . وكذلك الشأن فى العقل والجسم .

وليست هناك نهضة عالمية ، كالثورة على المظالم أو التجديد للمبادئ أو الدعوة إلى الاخاء والمساواة والحرية ، إلا وهى تسير على الأسلوب الدينى . حتى لتتجاوز المنطق إلى الايمان ، وتسرف

وتنشط فى ناحية الغيرة والتضحية والحب ضد الأنانية والاستئثار والبغض . فهى ملهمة بالروح الدينى ، ولن تنجح إلا به . ولذلك كثيراً ما نجد الدعوة إلى الاشتراكية الحزبية تستحيل إلى دعوة دينية عالمية تغمرها الحماسة ويتغلب فيها الايمان . وحركتنا نحن فى مصر فى سنة ١٩١٩ لم تنجح إلا بمقدار ما كان فيها من الحماسة والايمان أى بمقدار ما كان فيها من طرب الدين . وهى لم تتقهقر إلا بمقدار ما فقدت من هذا الطرب الدينى بتفشى الأنانية والاستئثار والبغض .

ولن تعود دعوتنا الوطنية فى مصر ، دعوة الحرية والاخاء والمساواة إلا إذا أحدثت لنا ، كما كانت تحدث فى سنة ١٩١٩ ، طرباً دينياً يتألف من الحماسة والايمان والحب والتضحية .

وأخيراً يجب أن نقول حين نتكلم عن ديانتنا ، كما يقول أندريه جيد « لست كائناً أبداً ؛ إنما أنا صائر » . وبكلمة أخرى يجب ألا نجمد ونستقر ، بل ننمو ونتطور ، وندأب فى استخلاص الحقيقة من المعرفة .

هذا العمر

سن الستين أشبه الأشياء بالقمة نقف عليها فى سياحتنا على هذا الكوكب ونسائل : ماذا أفدنا من الماضى ، وماذا ننتظر من المستقبل وفى أعماق العقل الكامن وسوسة كأنها لغط فى النفس : سن الستين هى سن الاقالة ؛ يجب أن تقال أنت من الحياة .

وفى هذا العام ١٩٤٧ الذى أتم فيه هذه السن أجدنى قد أخرجت كتاباً « كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين » وكأنه احتجاج على الشيخوخة ، ولو أن مىّ كانت حية لقالت لى على عادتها : ها أنت ذا تتشاءم وتحاول أن تتفاءل ، تحس الضعف فتنتخذ القوة .

ولكنى كنت أجيب بأنى ما زلت أحس حماسة الروح بل غلواءه ، وإنى أستطلع الدنيا كما لو كنت طفلا . وحسبى هذا برهاناً على أنى بعيد عن الشيخوخة .

وأعود إلى أيام الطفولة والصبا بل الشباب أيضاً ، فأجد أنى من حيث التعلم المدرسى أو الجامعى قد عشت فى صحراء لم أنتفع بشئ منها . وإنما كان انتفاعى بما كسبت من تربيتى الذاتية : من جامعة الكتب فى اللغتين الانجليزية والفرنسية ، ومن سياحاتى فى أوربا ، وأخيراً ، ولهذا أكبر قسط فى تربيتى ، من اختباراتى الشخصية . وقد

تكون الفترة التى عشتها وأنا على وجدان يقظ بالحوادث فذة من حيث إنها فترة الانتقال من مجتمع الأمس إلى مجتمع الغد . ومن تحول الانتاج من النظام القروى الزراعى إلى النظام المدنى الصناعى ، ومن الغيبيات إلى الماديات . والحق أنى لا أكاد أعرف عصراً تجمعت فيه عوامل اقتصادية واجتماعية انقلابية مثل عصرنا هذا . فان الفترة التى تقع بين ١٩٠٠ و ١٩٥٠ هى تاريخ بشرى يزيد فى مغزاه ونتائجه للمستقبل على القرون التى تقع بين ٥٠٠ و ١٥٠٠ . أجل ! لقد عشنا بسرعة فى هذه الفترة بل هرولنا نحو المستقبل . وهناك من تخلفوا لأنهم لم يطيقوا هذه السرعة أو الهرولة ، فلهثوا وعرقوا ثم قعدوا وبعد أن قعدوا واطمأنوا أخذوا يحفظون عن « ظهر قلب » قواعد الفعل الماضى فى حين بقينا نحن فى الهرولة نحو المستقبل . وليس شك فى أننا نعثر ؛ ولكن العثار مع السعى خير من السلامة مع القعود والركود .

والتربية الحقيقية ، وهى ثمرة العمر لكل إنسان ، هى فى النهاية اختباراته طوال حياته . وليست هذه الاختبارات هى ما يقع لنا بل هى الرجوع والاستجابات لما وقع لنا . ونحن نختلف كثيراً فى هذا ؛ فان هناك من يستجيبون بالصدود والاعتزال ، وهناك من يستجيبون بالاقدام والمكابدة . وهؤلاء هم الذين ينتفعون بالاختبارات . أما المعتزل الذى يؤثر السلامة بالصدود والاعتزال والاحجام والانكفاف فهو ميت حتى لو طال عمره إلى المائة ؛ لأن الحياة لا تقاس بالطول وحده إذ أن لها عرضاً وعمقاً أيضاً ، ولا يكون لها العرض والعمق إلا بأن

بأن ننغمس فيها ولا نقف على ساحلها متفرجين بل نقتحم عبابها ولو تعرضنا بذلك للموت المبكر .

وفى كل حياة من المصادفات ما يعد حسناً أو سيئاً ، وبعضها يقود إلى النمو والخصب ، وبعضها يؤدى إلى البوار والدمار . ومصر نفسها مصادفة سيئة لكل مصرى من حيث إنها مأساة جغرافية . إذ هى تقع فى ملتقى القارات الثلاث الكبرى ، كما أنها تقع فى طريق الملاحة بين آسيا وأوربا . ثم هى فوق ذلك تخلو من الجبال التى تيسر الدفاع ؛ ولذلك وقعت فى أسر الغزو المتكرر . وكان آخر غزاتها هؤلاء الانجليز الذين أحالوها إلى عزبة للقطن ومنعوا عنها الصناعة والتعليم ، وأيدوا الرجعية وضربوا أبناءها المخلصين الثائرين على الاستبداد ، وعمموا فيها الفاقة والجهل والمرض .

ونحن المصريين جميعاً سواء فى هذه الكارثة ، كارثة هذه المصادفة التاريخية بغزو الانجليز لوطننا وبقائهم فيه أكثر من ستين سنة ، يفرضون علينا القيود ويقيمون السدود ويحالفون الرجعيين لقمع الروح المصرى . وكثير مما عانيته فى حياتى من المصادفات السيئة التى عطلت نشاطى وبعثرت قواى يرجع إلى هذه المحالفة القائمة بين الرجعيين المصريين والمستعمرين الانجليز فيما اتفقوا عليه من قيود للحرية كانت تضطرنى إلى أن أدرج بدلا من أن أطير . بل كانت تضطرنى أحياناً كثيرة إلى أن أقعد بدلا من أن أدرج . وهناك من الكتّاب فى مصر من استسلموا لهذه القيود وارتضوها ، بل صاروا يخيفون الجمهور من الحرية

وينعون ما فيها من استباحات تؤدى إلى أخطار . ولكنى لم أدخل قط فى معسكرهم إذ لا أطيق العمل فى هذا الجو الخانق للضمير والذهن .

أما مصادفاتى الحسنة التى أخصبت حياتى فكثيرة ، أذكرها بالشكر للأقدار التى هيأتها لى . وأولها وأكبرها قيمة أنى لم أعرف قط الحاجة المالية ، وكذلك لم أعرف الترف المخدّر . فأنا أتمتع بذلك القلق الذى يبعث على الاهتمام اليقظ المنبه ، ولكنه لا يؤدى إلى الهم المرهق المجمد. ثم صادفتنى مصادفة حسنة أخرى هى أنى عرفت اللغتين الفرنسية والانجليزية فى سن مبكرة . وقد وصلتا بينى وبين الثقافة العالمية العصرية . ولذلك ارتفعت اهتماماتى من المشكلات « القروية » الصغيرة التى تحفل بها صحفنا من جرائد ومجلات إلى مشكلات عالمية بشرية منبسطة الآفاق .

ثم هناك مصادفة أخرى مؤلمة للعالَم منبهة لرجال الذهن . فانى عشت عمرى فيما بين ١٨٨٧ ، ١٩٤٧ فى عصر انقلابى انفجارى رائع من حيث الاكتشافات والاختراعات والثورات ؛ لأنه عصر المعارك التاريخية والصراع الخطير بين مجتمع آفل وبين مجتمع بازغ . كأن حوادث ألف سنة قد تجمعت فى بؤرة زمنية ، كما يتجمع ضوء الشمس من العدسة. فصرنا نرى الانقلاب تلو الانقلاب ، والعالم يعانى الآلام من هذه الانقلابات التى تنبه المثقفين إلى الدرس وتحرك ذكاءهم وتبسط لهم رؤيا زاهية للمستقبل لا يراها غيرهم فى السعادة القادمة من خلال المخاض الحاضر وآلامه .

وعند ما أعرض لحياتى الماضية أجدنى ممتازاً امتيازاً واضحاً جداً بصفة

طفلية هى الاستطلاع . وهذا الاستطلاع يحطم القيود التى وضعها العرف أو كثيراً منها ، فيتسع ميدان الاختبارات و يزيد بذلك الوجدان. وهذا الاتجاه نفسه ، أى الانتفاع بالاختبارات ، يغير القيم والأوزان بحيث إن ما يعده غيرى نكبة قد أعده أنا نعمة لأن له قيمة لا يراها هو فى التربية والتنوير والنمو. فقد وقعت بى كوارث وأحزان أحمضت حياتى فترة. ثم اكتسبت من الكوارث نوراً وحكمة، كما اكتسبت من الأحزان حناناً ورقة ، لا أحب أن أفقدها . أجل ! لقد تضورت من الألم حين مات ابن أختى وهو فى السنة الأخيرة بكلية الطب ، وبقيت فى نفسى لوعة تمزقنى كلما ذكرته . ولكن هذه اللوعة قد استحالت بالزمن إلى حنان رخيم لا أحب أن أفقده . وكذا الشأن فى جميع الأحزان الماضية تطفئ كيمياء الزمن نارها وتحيلها إلى ذكريات رفيقة تؤنس ماضينا . ولذلك أكنز هذه الذكريات وأستثيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة للذة لا للألم ، مع أن وطأتها حين وقوعها كانت بمثابة الصدمة التى تذهل وتجمد.

وأظننى أمتاز أيضاً بعقل حر مفتوح يحسن الضيافة للآراء الجديدة. وليس لى فضل فى هذا ، وإنما الفضل للغتين الانجليزية والفرنسية اللتين أتاحتا لى الاتصال الدائم بالثقافة الأوربية العصرية . وهى تمتاز بالحرية المستفيضة كما يمتاز المجتمع الأوربى بحرية واسعة لا يعرفها المجتمع المصرى . ومن هنا أصبحت ثقافتى ارتيادية أتحسس الجديد فى الآراء وأعرضه على مجتمعنا كى أوقظه إلى الحياة العصرية . ومن هنا كان ما يبدو من أنى يسارى متطرف ، مع أنى لو كنت فى مدينة

أوربية لكنت أعد عادياً ليس بي أى تطرف . وليس شك أن بعض اتجاهى هذا يعود إلى أنى مسيحى لا أحس أنى مقيد بتقاليد الأكثرية فى مصر .

ولو سئلت ما هو « بيت القصيد » أو « إيماءة حياتى » كما تبدو من مؤلفاتى وسيرتى واتجاهى ، لقلت إنها الحرية . فانى أحب عرابى وفولتير لدفاعهما عن الحرية كل فى ميدانه . وقد ألفت كتابين عن حرية الفكر . وأحب كتاب « الجمهورية » لأفلاطون و « الانسان والسبرمان» لبرنارد شو ؛ لأنهما يتجردان من التقاليد فى بحث التأصيل البشرى . وأحب إبسن فى « بيت عروس » لأنه يبسط آفاقاً جديدة للحرية فى شخصية المرأة .

وأنا الآن فى الستين أعد نفسى صائراً ولست كائناً كما يقول أندريه جيد . ولذلك أعنى بأن أتعلم كلمة جديدة أو أشرع فى دراسة علم جديد أتغير أو أتطور به . وفى هذه الأيام مثلا أجد أنى مزحوم بدراسات كثيرة ، منها هذه السيمانية أى علم اللغة من حيث صحة التعبير وملاءمته . كما أن اهتماماتى بالسيكلوجية والتطور والاجتماع تجعلنى أشكو قلة الفراغ. وفى العالم الآن ثقافة جديدة قد تجرثمت فى بداية هذا القرن وهى الآن تتبلور وتتجوهر ، هى ثقافة عالمية غير وطنية أحس أنى من أبنائها ودعاتها . وقد أثبتت لنا القنبلة الذرية ضرورة الاتجاه العلمى وخطورته معاً ؛ لأن الحضارة القائمة ، حضارة السادة على هذا الكوكب ، هى حضارة العلوم المادية ، والأخطار القائمة هى أخطار العلوم المادية . ولذلك فان الأمة التى تهمل العلوم

إنما تهمل حياتها . وقد حاولت فى مصر طوال حياتى الماضية أن أعمم التوجيه العلمى بمؤلفات شعبية مختلفة . وكثيراً ما نبتت الخصومات بينى وبين بعض الكتاب على هذا الأساس ، أى إنى كنت أنتقص قيمة مؤلفاتهم لأنها لم تكن تتجه الاتجاه العلمى أو على الأقل كانت تتجاهل الأسس العلمية وتستسلم لمزاعم غيبية تافهة . ولذلك تعد مؤلفاتى من أدوات التطور الذهنى فى مصر ، وليست كذلك مؤلفات كثير من الكتاب الذين عاصرونى . ففى الوقت الذى كنت أؤلف فيه عن « العقل الباطن » أو « نظرية التطور وأصل الانسان » أو « البلاغة العصرية واللغة العربية » أو « حرية الفكر » ثم « حرية العقل » أو « غاندى والحركة الهندية » أو نحو ذلك مما يوجه ويغير ، كان غيرى يؤلفون عن الخلفاء الراشدين أو الأمويين أو العباسيين ! أجل . كنت أنشد الآفاق وأرتاد المجاهل فى الوقت الذى كانوا هم فيه يشرحون لقرائهم قواعد الفعل الماضى . مع أن هذه القواعد معروفة ومشروحة فى مئات الكتب القديمة ولا تحتاج إلى زيادة فى الشرح والايضاح . فان جميع الذين كتبوا مثلا فى ترجمة عمر بن الخطاب لم يكتبوا عنه بأوفى مما كتب ابن أبى الحديد منذ نحو ألف سنة . وجميع الذين يخرجون لنا من وقت لآخر تراجم عن أبى نواس أو المهدى أو المأمون لم يزيدوا كلمة عما كتبه مؤلف الأغانى أو غيره من المؤلفين القدماء . ولكن الجمهور الذى يتعطش إلى الثقافة العصرية كى يفهم الحضارة العصرية لا يجد غير هذه الموضوعات القديمة ، فيبقى ، أى هذا الجمهور ، قديماً غير عصرى .

وهناك أشياء آسف لها كثيراً ، منها أنى عطلت عن الكتابة إلا تحت أعين المراقبة نحو خمسة عشر عاماً فى الحربين الكبريين ؛ إذ حتم علينا الانجليز ألا ننشر حرفاً فى جريدة أو مجلة أو كتاب إلا بعد أن يقرأه رقيب . وقد قرئت لى كتب فى الأدب والعلم وحذف الرقيب منها ما شاء ... وهذا التعطيل قد جمد فكرى مدة طويلة ؛ لأن قطع التفاعل بين المؤلف وبين الجمهور يجعل الثقافة محدودة . لأن الثقافة اجتماعية لا نهتم بها إلا فى مجتمع حى يوافقنا أو يعارضنا ، ولكنه فى كلتا الحالين ينبهنا. وقد قطع الاستعمار البريطانى بيننا وبين الجمهور هذه السنين الطويلة ، فقطع عنا بذلك التنبيه الذى كان يحركنا إلى التفكير والدراسة الخصبة ، كما قطع عن الجمهور التنوير الذى كان يحتاج إليه .

وشئ آخر آسف له هو أن الحكومة المصرية ، بايعاز المستعمرين الانجليز أيضاً ، قد سنت قانوناً تستطيع أن تحرم به أى مصرى خارج القطر من رعويته المصرية ، ويكفى لذلك قرار من مجلس الوزراء بلا محاكمة أو دفاع . وقد منعنى هذا القانون من أن أترك مصر منذ عشرين سنة ، مع أن مثلى يحتاج إلى أن يزور أوربا مرة كل عام أو كل بضعة أعوام حيث يتجدد بالايحاء والتغيير الذهنى والترفيه النفسى . ولكن المتسلطين الذين يعيشون فى مصر بالامتيازات القديمة ، هذه الامتيازات التى هى فضيحة مصر الآن فى جميع المحافل المتمدنة ، يخشون رجلا مثلى يسارع إلى شرح الآراء الجديدة والاصلاحات العصرية . فما هو أن أضع قدمى فى باريس حتى أجد قراراً بحرمانى من الرعوية

المصرية ، وعندئذ يجب أن أتسكع سائر عمرى إلى أن أموت خارج وطنى بعيداً عن أولادى . ولهذا آثرت البقاء فى القاهرة على التسكع ، بلا وطن ، فى مدن أوربا . وظنى أن هذا القانون سيبقى إلى أن أموت . ولن أرى أوربا التى تشع أنوارها على هذا الكوكب .

وأخيراً أعود إلى السؤال الذى لا يفتأ يتكرر : هل ربيت نفسى ؟

وهذا السؤال يعيد إلى ذهنى وصف هـ . ج . ولز للوزير البريطانى الكبير جلادستون بأنه لا يعدّ متعلماً أو حاصلا على تربية . وذلك لأنه « كان يجهل الأثنولوجية أى علم وصف السلالات البشرية وخصائصها . وأن رؤيته للتاريخ كانت ناقصة لأنه لم يكن يدرى الصورة الحقيقية للجيولوجية أى علم طبقات القشرة الأرضية وتاريخ الأحياء ، كما كان يجهل الأفكار الابتدائية عن البيولوجية أى علم الحياة . وكذلك كان يجهل العلوم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العصرية والآداب والفكر الحديث » .

وإذا قست نفسى بهذا المقياس الذى عينه ولزكى يبرهن على جهل جلادستون فانى أجد أنى حاصل على هذه التربية التى قصدها ؛ لأنى أدرى كل هذه الأشياء التى ذكرها وأكثر منها مما يجرى على طرازها . والحقيقة أن الذين يستطيعون أن يسموا أنفسهم ممتازين بتربية صحيحة فى أيامنا قد لا يبلغون واحداً فى الألف ، والبرهان على هذا أن الذين يفهمون مثلا النظرية النسبية لأينشتين أو الطاقة الذرية قليلون جداً . وهذه القلة ترجع إلى أن وسائل التربية معدومة أو نادرة فى بقاع

كثيرة . وذلك الذى يصل على الرغم من كل ذلك إلى تربية تكاملية حاوية بحيث تتسع عنده المعارف وتتكامل وتتناسق ، هذا الرجل ، يحتاج إلى أن يفنى العمر كى يحقق هذه الغاية . وطلب العيش يحول دون ذلك عند ٩٩٩ فى الألف من الناس .

والواقع أن الذين يقودون العالم منذ أيام جلادستون إلى الآن كانوا ولا يزالون فى عداد الجهلة . فقد روى ولز مثلا عن جلادستون أيضاً أن السر جون ليوك رافقه فى زيارة لداروين . فكان طوال وقته يتحدث عن المشكلة البلغارية كأنها كل شئ فى وجدانه ، أى أنه لم يكن يدرى القيمة البشرية الكبرى لنظرية التطور التى أخرج داروين إنجيلها للعالم . ولكن أليس هذا حال الساسة إلى الآن ؟ هل وزراء بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة أو مصر فى ١٩٤٧ أفضل من حال جلادستون فى ١٨٧٠ ؟

إن العالم منكوب بتقاليد فى التربية والتعليم . وفى المدارس والجامعات رواسب ثقافية تبلد الذهن بل تحول دون التفكير . كأن هناك محظورات لا يجوز التفكير فيها . اعتبر مثلا هذا الفقر المصنوع فى العالم . فان الانتاج الزراعى ثم الانتاج الصناعى يكفيان ، مع التنظيم ، كى يعيش كل فرد على هذا الكوكب وهو موفر الطعام والكساء والمسكن ، آمن على نفسه وجسمه من المرض والجريمة . متعلم أقصى تعليم ، مستمتع بالفراغ الذى يمكنه من زيادة معارفه . ولكن الساسة الذين يتولون شئون هذا العالم لا يزالون فى مستوى جلادستون يهتمون بمشكلة بلغاريا أكثر مما يهتمون بنظرية التطور . والعجب أنك عندما

تبحث مشكلة بلغاريا تجد أنها نبتت من الجهل أيضاً ، وأن الذين يحاولون حلها جهلاء يثرثرون وهم يعتقدون أنهم يفكرون .

وقد سبق أن قلت إنى لا آسف كثيراً على أنى لم أتخصص ؛ لأن الاخصائيين ، كما أرى فى أخلاقهم ، لا يتوسعون أو يتعمقون فى الدراسات التى لا تمس العلم أو الفن الذى أخصوا فيه . وأعتقد أحياناً أن الزهو هو الذى يمنعهم من هذا التوسع أو التعمق ، وأنهم يحسون استكفاء ذاتياً لا يحتاجون معه إلى زيادة . وأقول فى نفسى عندئذ إنى لست كذلك و إنى لو كنت قد أخصيت فى علم تجريبى لما زُهيت . ولكن هذا الفرض ليس سيكلوجياً لأنه يتجاهل العواطف الاجتماعية . ولكنى لا أشك أنى بعيد عن الزهو فى غير تعمد أو تكلف ، وأن بعدى عن الزهو هو الذى يجعلنى أتابع الثقافة بروح الطالب ، وهو الذى يجعل أسلوبى خالياً من التفصح . وكثير من الكتاب يتفصح فى خيلاء وزهو لأنه يسلك فى حياته وأخلاقه سلوك الخيلاء والزهو . ولهذا السلوك أثره فى نفسه لأنه يحمله على الاستكفاء فلا يدرس ولا يتزيد من المعارف . ولذلك أستطيع أن أجزم بأن التفصح فى الكاتب برهان على كراهة التزيد أو التطور فى الدراسة . وليس هذا لأن التفصح يشغل وقته بل لأنه يكسبه زهواً فيقنع بالخيلاء والتبختر . وفى ذهنى الآن كاتب من هؤلاء المتبخترين يكتب من وقت لآخر عن الأخلاق . قعدت إليه ذات مرة أحدثه عن الأخلاق وأنها هى والاجتماع ثمرة الوضع الاقتصادى . فلم ألق منه غير الضحك . فانتقلت من البيئة إلى الوراثة وذكرت له كتاب كرافت أبنج عن « السيكوباثية

الجنسية » فلم أستنبط منه غير الدهشة . أجل ! إن تفصحه المتحذلق قد حال بينه وبين تربية نفسه ؛ إذ هو قانع بهذه الخيلاء اللفظية وسيموت بها جاهلا لشئون هذا الكوكب الذى عاش عليه .

ولذلك أعتقد أن أعظم الوسائل للتربية هو الاتجاه . أى كيف نتجه فى هذه الدنيا و بماذا نهتم ؟ نهتم باقتناء الفصاحة أم باقتناء المعارف ؟ بمشكلة بلغاريا أم بنظرية التطور ؟ نهتم بأن نكون وجهاء نسير فى خيلاء وزهو أم عقلاء نفكر فى سداد وفهم ؟

وفى عصرنا هذا يجب أن نقيس التربية الحقة بأدق وأكبر من المقياس الذى وضعه ه. ج. ولز. ولكن عندئذ لا نجد أحداً ، ولا واحداً ، يمكن أن يقال إنه حاصل على تربية حقة . فان العلوم خاصة والثقافة عامة مشتتة غير منظمة ، وتحصيلها لهذا السبب شاق . وأعمارنا تفنى فى محاولات عقيمة و إن تكن مخلصة للتعلم . حتى إذا انتهينا إلى الطريقة واهتدينا إلى المنهاج وجدنا أن الشباب قد ولى .

وقد يبعثنا هذا إلى القول بأن العمر يجب أن يزيد حتى يبلغ المائة مثلا ، فنجنى فى العقود الأخيرة ما جهدنا لأجله واختبرناه فى العقود الأولى . ولكن قبل ذلك يجب تنظيم المعارف ومناهج الدراسة وترقية الصحافة حتى تعود جميعها أدوات ووسائل للتنوير . لأن الواقع أن بعضها الآن أدوات ووسائل لتبليد الأذهان ومطاردة الذكاء ، ونشر الظلام . والعالم حافل بالتباسات واستعراضات للجهل الفاشى ، هذا الجهل الذى يجد دعامة بين المعلمين والأدباء والفلاسفة الذين يدعون إلى مزاعم وعقائد يوحون منها إلى القراء والمتعلمين بأنها آراء

وحقائق . وقد سبق أن عانى جيته مثل هذه الحال حين قال : «ليس هناك أفظع من الجهل النشيط » .

وإذن أجيب على سؤالى : هل ربيت نفسى؟ بأنى مازلت « صائراً » فى سياق التربية . وأنى أسر حين أحس أن لى شخصية نيوروزية قلقة مستطلعة أطمع فى أكثر مما أستوعب ، وأن الثقافة تحتل المكان الأول من اهتماماتى . بل أحس أحياناً أنها الاهتمام الوحيد ، حتى إنى لأفجأ نفسى من وقت لآخر بخطاب يرسله إلى صديق فأرجئ فتحه إلى الغد كى أتصفح كتاباً جديداً هذا اليوم .

وأسرّ أيضاً حين أجد أن القيم البشرية عندى تأخذ مكان القيم الاجتماعية . وعندى أن هذا الانتقال هو البرهان فى عصرنا على الحكمة والفهم . فان القيم الاجتماعية ، بالحاح العادات والتقاليد ، تغمرنا وتقيم فى نفوسنا « عواطف » تحملنا على السعى والجهد لما يسمونه « منافسة » وأحرى أن يسمى « محاسدة » لاقتناء أتومبيل أو عزبة أو لقب أو نحو ذلك مما يحملنا المجتمع على احترامه . وكثير من الناس يموتون شهداء هذا الجهد السخيف . وحين ننتقل إلى القيم البشرية نجد أن حياة الصحة والصلاح الاجتماعى والفهم والقناعة بالحاجات الضرورية والاستمتاع بما فى الدنيا من أطايبها المجانية خير ألف مرة بل مليون مرة من تلك القيم الاجتماعية . وليس فى الدنيا ما يعدل فنجاناً من الشاى أو كسرة من الخبز مع الجبن تحت ظل شجرة (كما قال الامبراطور أوريليوس) أو قراءة كتاب منير أو الحديث إلى المجرة فى منتصف الليل فى الريف أو تحية الشمس فى بزوغها

أو ، حين أكتب ، البحث عن بشائر المستقبل والتشبث بها وشرحها فى مقال أو كتاب .

وإذا سأل القارئ : ماذا تستنتج من اختباراتك ، وماتكهناتك للمستقبل بعد أن قضيت نحو أربعين سنة وأنت على اتصال وجدانى بالعقل العام على هذا الكوكب ؟

فانى أجيب : بأن الحاضر يومئ إلى المستقبل إيماءة واضحة نراها بالعين وأحياناً نسمعها صاخبة بالأذن ، هى الاشتراكية التى سوف تعم الدنيا كلها . وليس هذا لأن الناس سيتحولون من أشرار إلى أبرار ، بل لأن الانتاج الصناعى سيحتم ذلك . كما سيحتم توافر النقل وضرورة التجارة ، على أبعاد كوكبية ، أن يحال العالم إلى دولة واحدة تتجه نحو ثقافة واحدة ولغة واحدة .

وهذا النظام الاشتراكى العام سوف يرفع المرأة من الأنثوية إلى الانسانية . لأنه من جهة سيفتح لها أبواب العمل والاختبار والتعلم كالرجل سواء ، كما أنه من جهة أخرى سيغنيها عن عناء الواجبات المنزلية العديدة . وليس هذا لأنها ستترك المنزل بل لأن كثيراً من الواجبات المنزلية ينتقل بالحضارة إلى خارج المنزل . ويتضح هذا من المقارنة فى مصر بين المرأة فى الريف والمرأة فى المدينة . فان الأولى تعجن وتخبز وتحلب البقرة وتصنع الجبن وتخيط ملابسها وتحمل جرة الماء من الجدول وتجمع الوقود إلى غير ذلك من الواجبات التى لا تعرفها المرأة فى المدينة . ثم المقارنة بين المرأة فى القاهرة والمرأة فى نيويورك تزيدنا فهماً بأن الحضارة تلغى الواجبات المنزلية التى ترهق ربات

البيوت الآن وتحول بينهن وبين العمل فى الخارج أو بين تربية أنفسهن. ولذلك نحن صائرون نحو تحقيق الرؤيا التى حلم بها إبسن فى شخصية «نورا» هذه الأنثى التى أصرت على أن ترتفع من الأنثوية إلى الانسانية .

وأستطيع أن أستنتج من حياتى الماضية أن أعظم العقبات التى تؤخرنا فى مصر كما تؤخر كثيراً من أمم آسيا وأوربا ، بعد الاستعمار ، هى هذه الرواسب من الثقافات والتقاليد والغيبيات الفرعونية والبابلية وأمثالها التى انحدرت إلينا . وهى تتخذ ألواناً من الصيغ والأساليب، وتعترض عجلة التاريخ وتعوق التطور . والبيئة الصناعية وحدها هى التى تحطمها ؛ لأنها ، أى هذه البيئة ، لا تنهض إلا على العلم . وهو نار كاوية تحرق جميع هذه الرواسب وتبدد عفنها هباء .

والحضارة الجديدة المنتظرة هى الحضارة الصناعية ، هى الحضارة التى لا يبعد أن تلغى الزراعة من العالم . وليس هذا بالعمل العظيم المستحيل كما يتوهم بعضنا ؛ فان الكيمياء الصناعية تصنع الآن مركبات كيماوية عديدة كان صنعها قبل هذا القرن مقصوراً على الجسم الحى نباتاً كان أو حيواناً . فاذا استطاعت الكيمياء الصناعية أن تصنع مادة البروتين فان الزراعة تعود عناء لا ضرورة له بتاتاً . وعندئذ يحال العالم إلى حدائق وغابات تعنى بها الطبيعة وحدها . وإذا كنا نظن أن صنع البروتينات لا يزال بعيداً فيجب أن نذكر الطاقة الذرية . لأن أى إنسان منا لو أنه ، قبل خمس سنوات سئل أيهما أقرب إلى خيالنا : استخدام الطاقة الذرية قنابل للتدمير أو صنع البروتين كيمائياً ، لظن هذا الثانى أيسر بكثير من الأول،

وظنى أيضاً أن الزمن ليس بعيداً حين نشرع ، حتى فى مصر، فى تطبيق نظرية التطور بالانتخاب التناسلى ، أى اليوجنية . وفى العالم نحو أربعين دولة متمدنة تمنع غير الصالحين للتناسل من أن يعقبوا . والأمة التى تعارض فى مثل هذا الاصلاح ستتخلف فى ميدان التطور البيولوجى أى الرقى البشرى الصميم .

وأخيراً أقول إنى أرى إيماءة ثقافية جديدة هى التخلص من المذهب الانفصالى ، مذهب ديكارت ، بين الروح والجسم ، أو بين الحياة والمادة ، أو بين العقل والمادة ، إلى المذهب الاتصالى الذى يقول بأن القوة هى المادة المتدفقة والمادة هى القوة المتجمدة . وفى هذا القول وثبة ثقافية واسعة إلى المستقبل سوف تكون كبيرة الأثر فى الحضارة القادمة . وقد سبق للفيلسوف العظيم سبينوزا أن نبه إلى ذلك فى لغة فلسفية . ونحن نقتنع هذه الأيام بصحة تفكيره عن طريق العلم التجريبى ، ونصل إلى وحدة وجودية فى الطبيعة ثم نتدرج إلى ما يلائمها فى المجتمع .

وعندما أرتفع إلى هذا التفكير أحس أن كثيراً من الاهتمامات بل الهموم الوطنية التى حجبت النور وعكرت الصفاء اللذين كنت أنشدهما فى حب وولاء بشريين ، هذه الهموم تذوب وتتبدد . أجل! إنى أحب أن أعترف . فانى ما كتبت كلمة واحدة ضد المستعمرين الانجليز إلا وأنا فى ألم وارتعاش وآسف أكثر مما أحس من غيظ وحنق وكفاح . وكذلك كان الشأن عندما كنت أكافح ، الرجعيين المستغرضين والجهلاء النشيطين من المصريين . فانى أخجل حين

أقول إنى أحب جميع هؤلاء الانجليز المستعمرين والمصريين المستبدين. وفى نفسى رجاء بأن يتغيروا وأن يروا رؤياى وأن ينسلخوا من الاستعمار والاستبداد، ويفتحوا عقولهم للثقافة الجديدة: للحرية والإخاء والمساواة. وجميعها مستطاع لو أنهم كفوا عن «الجهل النشيط» الذى يمارسونه.

وقد احترفت الثقافة وقضيت عمرى أقرأ وأكتب. وزادتنى هذه الحرفة، وجدانا بالدنيا. كأنى أحس أكثر وأرى أبعد، حتى لقد صغرت همومى الشخصية إلى جنب اهتماماتى العامة. ودراستى للأدب وللفلسفة قد أوهجت خيالى وأحدّت ذكائى. ثم انعكست هذه الدراسة إلى حياتى فأصبحت قيمى وأوزانى الخاصة قيماً وأوزاناً أدبية وفلسفية. ولذلك كثيراً ما أنصح للشبان بأن يقرأوا الأدب والفلسفة، وأن يحاولوا كتابة القصة وقرض الشعر. لأنهم وهم فى هذا النشاط يتخيلون الحال المثلى ويصعدون بأذهانهم إلى السماء ويختارون أسمى المعانى وأنصع الكلمات. وكل هذا ينعكس على حياتهم الخاصة فيرتفعون عن التبذل ويحيلون حياتهم إلى فن جميل.

ولو أنى مت ثم بعثت وخيرت فى الحرفة التى أحترف لما اخترت خيراً من أن أقرأ وأكتب. ولكنى مع ذلك سوف أموت وفى نفسى شئ من الطاقة الذرية. لأنه يجب على كل إنسان فى عصرنا أن يستوفى ثقافة علمية معينة يدرك منها هذا المنهج البشرى الجديد للتسلط على المستقبل. ولم أجد الفرصة لهذه الثقافة كما كنت أشتهى وإن كان حظى منها قد يحسدنى عليه غيرى. أجل! لقد تركت الطاقة الذرية فى نفسى مركب نقص أعانيه فى ألم كل يوم.

من ١٩١٩ إلى ١٩٤٧

رأيت الحكم البريطانى فى مصر فيما بين ١٩٠٠ و١٩١٩ وأنا على وجدان بتصرفاته واتجاهاته . ورأيت الحكم « المصرى » فيما بين ١٩١٩ و١٩٤٧ وأنا على وجدان أيضاً بتصرفاته واتجاهاته . وقد قلت « المصرى » بهذه الصيغة الكتابية لأنه لم يكن فى كثير من الأحيان مصرياً بحتاً إذ كانت اليد الانجليزية تعلوه وتقوده إلى الفساد والشر . فان الانجليز هم الذين جعلوا زيور باشا يحل البرلمان فى ١٩٢٥ فى نفس اليوم الذى عقد فيه . وهم الذين سلطوا علينا اسماعيل صدقى فيما بين ١٩٣٠ و١٩٣٤ كى يضرب الأمة بالسياط والبنادق . وهم الذين حملوا محمد محمود باشا فى ١٩٢٩ على أن يعطل البرلمان ثلاث سنوات « تقبل التجديد » . ولكنا مع ذلك مضطرون إلى أن نسمى هذا الحكم فيما ١٩١٩ و١٩٤٧ مصرياً لأن الأيدى التى أنفذت السياسة كانت مصرية . وكانت تستطيع أن تكف الأذى عن الوطن لو أنها شاءت .

فيما بين ١٩٠٠ و١٩١٩ كانت السلطة الانجليزية صريحة . فقد تعلمت أنا الجغرافيا فى السنة الثانية الابتدائية حوالى ١٩٠٠ باللغة الانجليزية . وكان كل التعليم بالمدارس الثانوية ، فيما عدا

اللغة العربية طبعاً ، باللغة الانجليزية فى جميع المواد . وكنا لا نستطيع أن نحل مشكلة تتصل بالحكومة إلا على يد انجليزى . ولكن كل هذا أو معظمه تغير بعد ١٩١٩ .

وأول ما يسأل الانسان عند ما يقارن بين الاحتلال والاستقلال هو مقدار الحرية التى يتمتع بها الفرد . حرية القول والخطابة والصحافة والاجتماع . ومع الأسف بل الألم العظيم يجب أن أعترف هنا بأن هذه الحرية نقصت ولم تزد بعد ١٩١٩ . فاننا فى ١٩٤٧ أقل حظاً من هذه الحريات مما كنا حوالى ١٩٠٥ أو ١٩١٠ . وهذا هو ما مارسته بنفسى . ففى ١٩١٤ استخرجت « رخصة » لاصدار مجلة « المستقبل » ولم أجد الصعوبات الشاقة التى أجدها أو يجدها غيرى فى هذا الاستخراج فى ١٩٤٧ . بل لقد حاول وزير سابق هو الأستاذ فؤاد سراج الدين باشا استخراج « رخصة » لجريدة يومية فى ١٩٤٦ فرفض طلبه . وقد كنت قبل ١٩١٩ ألقى المحاضرة بلا ترخيص من المحافظة فى القاهرة . أما الآن فانى أحتاج إلى ترخيص . وأنا أكتب هذه الكلمات فى أكتوبر من ١٩٤٧ وقد بلغت التحقيقات بشأن مقالات أو أخبار الصحف العشرات . وهذا ما لم نكن نعرفه قبل ١٩١٩ .

وفى ١٩٢٢ صدر الدستور المصرى . وفهمنا منه أنه سيحترم وأنه وثيقة رهيبة يجب أن تستنبط منا إحساساً دينياً لاحترامها . ولكن هذا الدستور استبدل به آخر أيام زيور باشا فى ١٩٢٥ . ثم عطل أيام محمد محمود باشا فى ١٩٢٩ . ثم ألغى واستبدل به

آخر أيام اسماعيل صدقى باشا فى ١٩٣٠ . وصحيح أن المستعمرين الانجليز كانوا خلف هذه العربدة فى حياتنا الدستورية . ولكن الأيدى المنفذة كانت مصرية .

وكلنا يعرف أن الذين جاهدوا وضحوا هم الوفديون . ومع ذلك حسبت السنوات التى تولوا فيها الحكم فيما بين ١٩٢٣ و ١٩٤٧ ، أى نحو ربع قرن ، فوجدت أنها خمس سنوات وثمانية أشهر فقط . وحسبت السنوات التى تولى فيها اسماعيل صدقى باشا الحكم ، فى هذه المدة أيضاً وليس له حزب ، وليس له رأى عام مصرى يؤيده ، فوجدت إنها تقارب المدة التى حكم فيها الوفد . فكأن الدستور لم يغير شيئاً من أوضاع الحكم التى كانت تشكو منها مصر قبل ١٩١٩ . وفيما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٤ أوقع بنا اسماعيل صدقى باشا من ألوان الاستبداد البشعة ما اضطره هو نفسه إلى أن يطالبنا بنسيانه فى ١٩٤٦ . ولم نر قط مثل هذا الاستبداد من الانجليز قبل ١٩١٩ إلا فى حادث دنشواى . والمتأمل للكراهة العميقة عند بعض العناصر للوفد يجد أنها ليس لها من سبب سوى أن الوفد هو الهيئة الديمقراطية الشعبية الوحيدة فى مصر .

وهذه العربدة فى حياتنا الدستورية وفى نشاطنا السياسى هى التى انتهت بنا إلى أن ينشأ حزب دينى مثل « الأخوان المسلمين » يتناول السياسة من ناحية الدين ، ويجعل الأقباط فى شك أو خوف من المستقبل بعد أن كافح لطفى السيد وغيره فى فصل الدين من السياسة . فان « الاخوان المسلمين » يتوسمون فى الجامعة الاسلامية

هذه الأيام من الآمال والآفاق ما كان يتوسمه الحزب الوطنى أيام مصطفى كامل من الجامعة العثمانية . وفى هذا تفكيك للوطنية المصرية وتشكيك للأقباط فى قيمتها ومستقبلها . وأنا مضطر ، بوصف أنى قبطى ، أن أصرح بأنى متشائم من هذا الاتجاه .

ولكن يجب أن نذكر الكسب أيضاً . وهو كسب عظيم . وعندى أن أعظم مآثرنا هنا هو انتقال المرأة من ظلام القرون الوسطى إلى نور القرن العشرين . ويجب ألا يلومنى القارئ إذا كررت وأطنبت فى هذا الانتقال . فقد رأيت بعينى نسوة مصريات حوالى عام ١٨٩٨ « يذبحن » الخنافس . فلما سألت عن السبب قيل لى : إنهن يطبخنها ويأكلنها كى يصبحن سمينات بعد النحافة . . . ورأيت تلميذات المدرسة السنية حوالى ١٩٠٣ وهن مبرقعات مع أن أعمارهن لم تكن تزيد على إحدى عشرة ، أو اثنتى عشرة سنة . وكانت ناظرة المدرسة ، وهى انجليزية ، تلح وتصر على التزام البرقع لأنه من « تقاليدنا » . والانتقال من هذه الحال إلى « المرأة الجديدة » المحامية والطبيبة والصحفية وسائر نسوتنا السافرات هو آية فى الرقى الاجتماعى لانكاد نصدقها لولا أننا نحسها ونختبرها . والجيل الجديد لا يقدر هذا الارتقاء لأنه لم ير عمق الهاوية التى كنا فيها قبل ١٩١٩ . وهذا الارتقاء النسوى فى مصر هو مرحلة من الرقى الاجتماعى قد قطعناها ولن تستطيع قوة أن تنزعها منا . فقد انتصرنا بها على القرون الوسطى وعلى الشرق معاً .

وكذلك كسبنا فى التعليم ولكن كسبنا هنا أقل من الارتقاء

النسوى . فانى أذكر أنى حين كنت تلميذاً بالمدارس الثانوية لم يكن فى القطر المصرى كله غير ثلاث مدارس ثانوية لا تدخلها فتاة . وهى الآن تعد بالعشرات والفتاة تتعلم فيها أيضاً بلا عائق . وكذلك الجامعات التى لم نكن فى أيامنا ندرى معناها ، والتى كان الانجليز يحظرون علينا تأسيسها .

ولكن نهضتنا التعليمية سارت مع ذلك ببطء . ولا تزال بطيئة . وأذكر أن أحد الأمريكيين قبل عشر سنوات سألنى عن عدد المدارس الثانوية للبنات فقلت إنها تسع (ولم تكن تبلغ ذلك) . فقال : « كنت أنتظر أن تقول إنها تسعون مدرسة » . على أن هذا البطء لم يمنع تخريج ألوف الشبان المتعلمين والفتيات المتعلمات الذين يعتمد عليهم فى تكوين رأى عام مستنير سوف يصون الدستور من العبث ويحمل الحاكمين على مراعاة العدل وإنصاف الأمة فى المستقبل . ولكن حماستنا للتعليم قد أعثرتنا فيما يسمى « التعليم الالزامى » الذى أنفقنا عليه منذ إيجاد نظامه إلى الآن نحو خمسين مليون جنيه دون أن نستطيع تخريج مصرى واحد متعلم منه . وعلة ذلك أنه تعليم يقوم على نظام شرقى غير عصرى .

وقد ارتقينا فى الصناعة . فصارت لنا صناعات كبيرة . ونسينا الأكذوبة التى كان يشيعها المحتلون البريطانيون بيننا ويطلبون منا تصديقها وهى أن مصر « بلاد زراعية » وذلك كى يقصروا نشاطنا على زراعة القطن ويمنعونا من الصناعة . أى أنهم كانوا يرسمون إلى أن نكون أمة لا تنتج للعالم سوى « المواد الخامة » كما يفعل

الزنوج الأفريقيون . وقد اغتصبنا منهم الصناعة والتعليم اغتصاباً . لأنهم كافحونا فيهما بكل ما قدروا عليه ثم انهزموا .

على أن هناك ما يحزن فى حياتنا الاستقلالية أو الدستورية ، مع جميع التحفظات الذهنية بشأن التدخل الاستعمارى البريطانى فيهما . فاننا منذ ١٩٢٢ إلى ١٩٤٧ لم نقم بأى إصلاح يرفع من شأن الفلاح الاقتصادى أو يخفف من كوارث الفقر . فان الفلاح يعيش الآن كما كان يعيش قبل ١٩١٩ . وقد قرأت هذا الصباح فى المصرى (١١ أكتوبر ١٩٤٧) هذه الكلمات التالية بشأن وباء الكوليرا :

« ولم تقع حتى الآن أية إصابة فى القاهرة بين أفراد الطبقتين العالية والمتوسطة . وكل ما وقع من الاصابات حتى الآن كان بين أفراد الطبقات الفقيرة . »

وهذا بعد أن مضى على تفشى هذا الوباء نحو عشرين يوما . وليس أدل على وهدة الفقر التى يتردى فيها تسعة أعشار الشعب المصرى ، بما فيها من حرمان وقذارة ، من هذه الكلمات . وليس أدل على تقصيرنا فى الاصلاح الاجتماعى من هذا الاهمال الفاضح لأبناء أمتنا . بل لقد أصبحنا نتهم بالشيوعية كل من يدعو إلى إصلاح اجتماعى ويبرز فضائح هذا الفقر الكالح الأسود الذى يعيش فيه فلاحونا وعمالنا . وبعض الكراهة للوفد تعزى إلى أنه قد حاول إصلاح هذه الحال فاتهم بالغلو فى الديمقراطية التى لا يطيقها المستعمرون الانجليز والمستبدون المصريون .

ولكن حال العامل فى المصانع أرق بكثير من حال الفلاح فى الريف . وهو على وجدان طبقى يجب ألا تخشاه السلطات الحكومية لأنه لا يزال مبتدئاً ، ولأنه ، بقليل من السخاء من الاصلاحات الاجتماعية التى يتمتع بها العمال فى أوربا ، يمكن أن يسير فى الكفاح السلمى المشروع .

والمشكلة التى تتحدانا فى مصر الآن هى الفقر كيف نعالجه بل كيف نمحوه . ولاقيمة لأية أمة ولا معنى لأى رقى ما لم يكن الهدف هو مكافحة الفقر وما يجر من حرمان وجهل ومرض . أجل مرض الكوليرا الذى يفتك الآن بطبقاتنا الفقيرة لأنها عاجزة عن الحصول الغذاء الوافى أو النظافة الواجبة .

برنامج السنوات العشر القادمة

فى شهر مايو من هذا العام (١٩٤٧) ألقى علىّ القبض بتهمة إلقاء قنبلة فى إحدى الدور السينمائية فى القاهرة . وأيقظنى البوليس فى الساعة الثالثة من الصباح وساقنى إلى القسم حيث اعتقلت إلى أن نقلت فى الساعة الحادية عشرة إلى دار النيابة للتحقيق . وقد وافق هذا القبض علىّ بلوغى سن الستين . وهى سن التقاعد فى نظر الحكومة المصرية أى السن التى تخور فيها القوى وينحط النشاط ويبدأ الركود . ولكن الحكومة أبت إلا أن تميزنى بنشاط الشباب وأن تعزو إلى رعونته . وقد أتاح لى هذا القبض أن أفكر كثيراً وأن أتأمل حال مصر هذه الأيام بحال الأتراك أيام السلطنة العثمانية . وذكرت قصة كان قد قصها على مصرى قبل أربعين سنة . فانه كان حوالى ١٩٠٧ قادماً من أوربا إلى الأستانة . وكان يلبس القبعة لأنه لم يكن يرغب فى لفت الأنظار إليه إذا لبس الطربوش وسار فى شوارع باريس وبرلين وبودابست. وكان طربوشه فى حقيبته قد احتفظ به إلى يوم يعود إلى مصر . فلما بلغ عاصمة السلطنة العثمانية وصرح بأنه مصرى زجر فى وجهه البوليس التركى وسأله كيف يكون مصرياً ويلبس قبعة . لا بد أنه جاسوس . وألقى به فى السجن .

فلما دخل السجن وجد صبيين تركيين لا يزيد عمر أكبرهما على اثنتى عشرة سنة . وكانت تهمتهما سياسية . . . وقد وجدت سبيلا للمقارنة بين اتهامى بالقاء قنبلة وأنا فى الستين من عمرى وبين اتهام صبى فى سن الثانية عشرة بقلب نظام الحكم فى تركيا . وقلت فى حديث النفس وأنا معتقل على الأسفلت فى قسم الأزبكية : أنا وهذان الصبيان ضحايا الجهل النشيط فى الأستانة والقاهرة على حد تعبير جيته .

وأنا فى سن الستين الآن أحس أنى « قوى القوى كلها » كما كان يقول الفارابى أو ابن سينا عن نفسه . ولذلك أرى من حقى ، أو بالأحرى واجبى ، أن أضع برنامجاً للسنين العشر القادمة .

وعلى ذكر ابن سينا أقول إنى أجد له اختباراً ثقافياً يتفق واختبارى . فهو يقول فى ترجمته بحياته : « فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمرى فرغت من هذه العلوم كلها . وكنت إذذاك للعلم أحفظ ، ولكنه اليوم معى أنضج . وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لى بعده شئ . »

وابن سينا لا يعنى بالطبع أن المعارف لم تزد بعد هذه السن . وإنما هو يعنى أن المبادئ والنظريات والآراء والاتجاهات التى استقرت عنده حوالى الثامنة عشرة لم تتغير بعد ذلك . وإنما قصارى ما حدث فيها توسع وتعمق أى نضج . وظنى أن هذه هى حال الجميع الذين عنوا بالتربية الذاتية . فانى حين أعود إلى « مقدمة السبرمان » التى ألفتها وأنا حوالى التاسعة عشرة وأتأمل الموضوعات التى عالجتها فيها لا أكاد أجد موضوعاً جديداً قد درسته بعد ذلك طوال الأربعين سنة

الأخيرة . وإنما قصارى ما حدث لى هو توسع وتعمق أى نضج .
أى أنى أستطيع الآن أن أؤلف عن كل فصل من فصول « مقدمة السبرمان » كتاباً برأسه . ولا أعرف وأنا أوشك أن أبدأ العقد السابع من عمرى فكرة جديدة لم أومئ إليها فى تلك الرسالة التى طبعت فى ١٩٠٩ .

وليس كبيراً أن أطمع فى عشر سنوات قادمة . فان الطب العصرى يتقدم بسرعة وهو معقد الآمال لأولئك الذين ينشدون من الشيخوخة عنفواناً وريعاناً . وإذا لم نجد منه الشباب الذى يتيح العدو والوثب « وإلقاء القنابل » فى الستين والسبعين فلا أقل من أن نجد اليقظة والقدرة على الاستمتاع مع بقاء الحواس سليمة . ولذلك أرى أنه لا يجوز لى أن أترك هذه السنين العشر الباقية تتابع جزافاً بل سأضع لها برنامجاً يزيدنى توسعاً وتعمقاً للحياة على مستواها الوجدانى فى الشبكة المخية العالية .

وفى الحرب الكبرى الثانية كنت أتوق إلى رؤية نهايتها واستقرارها على سلم . ولكنى إلى الآن لم أر الاستقرار وإن كنت قد رأيت النهاية . وهى نهاية مع ذلك تومىء إلى أنها سوف تكون بداية . ذلك أن العالم يسير رويداً نحو « الأزمة الماركسية » فى تصادم نظامين يتناقضان . ونحن الآن فى طور المهاترة والسباب بين هذين النظامين وعن قريب سنرى التصادم بالقنابل . وسيرى العالم عن قريب هل القرن العشرين هو القرن الأمريكى أو هو القرن الروسى . وأنا متتبع لأطوار هذا الصراع تائق إلى رؤية نتيجته متشائم فى انتظار الحرب

الكبرى الثالثة . ولكن لا يزال هناك أمل ضعيف بأن العالم يستطيع بالتسويات والتطورات أن يتجنب هذه الحرب . وأنا أقرأ هذه الأيام أخبار الصين وقوانين العمال الجديدة فى الولايات المتحدة وتأميم المناجم والأرض الزراعية فى بعض أوربا . . . وأيضاً أقرأ أخبار التقدم الآلى الصناعى الكيماوى . وأقرن هذه الأخبار وأجمعها فى ضوء الأزمة الماركسية التى ينتظر تفاقمها : إنتاج يزيد ويحدث تعطلا يزيد أيضاً ، ثم رغبة فى الحرب لمعالجة هذا التعطل .

وقد جعلتنا هذه الأزمة نعيش فيما يشبه الذبذبة الخفية كلنا فى قلق نعانى مضض الانتظار ولا نعرف المصير . ولكن مع هذا القلق أو المضض نحن فى انتباه واهتمام . نحن أحياء لا ننساق على غير وجدان بل ندرى بجميع العوامل التى تجرنا إلى الهاوية أو تصدنا عنها . ولهذا السبب تعد الجريدة اليومية هذه الأيام من أعظم الوسائل للتثقيف الذاتى لأنها تنبهنا إلى الأخطار القادمة .

وقد كانت لى أطماع فى شبابى أود أن أتابعها فى شيخوختى . ولم تكن أطماعى مادية قط . فلم أرهق نفسى فى تحقيق أغراض مالية . وقد وصفنى أحد الكتاب حديثاً بأنى مقتر . وهو واهم فى هذا الزعم . فانى منذ ١٩١٣ إلى الآن لم أشتر سوى فدان واحد وعشرة قراريط . وليس لى رصيد فى أى بنك ، لأنى من اليد إلى الفم . بل بلغ ما بعته من ميراثى منذ ١٩١٣ إلى الآن أى فى ٣٤ سنة أكثر مما اشتريت وليس هذا القدر صغيراً بالنسبة إلى جملة ميراثى . ولم أبال قط الاقتناء المالى لأن كل همى واهتمامى هو الاقتناء الذهنى أو بالأحرى الاقتناء النفسى .

ولذلك يثب إلى ذهنى فى أول البرنامج أن أقرأ بعض الكتب أو أعيد قراءة البعض مما ترك فى نفسى شكوكاً أو شبهات ثقافية . فمن ذلك مثلا كتاب « الغصن الذهبى » . فقد قرأت التلخيص الذى يزيد على ألف صفحة ولكنى أنوى قراءة الأصل الذى يزيد على عشرين مجلداً . وهذا الكتاب هو كنز للثقافة القديمة حين شرع الانسان البدائى يتحسس الدنيا ويتعرف إلى حقائقها ويحاول ، فى تخبط ، أن يستخلص منها منطقاً مفهوماً . وتربيتى ناقصة نقصاً عظيما ما لم أقرأ هذه المجلدات كلها . ثم بعد ذلك أنوى قراءة كتاب الموتى أو « طلوع النهار » كما كان يسميه أسلافنا قبل خمسة آلاف سنة . وهو الذى كان يدفن مع الموتى كى يتعلموا منه الاجابات السديدة وقت الحساب فى العالم الثانى . وهذا الكتاب هو زاوية مفصلة للبحث الذى يبحثه « الغصن الذهبى » .

أما بعد ذلك فانى أنوى دراسة الذرة . ولو احتاج الأمر إلى استئجار مدرس . لأن خطورتها أكبر من أن يهملها رجل مثقف . وفى المستقبل حين تستغل الذرة لخدمة البشر بدلا من قتلهم سوف يقسم التاريخ البشرى قسمين : ما قبل الذرة وما بعدها .

ولكن هناك دراسة أخرى ، قد تكون لها علاقة بالذرة ، لا تفتأ تهجس بى كما لو كانت وسواساً هى العلاقة بين القوة والمادة أو الله والكون . وظنى هنا أنى مع سبينوزا . ولكنى لما أهتد إلى همزة الوصل بين القوة والمادة . أعنى أنى لم أبلغ درجة من الفهم فى هذه المشكلة أستطيع بها أن أرتفع إلى التعبير اللغوى عنها .

وقد كان يقال إلى وقت قريب ، بل لا يزال هناك من يقول ، إنه ليس هناك حد تقف عنده المعارف البشرية . ولكن هذا خطأ . لأن هذه المعارف محدودة فى هذا الكون . وظنى أننا نعرف فى عصرنا الحاضر أكثر من نصفها أو ثلثيها . ولم يبق علينا غير الثلث أو أقل . ونستطيع أن نستبدل بكلمة « معارف » كلمة « حقائق » . فانى لا أستطيع أن أعرف ما يقرب من مئة ألف نوع من الحشرات حشرة بعد أخرى . ولكنى بتشريح حشرة واحد أعرف حقيقة الحشرات جميعها . وعلى هذا الأساس نقول إن حقائق هذا الكون محدودة . وبعد جيلين أو ثلاثة أجيال لن يجد البشر ما يكتشفونه منها سواء على الأرض أم فى الشمس أم فى الحيوان أم فى النبات .

ويجب أن تؤدى هذه الحال إلى التشجيع والتفاؤل . فان هذا الكون ليس من السعة أو العمق إلى الحدود الغيبية التى تثبط عن المحاولة والفهم . فهو مكشوف قليل الحقائق وقد أوشكنا أن نعرفها جميعها ولم يبق سوى استغلالها . وهناك بالطبع مظلمون يحاولون أن يستنبطوا الغيبيات السرية من الماديات المكشوفة . ولم أنخدع قط بهم . وهم عندى والباحثون عن الروح بالنقر على المائدة سواء . وظنى أن مشكلتهم عاطفية تحتاج إلى التحليل النفسى وليست ذهنية تحتاج إلى المناقشة الوجدانية .

وفى السنين العشر القادمة سوف أتوسع وأتعمق فى السيكلوجية والبيولوجية وأزداد فيهما نضجاً . وهما من غرام الشباب الذى لازمنى إلى الشيخوخة . ومن أطماعى الثقافية أيضاً أن أجعل علاقتى

بأرسطوطاليس حية أكثر مما كانت إلى الآن . فان « عصرية » هذا الرجل عجيبة . ولو أنه كانت له قدرة أفلاطون الأدبية فى التعبير لكانت مؤلفاته على لسان العامة قبل الخاصة . ولو أنى بلغت من المعرفة بأرسطوطاليس مابلغته بجيته أو برنارد شو لعددت هذا فوزاً عظيما فى حياتى . ولكن هذه أمنية مستحيلة .

وسيكون لى كفاح ثقافى فى مصر ، فلن أكف عن تأليف الكتب المقلقة مثل « نظرية التطور » أو « حرية الفكر » خمائر صغيرة أبعثها فى أنحاء الوادى وغيره إلى الأقطار العربية كى أزعزع التقاليد السوداء وأحرق العفن الذى تركته على العقول المطموسة . ومن مسرات حياتى أن أجد أن مؤلفاتى « تسرى » فى الجسم الاجتماعى على مهل وفى غير عنف فيأخذ التطور مكان الجمود والنزعة الارتقائية مكان الرجعية الجامدة .

وكذلك أرجو أن يكون لى كفاح صحفى للدفاع عن الديمقراطية فى مصر . وظنى أنى لن أرى انتصاراً للديمقراطية فى السنين العشر القادمة . لأن الرجعية والاستبداد فى استقرار واستحكام ، والديمقراطية عزلاء من كل سلاح . بل إن الصراع القائم فى أيامنا بين أمريكا وروسيا سوف يعزز الرجعية والاستبداد فى مصر . لأن جميع الحركات اليسارية قد أصبح الأمريكيون يشتبهون فيها ويحضون على مكافحتها . ولكن هذه الحال يجب أن تدعونا جميعاً إلى الدعاية الديمقراطية بل إلى الالحاح فى هذه الدعاية وإلا عم الظلام مصر بأكثر مما كان يعمها قبل سبعين سنة . ولا أظن أنى مسرف هنا فى التشاؤم . فان فى

مصر الآن قوات كبرى تتأهب وتتكاتف لتحطيم الأنظمة الديمقراطية ومكافحة الاتجاهات الديمقراطية فى مصر . وهذه الحال يجب أن تزيدنا حماسة وغيرة لمكافحة الاستبداد والرجعية . وأرجو أن يكون لى نصيب يمتعنى من هذا الكفاح الذى أطمع فى الاشتراك فيه .

وثم مطامع أخرى تكاد لبعدها عن الواقع تقارب الأمانى . منها أن أرى أوربا وأحس رياح البلطيق فى شمال ألمانيا وأسأل عن الكلمات الفرعونية التى لا تزال باقية فى فنلندا ، وأرى المرأة الأوربية الجديدة ، نورا ، التى كتب عنها إبسن وأثار بها خيالى قبل أربعين سنة . وأحب أن أقرأ جورنال دوجنيف وهو لا يزال ساخناً فور خروجه من المطبعة . وأحب أن أقعد فى قهوة فى البولفار فى باريس وأناقش فى السياسة . أناقش وأنا مطمئن إذ لنّ يقول لى أحد القاعدين : « أسكت . ليس لك حق فى المناقشة . الانجليز أسيادكم . » ثم أقصد إلى غرفتى وأنا ذليل مهين أتبرز الدم والمخاط . كما حدث لى حوالى ١٩٠٨ . وأحب أن أزور تمبكتو فى أفريقيا وبكين فى الصين . وأحب أن أقف أمام جبل هملايا وأحس خشوع العبادة للكون . أحب أن أرى كل هذا لأن من واجب من يعيش فى الدنيا أن يرى الدنيا . ولكن العالم لم ينظم إلى الآن كى يحس أبناؤه أنهم يملكون هذه الدنيا . ووطنيتنا الكبرى مجزأة وقوميتنا البشرية ممزقة ، فنحن فى أوطان كأنها أحجار لا نخرج منها إلا باذن وفى فزع ، ونحن نلوى ألسنتنا بأصوات مختلفة فنظن أننا مختلفون .

وأخيراً أحب أن يكون من برنامجى قضاء السنوات الخمس

الأخيرة من العمر فى الريف حيث أصادق الخراف والحمير والبقر والشجر وأتحدث إلى النجوم وأحيي الشمس فى الصباح وأضحك مع الماء يجرى بين النبات وآكل الخس والفجل على حرف القناة .

وهنا يستطيع السيكلوجى أن يجد فى هذا الشوق إلى الريف « هروبية » كأنى قد انهزمت أمام الصعاب المدنية والثقافة العصرية المتقلقلة . وأنا لا أحلل هنا . ولكنى لا أحب أن تكون هذه السنوات الخمس الأخيرة من العقد السابع آخر العمر لأنى ما زلت أطمع فى تجديد البرنامج عشر سنوات أخرى ، بل وعشر أخرى . فان الشباب فى الثمانين والتسعين لم يعد أمنية بعيدة إذ هو حقيقة راهنة فى مئات من الذين عنوا بثقافة الذهن وثقافة الجسم معاً .

مطبعة الكاتب المصرى شركة مساهمة مصرية

مؤلفات الأستاذ سلامه موسى

وتواريخ صدورها

مقدمة السبرمان (دار الهلال) ١٩٠٩

الاشتراكية (مطبعة جرجس فيلوثاؤس) ١٩١٢

الجريمة والعقاب لدستوفسكى (ترجمة . مطبعة جرجس فيلوثاؤس) ١٩١٢

المستقبل (مجلة أسبوعية صدر منها ١٦ عدداً من مطبعة الشيخ يوسف الخازن) ←
١٩١٤

أشهر الخطب ومشاهير الخطباء (دار الهلال) ١٩٢٣

أشهر قصص الحب التاريخية (دار الهلال) ١٩٢٤

أحلام الفلاسفة (دار الهلال) ١٩٢٥

مختارات سلامه موسى (المطبعة العصرية) ١٩٢٦

حرية الفكر وتاريخ أبطالها (دار الهلال) ١٩٢٧

العقل الباطن (دار الهلال) ١٩٢٧

أشهر الصور (دار الهلال) ١٩٢٨

اليوم والغد (المطبعة العصرية) ١٩٢٨

نظرية التطور وأصل الانسان (المطبعة العصرية) ١٩٢٨

المجلة الجديدة شهرية ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣٤ إلى ١٩٤٢ ←
(مطبعة المجلة الجديدة)

المصرى مجلة أسبوعية (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٠

ضبط التناسل ومنع الحمل بالاشتراك مع الدكتور كامل لبيب
(مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٠

غاندى والحركة الهندية (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٤

مصر أصل الحضارة (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٥ (ثم المطبعة العصرية)
١٩٤٧

التجديد فى الأدب الانجليزى الحديث (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٦

النهضة الأوربية (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٦

السيكلوجية فى حياتنا اليومية (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٣٦

الشخصية الناجعة (مطبعة المجلة الجديدة) ١٩٤٣

البلاغة العصرية واللغة العربية (المطبعة العصرية) ١٩٤٥

كيف نسوس حياتنا بعد الخمسين (المطبعة العصرية) ١٩٤٦

التثقيف الذاتى (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٤٦

عقلى وعقلك (دار الكاتب المصرى) ١٩٤٧

فن الحياة (مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٤٧

تربية سلامه موسى (دار الكاتب المصرى) ١٩٤٧

أصدرت دار الكاتب المصرى بإشراف ال...

موريس باريس — جنة على نهر العاصى

هنرى برجسون — الضحك

بيير بنوا — غانية أطلنطا

أنطوان تشيكوف — قصة رجل مجهول

إيفان تورجنيف — الحب الأول

أندريه جيد — أوديب — ثيسيوس ، الباب الضيق ، مدرسة الزوجات

فيدور دستويفسكى — المقامر

ليون دوديه — كليمنصو وحياته العاصفة

أ. دى سانت اكسوبرى — أرض البشر

ستندال — دير بارم [جزآن]

إميل لودفيج — نابليون [جزآن]

أندريه موروا — وازن الأرواح

فرانسوا موریاك — والدة ، عقدة الأفاعى

بروسبير ميريميه — كولومبا

أوسكار وايلد — صورة دوريان جراى ، شبح كانترفيل

ﻫ . ج . ولز — طعام الآلهة

أولدس هكسلى — العالم الطريف

*

ابراهيم المصرى — قلوب الناس [قصص]

محمد سعيد العريان — من حولنا [قصص] ، على باب زويلة [قصة تاريخية مصورة]

محمد عبد الحليم عبد الله — لقيطة [جائزة فاروق الأول للقصة]

يحيى الخشاب — حكايات فارسية

*

إجناس جولدتسيهر — العقيدة والشريعة فى الاسلام

حسن عثمان — سافونا رولا

سلامه موسى — عقلى وعقلك ، تربية سلامه موسى

عبد العزيز فهمى باشا — مدونة جوستنيان

عبد العزيز البشرى — قطوف [جزآن]

محمد الصادق حسين — البيت السكى

يوسف كرم — تاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط



دار الكاتب المصرى
شركة مساهمة مصرية

٥ شارع قنطرة الدكة
القاهرة مصر